ظلمتك يا بغداد

عبد الكريم غلاب

ما يزال اسم بغداد يثير المشاعر العربية ، ويحمل الى الاحساس العربي مجموعة من القيم والحضارات والثقافات والفنون والسياسة · وما يزال الذين يزورون بغداد – على اختلاف العصر واختلاف التفكير واختلاف التقييم – يشعرون وكأنهم يزورون عاصمة الرشيد وبلد الف ليلة وليلة ومغنى ابى نواس ومزارة البحترى وابى العلاء ومصدح دنانير ومجمع المأمون

واذا كانت الف من السنين أو تزيد تفصل بغداد عن عالمها ذاك ، وترمي بها بعيدا في أحضان حضارة جديدة وقيم جديدة وانسان جديد ومظهر بنائي جديد ، فان الاصالة التي تتمتع بها بغداد لم تستطع ان تفصلها عن عالمها القديم الذي امتزج فيه العلم بالفن ، والادب بالسلطان ، والمال بالترف والنعيم ، فأصالة بغداد اصالة عربية · والعروبة محتد أصيل لايمكن ان ينسلخ عن ماضيه ، ان غيرت السنون من مظهره فلن تغير من مخبره ·

كنت قد زرت بغداد منذ نحو من ثلاث سنوات وجوها يومئذ ملتهب تزفر شوارعها بلفحات من جهنم وتتبخر دجلتها فيكسوها لون أغبش يغلف بغداد بقتامة نافرة · ونظرت في وجوه البغداديين فوجدتها طافحة بالالم الصامت من حكم يسومهم سوء الذلة والحقارة ، كان اباؤهم يطفح ألما على وجوههم ، فقد كانوا غير راضين ان يحكمهم عقل أهوج ، وعصب متوتر ، وحس بليد وفكر تافه جاهل ··· لم يكونوا يرضون بكل ذاك ، ولكنهم كانوا يشهدون القوة تجمع الشعب للهتاف والتسبيح ، وتفاهة العقل الاهوج المتبلد تفرض عليهم ان يسيروا في تيار الطيش والحمق واللا مسؤولية · كانوا غير راضين ، وكانوا متألمين ، وكانوا يشعرون بأنهم غير أهل لمحنة يشقون سعيرها وهم عرب اخص سماتهم الكرامة والاباء · ولكنهم في ألمهم ، كانوا يرون مصير الحكم الارعن الى زوال · كانوا يسرون الى بذلك ولا يجهرون ، وتعبر وجوههم المتألمة أصدق تعبير ، بل افصح مما لو كانوا ينطقون ويجهرون ··

وضاقت نفسي ببغداد ، فقد اقتربت من الرجل الذي ضاقت بغداد بحكمه ، وسمعته خطيبا ومتحدثا ، ورأيته يستقبل الناس ويستعــرض الجيش ، ويحضر في الحفلات ، فعجبت لقوم يحكمهم رجل من عصب تالف أربع سنوات ، واصبحت بغداديا كما لو كنت ابنا من ابنائها ، وضاقت نفسي بالمدينة اللاهبة شكلا ومضمونا وفررت من بغداد وأنا أحمل لها في نفسي ذكرى لم تكن احسن مما يحملها أحد ابنائها ٠

وظلمتك يا بغداد ٠٠!

فلست انت دائما بغداد يوليو ، ولست دائما بغداد عبدالكريم قاسم، ولكنك بغداد التي تغنى بجمالك الشعراء ، والتي تطفح قسماتك بالاصالة العربية ، والتى يتمثل فيك سحر دجلة وخفة ابى نواس ، ورزانة البحترى، وعمق الفكر الانساني الذى التقى بين جوانحك ، وطهر النفس العربية التي مايزال يمثلها بنوك ، ورحابة الصدر التي ماتزال تحتوى الغريب عنــك وبسمة الرضى التى تطفح على وجوه علمائك وشعرائك والمكافحين مــن ابنائك ٠

عدت الى بغداد بعد قرابة من ثلاث سنوات ، فوجدتها غير بغدادالتي عرفتها من قبل : لم اجد ارضا لاهبة ولا وجوها عابسة ، ولا الما عميقــا ولا تبرما من الحياة ، وانما وجدت البغدادي كما يحدث عنه التاريخ عربيا مستبشرا بالحياة ، سعيدا بعروبته وعمله ، يعيش في عيد مظهره الفكر والادب والشعر ٠

ووجدت بغداد الرضية تقبل عليك لتحتويك بين قبابها ومنائرهـا ومساجدها ٠ بين شوارعها الفخمة الحية ، وجسورها الضخمة الجميلة ، بين معاهدها وكلياتها ومكتباتها ٠ وجهها المفتر ينبىء انها رضية متطلعة تفتح امامها آفاق الحياة الفضلى ٠

وتشعر وانت في بغداد انها تنفض عنها غبار الماضى المؤلم فهي ترغب في حياة الحرية والديمقراطية ، وهي تطمح لحياة وحدة عربية شاملة ،وهي تتمطى لتكسر قيودا سياسية واقتصادية واجتماعية غللت حريتها احقابـا من التاريخ ٠

وهي تحاول ان تمحو مظاهر تشويه ماتزال تخيم في جنبات شوارعها الضخمة الواسعة ، وهي تحاول ان تصل ما انقطع او كاد بينهـا وبين بقية البلاد العربية فتنظم مؤتمرا للادباء ومهرجانا للشعراء ، وفي حظيرتهـا يجتمع الفكر الذي ينبض مابين المحيط والخليج ٠ ومن علمائها واساتذتها وشعرائها وشاعراتها تتكون باقة حافلة بالنور والاريج تستقبل وفـود الفكر العربي لتحقق معنى اللقاء الفكري الذي اشاع يقظة بين رجال الفكر والقلم واحيى عهد بغداد الزاهر فوصل ما انقطع من التاريخ على نحو لم يعرفه التاريخ ٠

هذا اللقاء الفكرى منح بغداد مظهرا جديدا لحياتها الفكرية القديمـة

فقد كان حاكموها من الخلفاء يعتبرون الفكر احد دعائم الحكم ، وحرص حاكميها الحاليين على اقامة هذا اللقاء الفكري في بغداد دليل على انهم مايزالون يقيمون للفكر وزنا في حياة الشعوب .

وأحسب ان الشعب العربي في العراق هو الذي يفرض للفكر وجودا في المجتمع الحديث ، فان تيار السياسة والتيار الاقتصادي والتخلف الاجتماعي لم يستطع كل ذلك ان يصد الانسان العربي في العراق عن أن يعنى بالفكر ويعطيه مركزه في الحياة العامة .

ماتزال الحضارة العربية تلتقي في بغداد ولو بعدت بين مظاهرهاآفاق المشرق والمغرب . والفن المعمارى المغربي هاجر اخيرا من قلب فاس ومراكش ليلتقي بالفن المعماري العراقي في الكاظمية والاعظمية وغيرهما من المساجد والقصور ، هاجر النقاشون على الجبس بفنهم الممتاز الذى يمثل اروع الفنون المغربية الاندلسية ليثوى في سقوف وبلاطات المساجد ببغداد، وقد استدعت بغداد ورحبت وبذلت الكثير لتؤكد قابليتها لمزج الحضارات وتطعيمها ، ولتؤكد تقديرها للفن الاسلامي العربي الذى مايزال ينبض بالحياة في المغرب .

وهذا الالتقاء لم يكن الا نموذجا لالتقاء الحضارات في بغداد الحديثة كما كان الامر منذ كانت بغداد القديمة وقد شعرت وانا ازور هذه المساجد بشعور الاعتزاز ، فنحن هناك نؤكد هذه الصلة التي جمعتنا منذ كان الانسان العربي سواء في بغداد او فاس او مراكش ، ونؤكد وحدة حضارتنا التي تستند على اصول واحدة وان ثوى مظهر لها في المشرق وثوى مظهرها الاخر في المغرب .

والعاصمة الشرقية الكبرى ماتزال تفتح آفاقها على الحضارة الحديثة. وكأية عاصمة شرقية تقف بغداد بين الماضى والحاضر والمستقبل : العباءة والعقال والعمة بجانب البذلة والشعر الموشوق . والمرأة المعبأة تجرر اذيالها في ارتخاء الى جانب الفتاة السافرة المتأبطة لكتبها او محفظة عملها وما تزال فتاة بغداد تكافح في سبيل اناقتها يسعفها جمال متفوق فيالغالب. فيه بعض من سمر العربيات ولكن فيه كل حورهن واتساع عيونهنوجاذبية نظراتهن .

وما تزال بغداد تحكي القديم والحديث في مظاهر البناء والعمران فأضيق الدروب والزقاقات يطل على اوسع الشوارع الحافلة بالحركة والحياة . واجمل العمارات تجاور كوخا او شبيه كوخ . ومايزال القديم والجديد يتجاوران حتى في التيارات السياسية والاجتماعية والفكرية ، فالشيوعي المتطرف والبعثي النزق والقومي المتحمس والوطني المحافظ والمسلم المتمسك ، كل اولئك يتجاورون في تعايش سلمى او دموي ،ولكنهم جميعا يعطون صورة عن بغداد التي ماتزال تتقبل وتهضم وتصدر فكرا وثقافة ومبادىء وقيما وحضارة .

لاتذكر بغداد الا ويتداعى من اسمها الادب والعلم والفن والحضارة، وليس من شك في ان ذلك ناتج عن الدور الذي قامت به بغداد كعاصمة اسلامية عربية اشعت كل حضارة الاسلام والعروبة في ازهى عصور التاريخ العربي من حيث العلم والحضارة والفن والادب ٠

ولذلك فبغداد مدعوة دائما ان تقوم بمسؤولياتها التي حملها اياها التاريخ او حملتها لنفسها في احقاب من التاريخ ٠ فتقوم بدور الاشعاع العلمى والفني والحضارى ٠ ولن يعفيها من هذه المسؤولية الكوارث التي هزت كيانها حينما وطئتها اقدام الفاتحين من امثال المغول والتتار الذين خربوا مظاهر الحضارة ، واطفأوا كثيرا من منارات العلم والفن والادب ، وابادوا المكتبات والجامعات والمدارس ، وأخمدوا بكل ذلك الشعلة المتقدة في نفس المواطن العربي في بغداد وفي كل افق شملته بغداد باشعاعها ٠

لن يعفيها كل ذلك من رسالتها الفكرية ، ولن يعفيها ايضا ماتعرضت له ـ كجزء من عالم العروبة والاسلام ـ من تخلف بعد ان اصبح هذا العالم كالبقرة الحلوب يدر الخير على الحاكمين ، ويكتفي ـ بحكم انه بقرة ـ باجترار الغثاء ولم يفده الاجترار ولو اقنعه بانه مايزال يتغذى ٠

ولن يعفيها من مسؤوليتها الفكرية ما اصابها من احتلال عسكرى وغزو فكرى اضفى على البقرة الحلوب المجترة طابع الاستمرار ، وحول « الذهب الاسود » الى لعنة خربت طاقة العمل عند الفلاح والصانع والتاجر والعالم والعامل لتصرفهم جميعا الى طلب الغنى عن طريق المجهود الميسور، والى التقاط الفتات من مائدة الشركات المحتكرة المستغلة التى تستنزف ثروة الوطن ، ومن وراء ذلك تستنزف الطاقة البشرية المكافحة فى الوطن المتخلف ٠

ولن يعفيها من كل ذلك قلة الاستقرار الذى عرفت به ارض العراق ، حتى اصبحت فيما يخيل لبعض الملاحظين ارضا تصنع الثورات ، وتصدر وتستورد ٠٠٠ الثورات ٠

والحق ان العراق ما يزال البلد الذى يشعر بمسؤولياته العلمية والادبية ، ومايزال البلد الذى يعيش للعلم والادب والفن ، وكأنه مصر على ان يلتقط الشعلة القديمة لتضيء فكر هذا الجيل والاجيال القادمة ٠

عرفت وانا في القاهرة مجموعة من زملائي في كلية الاداب من العراقيين كانوا مثال العمل الدائب والنشاط الجد ، وكان لهم عشرات الزملاء فى مختلف كليات الجامعة ومعاهدها ٠ ولم تكن حكومة بغداد تبخل في رعاية طلبتها وتوجيههم ، وكانوا يشعرون وهم طلبة برسالتهم العلمية التى تحملها اياهم الاجيال ، وكم كنت سعيدا وانا اجد الان بينهم عمداء الكليات واساتذة الكراسي في الجامعات ، وكلهم استمر في رسالته العلمية ومايزال ٠

وكنت اعرف وأنا في القاهرة ان معظم ما تنتجه مصر من كتب العلم والمعرفة يصدر الى العراق ، ولولا القارىء العراقي لتوقف كثير من المنتجين عن النشاط العلمي في القاهرة وماتزال هذه الظاهرة ملحوظة في العراق • العراقي مغرم بالقراءة المجدة ومغرم بالبحث والكتابة ومغرم باقتناء الكتب ، ومغرم قبل هذا وذاك بالجهد المضني من اجل العلم والادب والفن •

واذا كان العراقي لايجد راحته في العمل الفلاحي مثلا لانه لايقبل ان يكون لصق الارض يحطم كبرياءها لتنتج وتدر ، فهو بعكس ذلك يقبل عن طواعية والتذاذ ان يكون لصق الكتب يبحث ويدرس ويبذل الجهد والمال في سبيل اللذة العلمية •

ماتزال البيئات العلمية على اختلاف الاجيال تشع علما ومعرفة في انحاء العراق ، ومايزال الاختصاص ـ قبل ان تعرف الجامعة التي توزع الدارسين حسب اختصاصاتهم ـ يوجه علماء بغداد والمدن التي عرفت بالعلم والبحث في العراق : علماء عرفوا بالبحث التاريخي والجغرافي وعلماء عرفوا بالبحث اللغوي والادبي ، وعلماء عرفوا بالبحث الفقهي والاصولي ، وهكذا يوزع العلماء جهودهم في البحث والاستقصاء والانتاج •

وقد كان مؤتمر الادباء العرب فرصة قدمت فيه العراق نخبة من علمائها المتازين في كل فروع المعرفة ، كان منهم الباحثون والمحققون والدارسون والمؤلفون والاساتذة برهنوا على ان المجامع العلمية ماتزال تجد في العراق البيئة العلمية الصالحة للدراسات العلمية •

وبرزت في المؤتمر نخبة من علماء التراث العربي والاسلامي وهم جميعا من المحافظين على هذا التراث بما كونوه من مكتبات نادرة الوجود في العالم العربي الاسلامي • زرت احدى هذه المكتبات النادرة التي كونها الاستاذ عباس العزاوي عضو المجمع العلمي العراقي ، فقد تكرم باستدعاء نخبة من اعضاء المؤتمر لزيارة المكتبة الحافلة بنوادر المخطوطات التي يشغل نفسه ـ رغم شيخوخته ـ بتحقيقها والاستفادة منها ، وهو يعتز بهذه المكتبة ويغار عليها كشيء ثمين تطلب منه عمرا مديدا في تكوينه وتربيته وقد كان لذيذا ان تشهد احدى لجان المؤتمر نقاشا حادا عنيفا بين الاستاذ العزاوي والاستاذ علي الخاقاني قوامه رغبة كل منهما ان يطلع على اغرب مافي مكتبة الاخر •

وما تزال العراق تحتفظ بروعة الشعر العربي وقوة اسلوبه ونقاء لغته وحسن جرسه ويروعك ان تستمع الى شيخ معمم ملتح يلقي شعرا يهز به اعواد المنابر كما كان يقال ، استمعت الى الشيخ مصطفى جمال الدين واستمعت الى الشيخ احمد الوائلي وغيرهما فذكروني بالشعر العربي الاصيل الذي كان الشاعر يوفر له كل جهده وطاقاته الفنية وكل احساسه ووجدانه ومعارفه ليقدم قطعة من ذات نفسه ، فيها روعة الاحساس وصدق

الوجدان وجمال الصنعة والتمكن من اللغة والاسلوب · انك تكاد تؤمن بانك امام طاقة فنية رائعة تذكرك بالبحتري وابي تمام والشريف الرضى، وقد تذكرك الوجوه والملابس بالعصور الخوالي ، ولكن الشعر نفسه ينقلك من الماضي الى الحاضرفي مضمونه وطريقة تصويره،وان احتفظ الشكل والاسلوب باجمل مافي الماضي واروعه وازهره ·

العراق بيئة علمية صالحة ·

كذلك كانت في الماضي كما يحدث التاريخ ، وكذلك هي في الحاضر كما تحدث حياة العراقيين ، وكذلك هي في المستقبل كما تحدث الكليات والمدارس والمجامع التى توفر العلم لكل ابناء العراق والتي تجعل من مستقبل العراق صورة منتسبة لماضيها على جسر حاضرها ·

الرباط (المغرب)



حقائق عن العالم العربي

الدكتور ناصر الحاني

لقد انكمش عالمنا وصغر ، وغدا حاضر كل قطر فيه ومستقبله ايضا متصلا اتصالا مباشرا بكل ثقافة ومذهب فكري وبكل طريقة في الحياة . فليس هنالك قطر يستطيع ان يعزل نفسه عن العالم ، ومما لا شك فيه اننا اذا عرفنا الشعوب الاخرى معرفة واسعة شاملة فان هذه المعرفة ستمهد لعلاقات حسنة وسيبدو اثرها الكبير في الدور الذي نستطيع ان نلعبه على المسرح الدولي .

وما دمت في هذا المجال فانني اريد ان أؤكد بان صورة (Image) العربي ليست واضحة حتى في اذهان الطبقة المثقفة هنا .

ان الآراء السائدة عن العرب تدور في اغلب الاحيان على الاستهزاء بهم او اشاعة نوع من القصص الغريبة عنهم ، وان وسائل الاعلام ولاسيما السينما والصحافة لا تذكر العرب الا وتذكر معهم الجمال او الرقص الخليع

من المؤسف حقا ان هاتين الوسيلتين الاعلاميتين تستغلان ما كتبه طلائع المجازفين الذين زاروا العالم العربي اواخر القرن الماضي او القصص التي تدور حول مغامرات (لورانس) أو قصص ألف ليلة وليلة . ويبدو أن اولئك الذين يمارسون الشؤون العربية وحتى الذين يعنون بها يوميا تفوتهم العوامل الاصيلة التي توجه الفكر العربي وتتحكم بالسياسة العربية بالضرورة . وقد غدا من المفيد جدا ان نذكر انفسنا بهذه العوامل .

ان أول حقيقة تستحق أن نتذكرها عن العالم العربي هي ان هذا العالم لا يتألف من مجموعة دول متنافرة شغلت بتناحر مستمر بينها كما نقرأ هذا دوما في الصحف التي تؤكد على أن هذا التناحر طابع حقيقي للشؤون العربية كافة .

ان العالم العربي – على العكس من هذا – متكامل متماثل لاسباب

---

(١) تعريب محاضرة القيت بكلية وست منستر بالولايات المتحدة وعنوانها :
Facts to be Remembered about the Arab World

كثيرة تضاف الى ما يذكر عادة هنا من أن العرب ينتمون الى رس واحد . فالرس ليس ضرورة لا غنى للقومية عنه ـ كما هو معلوم ـ لكنه من العوامل الهامة في الشعوب التى نمت قوميتها سلفا وهو من مقوماتها .

ان اللغة العربية والخصائص الموروثة للتراث العربي تؤلف العوامل الرئيسية لهذا التماثل والتكامل العربي .

ويجدر أن نتذكر أن هذا العالم يمثل حضارة عريقة قديمة لعلها أقدم حضارة في عالمنا كله تهيأ لها استمرار عبر العصور . ان كثيرا من الاختراعات والوسائل التى يسرت التقدم الانساني عرفت نشأتها الاولى في العالم العربى . ان الزراعة والعجلة اللتين تمثلان أعظم ثورتين فى تاريخ الانسان قد عرفتا هناك ، كما أن القوانين والالفباء والارقام ولدت هناك . لقد استطاع سكان العراق القدامى أن يصمموا أفرانا تشوى بها المواد الفخارية تصل حرارتها الى ٨٠٠ درجة احيانا .

لقد ولد الانبياء والرسل جميعا فى العالم العربي الذى غدا مهبط الكتب المقدسة كلها . وان اكثر الكتب انتشارا فى العالم اليوم هما الكتاب المقدس والف ليلة وليلة وكلاهما ولدا بعالمنا العربى .

لقد كان العرب حملة الفلسفة من العصور القديمة الى العصور الحديثة وكان منهم الاساتذة الذين أنعموا على العصور الحديثة بثمرات العصور القديمة . لقد كانوا وسطاء نقلوا الفكر اليونانى والهندى فى عالم الرياضيات ، وكانوا ملتقى الفكر الشرقي بالفكر الغربى .

لولا العرب ما عرفت أوربا فلسفة اليونان أو مدى النتاج الهندى أو تطور الفكر الصينى . لولا العرب ما كان للكاثوليك فى الشرق ان يعززوا روابطهم بالارثوذكس في الغرب. ان العرب ـ كما قال ايج . جي . ويلز ـ حملة مشاعل الحضارة فى العصور المظلمة .

لقد نمت الثقافة العربية خلال العصور وقصاراها أن تهضم التراث القيم فى الحضارات الاخرى . وظلت تتسم بالمرونة لتواكب حاجات العصور المتعاقبة ، ولكنها احتفظت دوما بتلك المقومات الاصيلة فيها . وقد اضفى هذا على الثقافة العربية نضجا مكنها من أن تبقى صامدة على صعيد شامخ حتى فى احلك عصور التاريخ .

اننا لا نعرف ـ فى التاريخ البشري ـ حضارة هوجمت بشراسة وضراوة كالحضارة العربية . لقد قاست عصورا طويلة تحت وطأة الاحتلال الاجنبي ، وظلت دوما تجابه مشكلات وأزمات لا نشك فى أنها لو جابهت حضارة أمم اخرى ليس لها هذه الجذور العميقة فى التاريخ لطوحت بها .

لقد ظل العرب تحت نير المستعمرين قرونا طويلة ولكنهم استطاعوا ان يظلوا عربا فى كل مكان استقروا به وفي كل الظروف التي عاشوها . ان تقاليدنا وثقافتنا عميقة عمقا لا تدركه الحركات السياسية العابرة أو

أنواع المثل السائرة لتسلمه الى التبدل والتزعزع كما تريد الصحافة هنا أن تصورنا دوما . ان موقف بعض الصحف حيال تطور الاوضاع في العالم العربي محزن حقا .

عندما يرى العربي في العراق أو مصر أو سورية حاجة ماسة لتطور العلاقات الاقتصادية مع الشرق والغرب على حد سواء ودون انحياز لأحدهما ، وعندما يحاول العرب ان يقتفوا سياسة الحياد الايجابي ، وعندما يحصل العرب على مساعدات اقتصادية من الشرق لسد حاجتهم بعد ان يجدوا الغرب قد سد السبل امامهم نرى الصحافة هنا تصفهم بأنهم شيوعيون .

عندما يناقش العرب شؤون وحدتهم والتعاون الذي يتطلعون اليه ويحتدم النقاش بينهم احيانا ، وعندما يعملون جاهدين لينعشوا آمال وحدتهم ويوضحوا مقوماتها ، نرى الاتجاه العام في الصحافة يميل الى ان يتنكر لمنطق الوحدة العربية وجذورها العميقة وان يصورها على انها حلم رجل واحد يريد ان يحتل العالم العربي . حقا لقد كان الانطباع الذي خلفته الصحافة هنا مرارا هو ان العالم العربي قد ضاع .

ان هذه امثلة قليلة فقط ، وهي تصور الاتجاه ضد الحقائق التاريخية العربية وضد التيارات المشتبكة في التطور العربي .

وهناك حقيقة اخرى يجدر ان نتذكرها عن العالم العربي وهي ان هذا العالم كبير جدا ، انه اوسع مساحة من الولايات المتحدة الاميركية ، ويقع على شواطىء البحر الابيض المتوسط ممتدا من المغرب على المحيط الاطلسي الى العراق على الخليج العربي .

ان العالم العربي بسبب موقعه هذا يؤلف جسرا بين اوربا وآسيا ، وان أمن العالم الحر ليغدو اسطورة حقا دون عالم عربي صديق . ليس على المرء الا ان يتذكر الاحداث النكراء عام ١٩٥٦ عندما تعرضت مصر للاعتداء وسدت قناة السويس ، ليدرك مدى اهمية هذا المجرى المائي خاصة والعالم العربي عامة .

وهناك حقيقة اخرى هامة يجدر ان تظل ببالنا عن العالم العربي .

من الحقائق المقررة ان الشرق الاوسط يحتوي على ثلثي احتياط النفط في العالم كله اذا ما قورن بنسبة ٢٪ من المائة تشتمل عليه الولايات المتحدة وكندا . ويذهب الخبراء الى ان نفط الولايات المتحدة يكفيها لمدة لا تزيد عن ثلاثة عشر عاما ، وسيضطر الاميركان بعد ذلك الى ان يفتشوا عن دول تمدهم بالنفط وسيكون العالم العربي معتمدهم بين تلك الدول حتما . ولا بد ان نذكر هنا أن موقفنا من النفط غدا واضحا معلوما ومؤداه ان يظل الضخ مستمرا الا اذا تعرضنا في العالم العربي لأزمات خطيرة كما حدث في الاعتداء البريطاني الفرنسي الاسرائيلي الغاشم على مصر . ان ظروفا كهذه لا تبرر اتباع سياسة شل منابع النفط في

المنطقة ومنع الدول الغربية منها فحسب بل تحتم تلك السياسة · ولابد ان نذكر ايضا ان استثمار النفط ـ كما نرى ـ اذا اريد منه خلق مناطق نفوذ للجهات المستثمرة او صحبه التركيز على قواعد عسكرية فان مصلحتنا القومية تحتم علينا ان نبدل موقفنا كله ·

ومن الحقائق الهامة التى تستحق ان نتذكرها عن العالم العربى هى ان هذا العالم تنتظمه (القومية العربية) المنطلقة التى غدت عقيدة حية فى نفوس الجماهير العربية وعقولها ·

ان الشعب الذى يعوزه الشعور القومى كما هو معلوم لا يستطيع ان يلعب دورا حيويا او هاما فى عصرنا هذا ·

ان مسألة تطور نظام فكرى او عقائدى ليكون رائد الانطلاق العربى ونبراسه لم تكن من الشؤون اليسيرة التى خلت من المصاعب· فلقد شهدت الاعوام الاربعون الماضية تطورا فى هذا المضمار وان أدركه كثير من الانتكاسات والعقبات ، وكانت بعض الفئات السياسية والفكرية ترى ان تطور هذا النظام الفكرى يجب ان يكون على منهج يستوحى اصوله من الغرب ، ويرسم صورته مقتفيا مفاهيم غربية ؛ ولكننا ـ بالرغم من هذا ـ ادركنا ان هذا شأن خطير لا يمكن ان يقومه تقليد نموذج اجنبى ما او تبديل طارىء للنظام السياسى · انه لا يتأثر الا بتغيير الفرد العربى تغييرا جذريا أصيلا ·

ويجدر ان يكون هذا التغيير حصيلة لتجارب الفرد نفسه ، بمقاومته وكفاحه ضد العوامل التى خلقت الاوضاع التى لا يرضى عنها ·

ان الوعي القومي يعتمد على استجابة ملايين الناس لاهداف معينة مشتركة والتقائهم عندها ، وذلك لتتحول الجماهير من مجموعات متناثرة فتغدو مجموعة واحدة متماسكة تشدها الى بعضها هذه الروح الوثابة ، وبهذا تصبح كائنا حيا له صفات جديدة مميزة ·

اننا عندما نتحدث عن « الصفات الجديدة » لانريد ان نغير أصول ثقافتنا التى تؤلف الهيكل الحي لقوميتنا ولكننا نريد ان نعرض موازين جديدة نعالج فيها شؤوننا ·

لقد كان المتزعمون التقليديون يستغلون بعض الشعارات القومية العاطفية لتغطية مصالحهم الراسخة فى تفكك الأمة العربية· فكانوا يؤكدون على ان العرب جميعا « أشقاء » ولكنهم لم يستطيعوا ان يحافظوا على ادنى درجات التعاون فيما بينهم ، وكانت كارثة فلسطين ـ كما قال مواطن عربى ـ « نقطة تحول فى التاريخ العربى الحديث أدت ـ من جملة ما أدت ـ الى انتزاع تلك القدسية التى كان يتمتع بها الزعماء التقليديون فى صفوف الشعب العربى » ·

ان الجماهير فى العالم العربى اليوم تعمل جاهدة لتحقيق امانيها ، وقد غدا الهدف الرئيسى للعلاقات العربية تهيئة الاسباب والظروف التى

تسلم الى الوحدة . ان الشعب العربى لم يعد يفكر بالطريقة التقليدية التى درج بعضهم عليها وظلوا يذكروننا بأن العوامل التى تجمع العالم العربى هى الدين المشترك واللغة المشتركة والتاريخ ووحدة النضال ضد الاستعمار ، ويضيفون الى هذه كلها كارثة « خلق اسرائيل » .

ان هذا بطبعه ترديد لأمور قائمة حقا فى العالم العربى كله ولكن الجماهير العربية قد اجتازت مرحلة العيش بهذه المقومات وغدت جزءا من شعورها العام وهى ماضية قدما لتحقيق المثل الاعلى الذى نما فى النفوس عبر السنين ، وتحقيقه يقضى - اول ما يقضى - ابادة تلك الحدود المصطنعة التي فرضتها علينا القوى الاستعمارية منذ عهد ليس ببعيد .

ان هذا يتطلب منا ان ندعم التضامن فى العالم العربى على اسس القومية المنطلقة ، وان وحدة الجماهير كلها واجب قومي ذو اهمية كبيرة ، وستظل مصدرا لقوة التضامن فى الأمة العربية بأسرها .

يمكن القول بأن هنالك ادراكا واسعا بين القوى القومية العربية بأن الطريق لتحقيق تلك الاهداف ليست سهلة او ممهدة . فمن المتوقع ان يكون تمسكنا بسياسة معينة تعتبر جزءا لا يتجزءا من مبادئنا الاساسية سيخلق لنا بعض المتاعب ، ان تمسكنا بمبدأ عدم الانحياز مثلا ورفضنا الانضمام للاحلاف العسكرية ومقاومتنا تلك الاحلاف قد ادى الى اغضاب قوى معينة . وان اصرارنا على استعادة فلسطين وحقوق عربها الذين طردوا من ديارهم وحرموا من وطنهم وممتلكاتهم وسلامة مستقبلهم خرقا لنصوص ميثاق هيئة الامم المتحدة وللقرارات الواضحة التي خرجت بها هذه المنظمة الدولية قد جعلت قوى اجنبية تشن حربا ضدنا تهدف الى القضاء علينا .

ان العرب يعلمون تلك الحقائق ويتحملون مسوءوليات عظيمة وهم يؤمنون ايمانا كاملا بأن الوحدة هى قوتهم المنيعة والسبيل الاكيد لاستقلالهم والضمان الوحيد له ، وهم سائرون بثبات نحو هذا الهدف النبيل

ومن الحقائق الاخرى التي يجب ان تذكر عن العرب هى انهم لا يخاصمون الشعب الاميركى كما يذكرنا المغرضون على الدوام . ان العرب - كما هو معروف - لم يكتفوا بالتعبير عن استيائهم حيال الاستعمار البريطاني والفرنسي بل حاربوه كما حاربوا سياسة « فرق تسد » التى فرضها هؤلاء ، وظلوا يرون فى الولايات المتحدة دولة ذات مصالح مجردة من النفوذ وذات مثل عليا تهدف الديمقراطية الصادقة . لقد اعرب العرب دوما عن ثقتهم بنظام التعليم الامريكى ومستواه الرصين ، ولهذا السبب فأن في الولايات المتحدة اكبر عدد من الطلبة العرب خارج العالم العربى .

ومن الناحية التاريخية تمتعت الولايات المتحدة بمكانة كبيرة عند العرب . ففى عام ١٩٢٠ - بعد الحرب العالمية الاولى - توجهت لجنة اميركية بريطانية هى لجنة (كنغ - كرين) الى العالم العربى لدراسة

الوضع بعد ان تحرر العرب من السيطرة العثمانية ، ومعرفة رغبتهم في الدولة التي يريدونها ان تتعاون واياهم على نيل استقلالهم ٠

ولقد خرجت الولايات المتحدة من الحرب العالمية الثانية بحصيلة فعالة من النوايا الحسنة في العالم العربي واصبح لها معجبون في اكثر طبقات المجتمع ٠ وقد كان سبب هذا ما هو معروف عن الولايات المتحدة من عدم وجود مصالح استعمارية لها ، ومن مبادئها التي نادت بها وحافظت عليها ٠ وقد استبشر العرب كثيرا حين رأوا الولايات المتحدة تستبدل سياستها التقليدية في الانعزال بسياسة جديدة وهي القيادة الفعالة في حقل الشؤون والسياسة الدولية ٠

وحيال هذا كله فاننا لسوء الطالع نتذكر الدور الذى اختارت الولايات المتحدة ان تقوم به حيال مشكلة فلسطين وما صحبه من خيبة أمل كبيرة ٠ لقد بدا واضحا للشعب العربي ان الولايات المتحدة قد طبقت مبادىء مختلفة بالنسبة لتلك المشكلة بالذات ٠ فالمبادىء التي نادى بها الرئيس ولسون ومبدأ تقرير المصير الذى نادت به الولايات المتحدة لجميع الشعوب قد انتهكت كليا بالنسبة للشعب العربي في فلسطين ٠ ان الدور الفعال الذي لعبته الولايات المتحدة لتقسيم فلسطين اذهل العالم العربي بأسره وكان نقطة تحول في تاريخ العلاقات العربية ـ الامريكية ٠ كما كانت قضية اللاجئين العرب الذين شردهم الصهاينة من ديارهم بأبشع السبل التي عرفها التاريخ البشري واقساها سر تلك المحنة ٠

انني لا أود الدخول بمأساة فلسطين بالتفصيل ، ولكنني اود ان اذكر بعض الحقائق التي لا أظنها ستلقى مكانا ـ لاسباب معلومة ـ في أية مجلة او جريدة كبرى هنا ٠

« ثلثي اراضي اسرائيل ملك صرف للاجئين العرب ٠ وثلث المهاجرين الجدد الى اسرائيل وربع عدد سكان اسرائيل يعيشون في منازل هي ملك لهؤلاء اللاجئين ٠ كما ان جميع حقول الزيتون ونصف حقول الحمضيات ملك صرف للعرب الذين يصنفون الان كلاجئين » ٠

لقد علق مراسل جريدة التايمز اللندنية في اليوم التالي للتصويت على مشروع التقسيم في الجمعية العامة للامم المتحدة اى في ٣٠ تشرين الثاني عام ١٩٤٧ بقوله : « ان الشعور العام لدى الوفود ـ بصرف النظر عن اهلية القرار او عدم اهليته ـ هو ان مشروع التقسيم لن يوافق عليه في أية مدينة اخرى غير نيويورك ٠ ان قوة النفوذ الصهيوني في واشنطن مهدت لهذه الموافقة وكانت دعامتها » ٠

ان هذه حقائق حية في ذاكرة كل عربي اليوم لان هذا الجيل كله عاش ابشع صحيفة كتبت في تاريخ الانسان ٠

ان العرب عندما يتحدثون عن سياسة الولايات المتحدة في العالم

العربى فانهم يومؤن الى الدور المعادى الذى الفوه فى السنوات الاخيرة وهنالك عبارة حزن دائمة في هذا المجال .

ولعل آخر ما يجب ان نذكر عن العالم العربى هو ان هذا العالم قد اصبح حساسا بكل شان ذي علاقة بالاستعمار والمستعمرين ، ولا نريد ان ندخل في تفاصيل هذا الامر ، لاننا مقتنعون بان لدينا من تجاربنا التاريخية ما يبرر موقفنا من الدول الاخرى وتأييدنا اياها سواء فى افريقية او في غيرها من الدول التى تتسع بها دائرة النضال ضد الاستعمار والتسلط والكفاح من اجل نيل الاستقلال وحمايته .

اننا لا نرى السياسة الصهيونية التوسعية فوق ارضنا خرقا فاضحا لقرارات الامم المتحدة فحسب بل مناورة استعمارية فى ابشع الصور .

ان العرب يدركون قبل غيرهم بان مطامع الصهاينة لا تقف عند حد . علينا ان نتذكر دوما ان الصهاينة فى اسرائيل قد كتبوا على واجهة مجلسهم هذه العبارة « من نهر مصر الى النهر العظيم – نهر الفرات » ، وقد وزع الصهاينة منذ مدة فى نيويورك خارطة تمتد فيها رقعة اسرائيل لتضم جزءا كبيرا من الاردن ولبنان وسورية وتصل الى حدود العراق .

لقد وزعت تلك الخارطة على الاف الاشخاص وفى وضح النهار . فهل تلومون العرب على حماية كيانهم ؟

اننا مقتنعون بان الولايات المتحدة تستطيع ان تلعب دورا كبيرا فى تخفيف حدة التوتر في الشرق الاوسط عامة وفى دعم العدالة فى فلسطين خاصة .

اننا نعتقد بان الوقت قد حان لكى يدرك الامريكيون مصالحهم الحقيقية في ذلك الجزء من العالم .

اننا نؤمن بان ليس في صالح الولايات المتحدة ان توسع ميدان عدم الثقة بها وذلك بتبنيها سياسة التحيز والتعصب ، ونتوقع ان يدرك اولئك المسؤولون الامريكيون الذين يعملون ناطقين باسم اسرائيل انهم لا يضرون حسن النية القائمة فى بلادنا فحسب وانما يضرون مصالح الولايات المتحدة نفسها .

الاختبارات التربوية

الدكتور احمد حسن الرحيم

منذ امد ليس بالبعيد في تاريخ التربية وعلم النفس ، ظهرت الحاجة الماسة الى اختبارات وقياسات جديدة يتفق على صحتها ويوثق بنتائجها وتشخيصاتها • وقد كانت المدارس القديمة تعتمد على الامتحانات الشفهية والتقدير الشخصي لقدرة الطلبة ومدى استفادتهم من الدروس ، ففي التربية العربية القديمة مثلا لم يعرف نظام الامتحانات التحريرية في المدارس على اختلاف أنواعها فكان الاساتذة يقرون بكفاءة بعض طلبتهم ويزكون استفادتهم العلمية بما يظهر الطلبة في الاسئلة العارضة والامتحانات الشفهية من الاجابات الصحيحة او المبتكرة • [فاذا اتم الصبي مرحلة التعليم في الكتاب جاز امتحانا فيما حفظ من القرآن وفي الكتابة ، واختبار حفظ القرآن كله يعرف بالختمة][1] • ومن اشراف الاساتذة على كتابة الطلبة وما يحلون من مسائل حسابية او فقهية يظهر ما لدى طلبتهم من قدرة على التحليل والتدقيق • وفي الدراسات العليا يمنح الطلبة بعد تلمذة طويلة الامد [اجازة] وهي شهادة تنص على اتقان الطالب علما ما على استاذ مختص بعد تلمذة طويلة وبعد اجتيازه امتحانات شفهية عديدة واظهار استعداده لتفهم مشاكل ذلك العلم بصورة صحيحة • ويكون الطالب في الغالب قد درس ذلك العلم في كتاب من تأليف استاذه • وفي العصور الاخيرة عندما اتسع مجال التربية وازداد اهتمام الناس بها وصارت عملا ضروريا المفروض فيه ان يشمل كل طفل ، ازداد عدد الطلبة والاساتذة • واتسعت فعاليات المدارس وظهرت الحاجة بصورة اقوى الى المزيد من الثقة بالاختبارات المدرسية والى وسيلة مقنعة في مقارنة جهد الطلبة بجهد بعضهم الاخر وانجازاتهم المدرسية • ولعل اول الخطوات في ذلك ما ذكر عن اجراء اول امتحان تحريري في كلية الثالوث College of Trinity » في جامعة – كمبردج Cambridge سنة ١٧٠٢ »[2] •

---

(١) احمد فؤاد الاهواني ، التربية في الاسلام ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، ص٥٣

(2) Dale Russell and Charles H. Judd, The American Educational System. New York, 1940, p. 422.

اما الامتحانات العملية كما في الطب والتشريح فقد بدأت قبل ذلك • وفي سنة ١٨٩٤ قام الدكتور (Rice) وهو استاذ امريكي من مدينـــة بلتيمور ، بتحليل المسائل العلمية ففكر في وسيلة دقيقة او على مقدار مرض من الدقة لاستعمالها في المدارس ليعرف بذلك ما يحصل أحيانا من تقديرات اعتباطية وما ينجم عنها من شعور بالغبن وسوء التقدير ، وقد كان طالبـا في المانيا وأعجبه ما للعلماء الالمان من دقة وضبط ، فأعـد اختبارا للهجـاء [الاملاء] ثم نشره وطلب من المعلمين الاستفادة منه وتحسينه فنقل الامتحانات الى درجة جديدة من الدقة ولكن اكثر المعلمين لم يستجيبوا لصاحب هـذه البـداية العملية في تحقيق الاختبارات المدرسية • ثم عمل الاستاذ رايس عملا أكثر دقة وضبطا وهو ما قام به الاستاذ [أدورد ترندايك] فقد أراد من الاختبار ان يقدم تقريرا كميا لا كيفيا ولا وصفيا •

اى ان نعرف كمية ما نقيس لان تصفه وصفا فنقول :

جيد او ضعيف او نشرح كيفية تاثيره فنيا وكان يقول اذا وجد شيء فانه يوجد بمقدار ، او اذا وجد بمقدار فانه يمكن قياسه •

وارتأى أن توضع درجة الطلبة في الخط بعد مقارنة ما يكتبونه بنماذج متعددة في الخطوط تبدأ بأحسنها وتنتهي باردئها وما على المعلم الا ان يقارن كتابة الطالب بهذه الخطوط فاذا اتضح له مضاهاة خطه لأحد هذه النماذج منح الطالب درجة ذلك النموذج واطمأن الى انصافه وسلامة تقديره • وقد أثار الحماسة للتقنين ما وجد من تفاوت بين ما يمنحه الاساتذة من الاجابات لاجابات الطلبة خصوصا عندما يكون للاساتذة آراء مختلفة في المستويـات المطلوبة والغايات المقصودة واجتهادات ذاتية فيما هو ضروري وغير ضروري من المواد الدراسية فقد عرضت اجابة واحدة في اللغة الانكليزية على ثلاثـة واربعين ومئة مدرس فكان الفرق بين اوطأ تقدير وهو (٦٤) واعلى تقـدير (٣٤) درجة •

واعجب من هذا ما حدث في درس الهندسة فقد عرضت اجابة الطلبة على مئة واربعة عشر مدرسا للرياضيات فكان اوطأ تقدير (٢٨) واعـلى تقدير (٩٢) • وقد ظهر ان من اسباب هذا الاختلاف ان بعض الاساتـذة يؤكدون على نتيجة الحل بينما يؤكد آخرون على الخطوات المتبعة في الحل وان بعضهم يتسامح في الاغلاط والهفوات البسيطة والبعض الاخر يتشـدد فيها •

ومن الممكن ان يقال بأن هذا الاختلاف لايرجع كله الى النظرة الذاتية التي يقدر بها المدرسون اجابات طلبتهم فقد يكون من عوامله ضعف في اعداد بعض هؤلاء المدرسين فاشتد الاختلاف بين التقديرات ، فلم يكن كلهم من الاساتذة الاكفاء الذين يحسنون تقدير الاجابة ويعرفون غايات التربيـة الصحيحة ويراعون مستوى الطالب العقلي والثقافي •

ومن اسباب التشكي في الامتحانات كذلك ان بعض الاساتذة يفاجئون

الطلبة باسئلة غريبة لم يخطر للطلبة السؤال عنها لقلة اهميتها او قلة فائدتها لهم . ويزيد الامر صعوبة ان بعض الطلبة لا يقرأ كل ما هو مطلوب للامتحانات من مادة علمية استثقالا لما يتطلب ذلك من جهد فيلجأون الى اهمال بعض الموضوعات تكهنا منهم بأنهم لا يسألون عنها بالامتحان فاذا حصلت المصادفة السيئة وفوجىء الطلبة باسئلة لم يقدروا السؤال عنها ذهبت جهودهم سدى في قراءة القسم القليل من المنهج المطلوب واصابتهم الخيبة في امتحان ذلك الدرس .

وبعد عمل الاستاذين رايس وترندايك استمرت حركة الاختبارات الدقيقة واتسعت فظهرت اختبارات مقننة لكل مادة دراسية ليقلدها المدرسون في امتحاناتهم واشترط في كل اختبار سليم أن يحتوي على صفتين أساسيتين وهما : ــ

١ ــ اللياقة او صلاحية الاختبار Validity

والمقصود بها ان تكون الاسئلة صالحة لقياس الشيء المطلوب فأذا كان المقصود قياس القدرة الحسابية وجب أن تكون الاسئلة قابلة لقياس هذه القدرة منصبة عليها ، واذا كان المراد قياس اتقان شخص او جماعة لموضوعات معينة من التاريخ او اللغة وجب ان تقيس الاسئلة ذلك القدر المعين ذاته وكل خروج أو ابتعاد عن الموضوع المطلوب يعد طعنا في صلاحية الاختبار ولياقته .

٢ ــ الاعتماد او الثبات Reliability

والمقصود به ان تكون للاختبار قدرة مستمرة في قياس ما يطلب منه فاذا امتحن احد الطلبة في بعض موضوعات الجبر فنال درجة عالية وبعد مدة وجيزة امتحن في الموضوعات نفسها فقصر قصورا شديدا فلابد ان احد الامتحانين قاصر لا يعتمد عليه ، واذا اختبر طلبة للقبول في أحد الكليات فاجتازوا الامتحان ثم اصابوا نجاحا في دراستهم في الكلية حسب ما تنبأت لهم درجات امتحان القبول عد ذلك الاختبار متصفا بالاعتماد او الثبات .

نوعا الاختبارات التربوية

للاختبارات التربوية او اختبارات الانجاز المدرسي Achievement Tests نوعان اساسيان هما :ــ

١ ــ الاختبارات المقالية او الانشائية : Essay Tests

وهي ان يقدم للطالب سؤال او اكثر من موضوع سبق له ان درسه فيجيب عن ذلك حسب ما يرتأى من تقديم او اسهاب او ايجاز ويعرض معلوماته باسلوبه وتنظيمه الخاصين . واذا لم يكن للمدرس فكرة واضحة عن الاجابة الدقيقة والاسلوب العلمي في عرض المادة الدراسية فقد يتأثر بما للطالب من قدرة على الحفظ او ملكة في الانشاء والتطويل او مقدرته على

التسلل من موضوع الى موضوع اخر لم يسئل عنه في الامتحان وهو يقوم بذلك ليرضي المتحن بسعة معلوماته وليدلل على مابذل من جهد في الاستعداد للامتحان من جودة الخط واناقة ورقة الامتحان ونظافتها مما يمكن ان يتأثر به المتحن فيرفع من درجة الطالب ولو قليلا تقديرا منه لهذه المزايا فيدخل في تقدير درجة الدرس عوامل اخرى غير داخلة فيه ، ومن عيوب هذا النوع من الاختبارات كذلك انها تحتاج الى وقت طويل وجهد واسع لقراءتهـــا وتقدير مستوياتها .

٢ ـ الاختبارات المقننة Standerdized Tests

وقد لجيء اليها تخلصا من مصاعب النوع الاول من الاختبارات وهي الاختبارات المقالية . وللاختبارات المقننة انواع عديدة وكلها تحرص على ان تتصف بالموضوعية Objectivity . اي الا يكون مجال في الاجابة لتأثر المصحح بعوامل خارجة عن مادة الاجابة مثل اسلوب المتحن وقدرته على تنظيم الاجابة او اجراء مقارنة للموضوع بموضوع اخر لم يسئل عنه وغير ذلك من المؤثرات العديدة مما قد يعد خارجا عن نطاق الامتحان .

بعض انواع الاختبارات المدرسية المقننة :

للاختبارات المدرسية المقننة انواع عديدة اهمها ما يأتي :

١ ـ اختبار الخطأ والصواب True & False Test

وكيفيته ان تقدم للممتحن جمل بعضها خطأ وبعضها صحيح في معناه فيميز الجمل الخطأ من الصواب باشارة يكتبها امام كل جملة ولا يكتب شيئا غير كتابة هذه الاشارة او الحرف مثال ذلك ان تكون هاتان الجملتان في احد اختبارات علم النفس وهما :ـ

أ ـ يمكن تمييز دماغ الشخص المثقف عن دماغ الشخص الجاهل بصورة علمية .

ب ـ ان كلا من ردود الفعل الفطرية والمكتسبة متأثر بعاملي الدراسة والمحيط. فيؤشر الطالب باشارة خطـأ الى الجملة وباشـارة صواب (✓) الى الجملة الثانية .

٢ ـ اختبار التكملة Completion Test

في هذا الاختبار تقدم للممتحنين جمل عديدة ينقصها اسم او جملـة قصيرة يكتبها المتحن في محل فارغ معد لهـــذا الغرض ، مثال ذلك هاتان الجملتان من اختبار في التاريخ الاسلامي :

أ ـ تأسست الدولة العباسية سنة . . . . .

ب ـ بنى الخليفة المنصور مدينة بغداد سنة . . . . .

فيكتب الممتحن (١٣٢ هـ) تكملة للجملة الاولى و (١٤٥ هـ) تكملة للجملة الثانية • وهكذا في بقية اجزاء الاختبار •

٣ ــ اختبار الاجابات المتعددة Multiple Choice

وفيها تطلب الاجابة الصحيحة عن اسئلة امام كل منها اجابات عديدة يختار الممتحن الجواب الصحيح منها او الكلمة الصحيحة مثال ذلك هذا السؤال وهو من التاريخ الاسلامي كذلك •

بنيت مدينة سامراء في زمن :

المأمون ☐

المعتصم ☐

المتوكل ☐

الواثق ☐

فيؤشر الطالب الى الاسم الصحيح من هذه الاسماء الاربعة •

والملاحظ ان الاختبارات المقننة وان كانت سهلة في تصحيحها وموضوعية الى حد كبير في تقديرها حتى صار من المألوف أن يقوم بتقدير الدرجات وعدها اشخاص اخرون غير الاساتذة واحيانا يستعان بمكائن صنعت لهذا الغرض ، الا أن هذا النوع من الاختبارات يصعب جعله شاملا لكل ما يطلب في الامتحان من تفكير ومادة علمية وهي تحتاج الى عناية خاصة في وضعها وتقنينها ، ثم هي بعد هذا الجهد الشديد كله لاتلائم كل الدروس فهي لا تصلح كثيرا للرياضيات مثلا ، واذا صلحت لبعض الدروس فمن المتعذر او الصعب جدا ان يسأل بها عن كل مايريد المدرس ان يسأل عنه من المواد والمهارات ، لان اجاباتها تتطلب في الغالب جهدا معينا هو التذكر فتلائم بصورة شديدة ذوي الذاكرة الجيدة ، وتغبن ذوي التفكير والملاحظة الدقيقة والقدرة على المقارنة . فلا تظهر بصورة واضحة ومقنعة مقدرة الطالب على التفكير والتعليل وابداء او تمحيص وجهات النظر وما له من قدرة على الاستشهاد بالادلة وربط الحوادث المتفرقة ولهذا فان الاختبارات المقالية لا تزال واسعة الانتشار ومن الواجب تحسينها والتحرز مما فيها من عيوب •

اغراض الاختبارات التربوية

للاختبارات التربوية اغراض عديدة أهمها ما يأتي :

١ ــ تقيس الاختبارات مقدرة الطلبة في الدراسة واستيعاب المعلومات والاراء وتعيين استحقاقهم وفشلهم في التقدم من صف الى اخر ارقى منه •

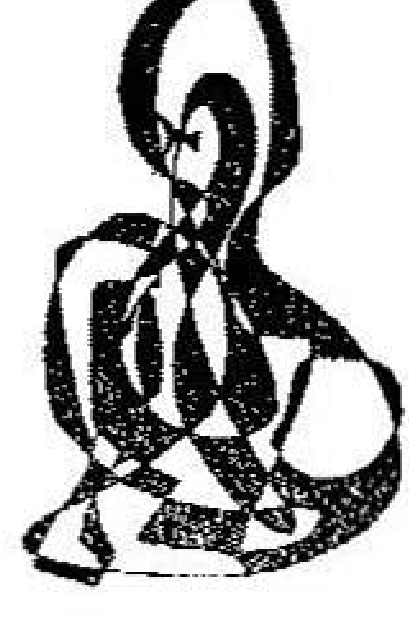
٢ ـ تحث الطلبة على الدراسة والاجتهاد والاستعداد الكافي قبل الدخول الى الامتحان ، ولذلك فهي من اشهر واحسن وسائل الترغيب والحث على الدراسة والتعلم ·

٣ ـ تهيىء الاختبارات فرصة لاجراء مقارنة بين الطلبة أو بين الصفوف في المستويات الدراسية والقابليات العلمية والادبية وتظهر بعض المزايا الشخصية كالشعور بالواجب والاعتماد على النفس والرغبة في اثبات الجدارة والمقدرة ·

٤ ـ تهيىء فرصة لتقييم أساليب التدريس Evaluation والكتب المقررة واجراء موازنة او مقارنة فيما يستفيده الطلبة من كل منها لغرض تحسينها او تغييرها استنادا الى ما يظهره ذلك التقييم ·

٥ ـ تعتبر الامتحانات من المواقف التعليمية التي تزود الافراد بالخبرات لان الطالب يجد نفسه امام بعض المشاكل التي تطلب منه حلا آنيا يستدعي ان يتذكر المعلومات الضرورية والاراء الموافقة ثم يرتب ذلك حسب ما لديه من قدرة على التنظيم وايجاد الرابط ، واذا ارتكب بعض الاخطاء فانه يتعلم تصحيحها بعد الامتحان ويتجنب ان يقع فيها مرة ثانية ·

وللامتحانات فائدة تعليمية لانها تحث الفرد على التفكير السريع والاحاطة بالاجابات احاطة مرضية والمحافظة على مابين المعاني من ترابط منطقي ولهذا فهي من ابرز الدلائل على مقدرة الفرد الفكرية وعلى ما لديه من مهارات ومواهب ·



مِنْ مَظاهِرِ التأثيرِ العربيِّ في الثقافةِ الأسبانيّة

الدكتور حكمت علي الأوسي

لتراثنا العربي الاسلامي ، في اسبانيا اليوم ، آثار شاخصة شامخة تروي قصـة حضارة حفظت للانسانية تراثها القديم واضافت اليه من عبقريتها واصالتها رونقا وبهاء[1] . ولا تزال اصداء هذه الآثار الحضارية تتردد في أنحاء العالم المختلفة مجتذبة اليها السياح وعلماء الآثار والحضارة على السواء . ان أسبانيا كبلد سياحي ، لم تقم شهرتها الا على هذه الآثار العربية الاسلامية الرائعة وما تشيعه في الزائرين لها من جلال وخشوع .

والشيء الجميل حقا هو ان عامة الشعب الاسباني اليوم تعرف من تاريخ هذه الآثار واهميتها ما لا يكاد يعرفه كثير من المثقفين في بلاد الشرق العربي . وقد يكون فيما يقصه عليك اسباني من أوساط الناس ، عن هذا التاريخ المجيد ، بعض القصص التي تبدو عليها مسحة الاساطير ، وقد يشوبها بعض التناقض الذي لا يستطيع له تبريرا ، ولكن الغالب ، فيما يروونه من معلومات عن تلك الآثار انها صحيحة تاريخيا ، أو معتمدة ، على الاقل ، على روايات علماء ومؤرخين متخصصين في دراسة تلك الآثار ، وان ذهبت فيها آراؤهم مذهبا لا يؤيدهم فيه البحث العلمي المتجرد .

ومما يسر العربي في اسبانيا غاية السرور ، أنه كثيرا ما يجد من بين المثقفين الاسبان من يعتز بنسبه العربي[2] أو من يحمل لقبا عائليا عربيا صريحا مثل (بني امية) أو ممتزجا بكلمة اسبانية يكون معها لقبا يشير بوضوح الى امتزاج العنصر العربي في عائلته الاسبانية ، مثل (بني كوميث) . وتشيع بين الاسبان ، اليوم ، أسماء عربية صريحة ، مثل : فاطمة ، ونورية ، وبكر ، وحسن أو مترجمة عن العربية ترجمة حرفية مثل : (عطية الله) Diosdado .

وفي الحقيقة ان التأثيرات والشواهد التاريخية والحضارية العربية ، في اسبانيا ، ليست مقتصرة على بقايا آثارنا أو أطلالها هنالك وانما هي ظاهرة شـائعة في أخلاق القوم وطباعهـم وعاداتهم بل وحتى في دمائهـم وسحناتهم - وانك لتشعر بينهم أنك في بلاد عربية وانهم ليتصورونك مواطنا اسبانيا من الجنوب أو الشمال .

وأود ان أعرض هنا بعض الجوانب من هــذه التأثيرات العربية في اسبانيا ، يظهر منها الى أي مدى قــد اثر العرب الاندلسيون في الثقــافة الاسبانية وفي الــكيان الاسباني العام ٠

ان أول مظهر لهذا التأثير العربي في الحياة اليومية الاسبانية ينجلي بوضوح في اللغة الاسبانية الحديثة ٠ فعلى الرغم من المحاولات التي قامت بصورة رسمية ومدروسة ، في أواخــر القرون الوسطى وأوائل العصور الحديثـة لدراسة المفردات الاسبانية واستخراج الــكلمات العربية التي كانت شائعة فيها ، والاستعاضة عنها بما يمكن ان يؤدي مفهومها ، ولو بصـورة تقريبية ، من المفردات اللاتينية ، وعلى الرغم من القوانين التي صدرت بتحريم استعمال الالفاظ العربية في الاسبانية ، أقول على الرغم من هذا كله ، لا يزال في اللغة الاسبانية اليوم أكثر من سبعة عشر بالمائة من مفرداتها عربي الاصل ٠ وهذا يشكل أكثر من أربعة آلاف كلمة ٠ « اما بناء العبارة وأوضاع الــكلام في الاسبانية فلم تؤثر فيه العربية » ٠

وها هنا بعض من هذه الــكلمات اعرضها لتكون فكرة التأثير العربي في الاسبانية واضحة في الاذهان :

القطن	algodón	الزيتونة	aceituna
طاحونة	tahona	الزيت	aceite
طائفة	taifa	المخدة	almohada
تمر هندي	tamarindo	شراب	jarabe
تبر : ذهب خالص	tibar	قميص	camisa
تمرة	tamara	الساقية	acequia
ناعورة	noria, anoria		

ومعظم أسماء الورود في الاسبانية مأخوذة عن العربية مثل :

زنبق	sampaquita	السوسن	azucena
ياسمين	jazmín	الدفلى	adelfa

ومن التأثيرات العربية القوية الواضحة في اللغة الاسبانية صوت الخاء j, ge, gi ، والثاء : z, ce, ci فاللغة الاسبانية هي الوحيدة من اللغات اللاتينية التي فيها هذان الحرفان ٠ وهما يردان بكلماتها بكثرة ، حتى انه في بعض المناطق من جنوب اسبانيا التي لا تزال تعرف بـ (اندلسيا) يتلفظون حرف (S) = س ث أيضا ، في كل الــكلمات التي يرد فيها ٠ ودخلت اداة التعــريف العــربية (الـ) في كثير من الــكلمات الاسبانية وأصبحت جزءاً لا يتجزأ منها ، حتى ان البعض قرر ان كل كلمة اسبانية تبدأ بهذين الحرفين al = (الـ) هي عربية الاصل[٣] ٠ ولــكن هذه دعوى يضعفها وجود كثير من الــكلمات الاسبانية المبتدئة بهذين الحرفين

دون ان يمكننا ارجاعها الى أصل عربي ، بأي شكل من الاشكال ٠

ولم يقتصر التأثير العربي في اللغة الاسبانية على مفردات اللغة ، بل تعداه الى تركيبات وتعابير لغوية كثيرة ترجمت حرفيا عن العربية لتعبر عن نفس المعنى في الاسبانية ٠ واذا كانت المفردات الاسبانية ذات الاصول العربية قد حظيت بعناية العلماء ، فان هذه التعابير الاسبانية المترجمة حرفيا عن العربية لم تحظ بأية دراسة حتى اليوم ٠

وقد قمت ، شخصيا ، بمحاولة لجمع هذه التعابير فتوفر لدي منها حوالي أربعين تعبيرا حتى الآن ٠ والظاهرة الغريبة في هذه التعابير هي ان كثيرا منها ليس ترجمة عن العربية الفصحى، وانما هو ترجمة حرفية لتعابير عامية شائعة في لهجتنا العراقية وهذه ظاهرة جديرة بالاستقصاء والدراسة ٠

من هذه التعابير مثلا :

من يمته وجاي ؟ — De cuando acá?

انكوم ونكع — Cayendo y levantando

ماشين او عايشين — Viviendo, andando

هذا الطعام أو الدواء يوكع له

Esta comida (medicina) le cae bien.

صوف من صوف (أي صوف جيد) — Una lana de lana.

اشلون فاينه سوى بيه — Que faena me ha hecho.

عنده سبع ارواح مثل البزون — Tiene siete vidas como los gatos

الشر التعرفه خير من الخير اللي ما تعرفه

Más vale malo conocido que bueno por conocer.

الهواء (بارد) ايكص كص ٠ — hace un viento que corta.

ويظهر لي ان لتفسير هذه الظاهرة احتمالين : فاما ان تكون هذه التعابير مترجمة عن لهجة عربية كانت شائعة في الاندلس ، وقد نزحت تلك اللهجة مع من نزح من الاندلسيين الى العراق ، فاستقرت فيه ووصلتنا الى هذا العصر ، أو ان هذه التعابير كانت معروفة في لهجة اسبانية كانت شائعة بين الاسبان من سكان الاندلس العربي ، تأثرت بها اللهجة العربية الاندلسية في منطقة من مناطقها ، وانتقلت مع من هاجر الى الشرق العربي من الاندلسيين ، بسبب الاهوال التي تعرض لها السكان العرب في اسبانيا أبان ما يسمى بحرب الاسترداد ٠

اما المدن والقرى العربية الاندلسية فلا تزال محتفظة بأسمائها العربية حتى اليوم ٠ من ذلك مثلا مدينة « بلد الوليد » وقد أصبح اسمها في الاسبانية Valladolid وهو اسم يطلق على مقاطعة كبيرة من مقاطعات اسبانيا ، وعلى مركز هذه المقاطعة ٠ ومثل : بني ابراهيم ، وبني سليم ، وبني خيرون،

وبني عامر ، وبني دزم ، وقلعة أيوب(٤) الى عشرات بل مئات من القرى والاماكن الاخرى التي لا تزال تحتفظ بأسمائها العربية على ألسن الاسبان . واسم (مدريد) نفسها محرف عن الاسم الذي اطلقه عليها العرب أول دخولهم الى اسبانيا . فقد وجدوا في منطقتها مجرى ماء ، فاطلقوا على القرية التي عليه كلمة (مجرى) ، وتحولت هذه الكلمة بمرور الزمن الى (مجريط) ثم الى مدريد .(٥)

وتبدو المؤثرات العربية في كثير من جوانب الحياة الاجتماعية الاسبانية المعاصرة . من ذلك أنهم عندما يذكرون اسم المتوفى في حفل جنائزي يقولون « رحمه الله »(٦) .

وعندما يلتقي صديقان حميمان يعانق احدهما الآخر بأن يضمه الى صدره ويربت على كتفه وهذه عادة عربية لا تزال شائعة الى اليوم ، في البلاد العربية . وجاء في قصة « السيد » El Cid : « ان التحية تكون بتقبيل الكتف » وهي عبارة اندلسية .(٧) ولا تزال التحية بين الاعراب عندنا بتقبيل الكتف .

وتفرض العادة على الاسباني عندما يأكل أمام آخرين أن يعرض عليهم ان يشاركوه في الاكل ، وعليهم ، بحكم العادة أيضا ، أن يعتذروا قائلين له ما معناه : « ليكن هنيئا لك الاكل » . وهذه عادة عربية اصيلة تدل على كرم النفس وسمو الذوق الاجتماعي . وهي بالضبط ، العادة المعروفة عندنا في العراق خاصة ، وبين الاوساط الشعبية على الاخص ، فان المرء لا يأكل أمام آخرين الا بعد أن يقول لهم عارضا عليهم الاكل معه : « تفضلوا » فيجيبونه ، في العادة ، « عافيات » أو « بالعافية » .

وعندما يعزم احد الاسبان على أمر يريد ان يفعله ويخبر بعزمه هذا احد معارفه يقول : « سأفعل كذا ان شاء الله » وهذه ، كما هو معلوم ، عادة عربية اسلامية ، نابعة من آداب القرآن الكريم اذ أدب المسلمين بقوله تعالى : « وما تشاءون الا ان يشاء الله » .

اما عن الاثر العربي في الثقافة الاسبانية والاوربية فكان أول من اشار اليه الاب الاسباني خوان اندريس (في القرن الثامن عشر) . فقد الف هذا الاب اليسوعي كتابا بالايطالية بين سنتي ١٧٨٢ و١٧٩٨ وسماه « أصول الادب عامة وتطوراته وحالته الراهنة » . وترجم الى الاسبانية بين سنتي ١٧٨٤ — ١٨٠٦ ، أكد فيه « ان الفضل في قيام الدراسات الطبية في اوربا يرجع الى ما كتبه العرب »(٨) . وذهب فيه الى « ان قيام التأليف العلمي في اوربا (في الطب والرياضيات والعلوم الطبيعية) مرجعه الى العرب » . وان رايموندو لوليو مدين للادب العربي في كثير ، وان اعلام الطب الاوربي قبل النهضة ... انما نهلوا من كتب العرب ... وان ديكارت أخذ عن اعلام الفكر والجدل الاسلاميين مبدأه الرئيسي الذي يقول : « ان من يستطيع أن يفكر فهو موجود » .

اما عن تأثر اسبانيا خاصة بالفكر العربي فقد قال « ان الشعر الاسباني انما نشأ – اول امره – تقليدا لشعر العرب ... وان اختلاط النصارى والمسلمين كان من الطبيعي ان يدفع الاول الى تقليد الآخرين » . واكد « ان قواعد التقفية التي اتبعهـا الشعر الشعبي – اسبانيا كان او بروفنسيا – وأساليب صياغة الشعر الحديث ونظمه انما هي مأخوذة عن العرب ... وان موسيقى التروبادور وآراء الفونسو العالم في هذا الفن عربية كلها ، وكذلك اللون القصصي المعروف بالفابليو (fabliaux = الخرافات) والحكايات والقصص ترجع في مناشئها الى اصول عربية ... »(٩) .

ان هذه الآراء التي قال بها الاب خوان اندريس لم تكن معتمدة على بحث يستند الى مراجع وبيانات وثائقية ، وانما كانت مجـرد حدس واستنتاج . على ان البحث العلمي الذي قام به نخبة من المستشرقين الاسبان بعده أثبت معظم ما ذهب اليه ، وصـار الـكثير من آرائه تلك من الحقائق المقررة علميا .

وكانت مدرسة المترجمين الطليطليين من أهم العوامل التي ساعدت على تعريف الاسبان ، خاصة ، والاوربيين عامة ، بالثقافة العربية . اذ ان العلاقات بين المسلمين والنصارى في الاندلس لم تكن مقتصرة على الحروب بل كانت بينهما صلات سلمية أيضا . وعن طريق هذه الصلات عرف الاسبان الشماليون ما كان للعرب في الجنوب من نظم سياسية وادارية ودينية وتجارية وتنبهوا الى اهميتها ومالوا الى النسج على منوالها .

وعندما تمكن الاسبان خلال حربهم الطويلة مع العرب ، من احتـلال طليطلة عام ٤٧٨/١٠٨٥ وتقرر بذلك مصير الجزيرة ، أخذ ملوك قشتالة يعملون على نقل كنوز الثقافة الاسلامية الى لغاتهم ليتمكنوا من رفع مستوى الثقافة بين شعبهم . ولهذا اسست في طليطلة « مدرسة المترجمين » المشهورة التي اشتغلت بنقل الثقافة العربية الاسلامية بما فيها من العلوم الاغريقية وما أضافه اليها العرب من شروح وتعليقات ، الى المدارس الاوربية(١٠) .

وقد أصبحت طليطلة بفضل هذه المدرسة ، المركز الذي انتشرت منه الثقافة العربية في اسبانيا وباقي نواحي اوربا . وتمت في اكناف هـذه المدرسة ترجمة عيون المؤلفات العربية في الرياضيات والفلك والطب والكيمياء والطبيعـة والتـاريخ الطبيعي وما وراء الطبيعـة وعلم النفس والمنطـق والسياسة .(١١) .

ولقد انعقد اجماع الباحثين المحدثين على ان الفلاسفة النصارى الذين اتبعوا مذهب ارسطو في العصور الوسطى كانوا يدينون بالشيء الـكثير لمن ترجم آثار هذا الفيلسوف وشرحها من العرب(١٢) .

وقد بين كل من الاستاذ ريبيرا والاستاذ آسين من بعده ان رايموندو لوليو (٦٣٢/١٢٣٥ – ٧١٤/١٣١٥) الصوفي الاسباني الذي كان الناس ينسبون اليـه ابتداع مذهب الاشراق ، انمـا كان اعتماده على الـكتاب

المسلمين عامة ، وعلى ابن عربي (٥٦٠/١١٦٤ – ٦٣٨/١٢٤٠) خاصة ، بشكل ثبت انه متبع فيه للتصوف الاسلامي وليس مبتدعا للمذهب الاشراقي ، كما كان يعتقد . فقد كان هذا الصوفي النصراني متمكنا من العربية ، «واسع الاطلاع على ما كتبه اهلها . وكان » يستعمل العربية في مجادلاته مع المسلمين وفي التبشير في المغرب » وكان يكتب بالعربية كما يكتب بلغته القطلونية » وقد كتب مؤلفه المسمى « كتاب الكافر والعلماء الثلاثة » بالعربية أولا ثم ترجمه بنفسه الى القطلونية وعنها نقل الى العبرية واللاتينية والفرنسية والاسبانية »(١٣) ولم يتحرج هو نفسه من ان يعترف بانه يستعير في كتاباته الصوفية من المتصوفة المسلمين ، وحتى انه يستعمل نفس المصطلحات التي يستعملها المتصوفة المسلمون(١٤) .

وفي الادب الاسباني تظهر التأثيرات العربية قوية بأجلى مظاهرها في الشكل والمضمون جميعا . فقد كان اول ما عرفت اوربا ، من القصص المستقى من اصول عربية هو كتاب « تعليم رجال الدين » لمؤلف من أهل وشقة يهودي الاصل كان اسمه موسى سفردى . وتشير الدلائل الى انه كتب كتابه هذا باللغة العربية اولا ثم ترجمه بنفسه الى اللاتينية . وهو يورد في كتابه هذا ثلاثا وثلاثين اقصوصة شرقية ، نقلها عن حنين بن اسحق وكليلة ودمنة والسندباد . وهو يقرر فيه صراحة ، انه صنفه من امثال فلاسفة العرب وحكمهم . وقد تأثر بهذا الكتاب ادباء اسبان كثيرون مثل الدون خوان مانويل في كتابه (الكوندي لوكانور) وثرفانتيس في حكاية العنزات التي قصها سانجو على الدون كيخوته ليلة الطواحين وفي قصة العجوز الغيور ، ومثل نائب اسقف هيتا وغيرهم كثيرون(١٥) .

ولقد أقر مؤرخو الادب الاسباني انفسهم بما يدين به دون خوان مانويل للآداب العربية . فقد قرر شيخ النقاد الاسبان منندث پلايو انه « أول أديب صاحب أسلوب نثري من كتابنا في العصور الوسطى قد نهل وروي من موارد عربية » . واثبت المستشرق الاسباني الكبير آسين بلاثيوس ان الكتاب المسمى « مجادلة الحمار للاب انسليمو دي تورميدا » « ان هو الا ترجمة حرفية – في أحيان كثيرة – لفقرات من مجادلة الحيوانات لبني آدم الواردة في (رسائل اخوان الصفاء)(١٦) .

وتشيع في الادب الاسباني ، قبل نهاية القرن السابع عشر ، قصص كثيرة لا تدع مجالا للشك في ان هناك علاقة قوية بينها وبين صورة من الصورة التي كانت ذائعة من « الف ليلة وليلة » .

وقد قرر منندث پلايو أن حكاية « الفتاة تيودور » Doncella Teodor يمكن القول ، عن يقين ، بانها اخذت عن الف ليلة وليلة . وهذه الحكاية هي قصة كوميدية الفها لوبي دى فيكا (توفي سنة ١٦٣٥) « على أساس (حكاية الجارية تودد) المعروفة في الف ليلة وليلة ، بل هو يساير الحكاية

العربية جزءاً جزءاً . والاسم نفسه هو (تودد) محرفا ، لان اسم الفتاة تيودور Teodor كان يكتب اولا هكذا Tudor ، ولو كتبنا هذه الصورة بالعربية لكانت : تودر »[١٧] .

و (كتاب الحيوانات) للوليو ما هو الا صورة لحكاية « المرأة الفضولية والديك » التي نجدها في مقدمة « ألف ليلة »[١٨] وقد الفه لوليو على مثال الكتاب العربي المعروف كليلة ودمنة فأخذ عنه قالبه الخرافي وكثيرا من الحكايات[١٩] .

ومن الممكن ان يكون هيكل « حكاية الملك الذي فقد كل شيء » قد أخذ عن الاصل الذي نشأت عنه « قصة الفارس السفار » ، حوالي (١٣٠٠م) ، اذ يقول مؤلفها فرائد مرتينث في مقدمته لها انها ترجمت من العربية الى عجمية أهل الاندلس . وقد أشار الاستاذ س. ف. فاجنر في بحثه عن مصادر هذه القصة الشعرية ، الى ان الجزء التهذيبي منها الذي يدور حول النصائح والامثال الاخلاقية منقول بحذافيره عن أصل عربي[٢٠] .

ويؤكد المستشرق الاسباني كونثالث بالينثيا ان هيكل هذه القصة اضافة الى هذا الجزء الثانوي الذي اشرنا اليه ، مأخوذ من (الف ليلة) ، فأسماء أبطال القصة نفسها واضحة التحريف عن الاسماء العربية الذائعة[٢١] .

ومن الامور التي شغلت الباحثين الاسبان اوجه الشبه الدقيق بين قصة « حي بن يقظان »[٢٢] لابن طفيل (ولد قبل سنة ٥٠٦هـ/١١١٠م) وتوفي في سنة ٥٨٠هـ/١١٨٥م) والفصول الاولى من قصة El Criticón (الكريتيون = الناقد) لكراثيان بلتا سار (١٦٠١ - ١٦٥٨)[٢٣] .
وكان أول من اشار الى هذا التشابه القوي بينهما اليسوعي بارتلوم پو ، في القرن الثامن عشر . ثم جاء الناقد الاسباني الكبير منندث بلايو وحلل اوجه التشابه هذا في مقدمته لترجمة پونس بويجس لقصة حي التي ترجمها عن العربية مباشرة[٢٤] .

ثم جاء د. . بتروف ونفى ان تكون قصة حي مصدرا اخذ عنه كراثيان الفصول الاولى لروايته المذكورة . وقد ذكر هذا الرأي في تعليله على الترجمة الروسية لرسالة حي بن يقظان ، التي قام بها ج. كوزمين ، ونشرها في بطرسبرج سنة ١٩٢٠[٢٥] . الا ان المستشرق الاسباني المعاصر الاستاذ كارثيا كوميث اثبت ان كلا من كراثيان وابن طفيل قد حذا ، في قصته ، حذو قصة موريسكيه اخرى ، مؤلفها مجهول ، كانت مصدرا مشتركا لكليهما ، تلك هي « قصة الصنم والملك وابنته » . وهي احدى الاساطير التي نسجت حول شخصية الاسكندر الاكبر[٢٦] .

وفي قصص الكوندي لوكانور El Conde Lucanor تأثير لا سبيل الى انكاره بقصصنا الشعبي العربي المتمثل في « ألف ليلة وليلة » وبالاطار الفني لقصص « كليلة ودمنة » الشهيرة ، والتي لم يكن اثرها بعيدا عميقا

في الادب الاسباني فحسب(٢٧) ، بل في آداب كل الشعوب الحديثة الاخرى ، كما يؤكد ذلك مينندث بيلايو(٢٨) .

يتألف كتاب الكوندي لوكانور من خمسة أقسام ، أهمها هو القسم الاول الذي يتكون من خمسين قصة كل منها لها مغزى تهذيبي وتعليمي ، وتنتهي ببيتين من الشعر فيهما تلخيص مركز لمغزى القصة أو الحكمة المرادة منها . وترتبط هذه القصص الخمسون ببعضها برباط بسيط هو ان رجلا من النبلاء ، هو الكوندى لوكانور ، يسأل مستشاره الحكيم باترونيو Patronio في مناسبات مختلفة ، يسأله ان يسدى اليه بعض النصائح وان يفتيه في بعض الامور ، فيسوق هذا الحكيم اجابته ونصائحه على شكل قصص مختلفة يدور بعضها على ألسن الحيوان كما هو الحال في كليلة ودمنة ، اذ يسأل الملك دبشليم فيلسوفه بيدبا بعض النصائح فيسوق الفيلسوف اجوبته قصصا على ألسن الحيوان ، كما هو معلوم .

وتتردد في قصص الكوندى لوكانور شخصيات عربية واسلامية مثل المعتمد والرميكية ، وصلاح الدين ، والحكم امير قرطبة . والقصص التي تكون هذه الشخصيات ابطالا لها ، في هذا الكتاب ، لا تدع مجالا للشك في أنها قصص مستمدة من أصول ومراجع عربية .(٢٩)

وبين مقامات الحريري (عاش من ٤٤٦/١٠٥٤ الى ٥١٥/١١٢٢) والقصص المعروف في الادب الاسباني باسم « قصص الصعاليك » La novela picaresca ، شبه عظيم يستلفت النظر ويثير الاهتمام . فقد انتشرت مقامات الحريري في الاندلس وكان لها صدى بعيد بين أدبائه دفع نفرا منهم الى أن ينسج على منوالها . وكان أكبر شراح هذه المقامات في العالم الاسلامي اندلسيا من شريش هو أبو العباس أحمد بن عبدالمؤمن الشريشي (المتوفي سنة ٦١٨/١٢٢)(٣٠) .

ان قصص الصعاليك نمط أصيل من أنماط الادب الاسباني . وكنموذج لها نذكر قصة اللاثار يلليو دى تورميس التي تدور حوادثها حول متشرد أو صعلوك picaro يبحث عن حظه في هذه الحياة فيقوم بخدمة اسياد مختلفين ويطلع على معايبهم التي تكون موضوعا لانتقاداته اللاذعة وهو رجل عديم الحياء لانه جوعان « ولا يمكن ان يكون الجوع والحياء صديقين أبدا »(٣١) .

فهي نمط من القصص فيه انتقادات اجتماعية وتشاؤم من الحياة . ولشخصيات قصص الصعاليك هذه نماذج سابقة عليها في كتاب « الحب الطيب » لآرثيبر يستي دي هيتا (منتصف القرن الرابع عشر) وفي مسرحية « القواد » (نهاية القرن الخامس عشر)(٣٢) .

ويرى الاستاذ مننث بيلايو(٣٣) ان حياة ابي زيد السروجي ، بطل مقامات الحريري ، نموذج حقيقي لقصص الصعاليك الاسبانية ، وسابقة طليعية لشخصية قزمان الفرج Guzmán de Alfarache وايستيبا

تيلليو كونثالث Estibanillo González وهما بطلان لقصتين من قصص الصعاليك الاسبانية كتبتا سنة ١٥٩٩ و١٦٤٦ .

ويتبين مما عرضنا ، انه لا يستبعد ان تكون هناك علاقة تأثير بين ذلك الاثر الادبي العربي وهذا الطراز من القصص الاسباني ، وعلى أي حال ، فهذا « موضوع جدير بالدراسة »(٣٤) .

وتأثير الزجل والموشح الاندلسي في الشعر الاسباني والفرنسي ، بخاصة ، وفي الشعر الاوربي بعامة ، أمر معترف به بين المستشرقين الاسبان انفسهم .

ويتجلى التأثير العربي واضحا في كثير من ازجال الادب الاسباني الوسيط التي نظمها ادباء أسبان لهم مكانتهم الكبيرة في أدب امتهم . وقد كان تركيب هذه الازجال وامر أوزانها يثيران حيرة مؤرخي الادب الاسباني ، حتى جاء المستشرق الاسباني ريبيرا فاثبت ان معظمها من طراز الازجال الاندلسية . مثال ذلك « كانتيكات = اغاني » الفونسو العاشر . وقد وصل ريبيرا الى نفس هذه النتيجة عندما درس تركيب موسيقى هذه الاغاني ، فاظهر انها هي الاخرى قامت على أساس من الموسيقى الاندلسية الاسلامية(٣٥) . واثبت كذلك انتقال بحور الشعر الاندلسي الى جانب الموسيقى والانغام العربية الى اوربا ، مع الاغنيات التي كانت تغنى بها . فكان « من الطبيعي ان يكون لها اثار في الطرز الشعرية التي وجدت هناك »(٣٦) .

ويظهر الاثر العربي واضحا وقويا ، كذلك ، عند خوان رويث ، المعروف بـ (ارثيبرستي دى هيتا) أي : نائب الاسقف بناحية هيتا ، (منتصف القرن الرابع عشر) ، وهو أول شاعر غنائي كبير ، في الادب الاسباني واكبر شخصية شعرية في عصره . ويبدو لنا ذلك بوضوح في مواضيع مختلفة من كتابه المسمى « كتاب الحب الطيب » ، وفي رسمه للالفاظ العربية بحروف لاتينية بدقة لا تدع مجالا للشك في انه كان يفهم العربية بصورة جيدة(٣٧) . وقد أشار الى ذلك أيضا ، كل من دوزى وانكلمان وايكيلاث في جوامع مفرداتهم(٣٨) .

والشعراء الاسبان الذين استعملوا فن الزجل في اشعارهم كثيرون جدا ، نكتفي بأن نذكر ، هنا ، أسماء بعضهم : الفاريث دي ڤيليا ساندينو Alvarez de Villasandino ، والراهب دييكو البلنسي Fray Diego de Valencia ، وغرسيه فرنانديث دى خيرينا García Fernández de Jerena ، ومونتورو Montoro ، وغيرهم كثير . ومن الدواوين التي تحتوي على قطع من هذا الطراز نذكر « ديوان باينا » El Cancionero de Baena ، وديواني الشاعرين الفاريث گاتو Alvarez Gato وخيمينيث دي اوريا Jiménez de Urrea وكثير غيرها . « وهناك ازجال اسبانية اخرى في « اغاني المهود » التي تهدهد الامهات بها اطفالهن »(٣٩) .

وهناك أغنيـــة اسبانية صغيرة استند اليهـا ريبيرا في دراسته لاثر الموسيقى العربية في الاسبانية ، خلال العصور الوسطى ، وهي « انشودة العربيات الثلاث » ، نذكر منهـا هذه الابيات (ترجمـة الدكتور حسين مؤنس) :

عشقت ثلاث فتيات عربيات
في جيان
عائشة وفاطمة ومريم ٠
ثلاث عربيات بالغات الجمال
ذهبن يجمعن الزيتون
فوجدنه قد جمع في جيان
عائشة وفاطمة ومريم ٠
ثلاث عربيات فياضات بالحيوية
ذهبن يجمعن التفاح
فوجدنه قد جمع ، في جيان ٠
عائشة وفاطمة ومريم ٠
٠٠٠ الخ

« وموضوع هذه الاغنية وموسيقاها يرجعان الى عصر هارون الرشيد ، ومع هذا فقد كان يتغنى بها في اسبانيا في القرن السادس عشر ، ونقلتها الى البرتغال في القرن التاسع عشر السيدة ميخايليس فاسكونثليوس »[٤٠].

وهناك لحن واحد ، على الاقل ، ثبت ، بصورة محققة ، انه كان ذائعا بين العرب الاندلسيين في العصور الوسطى ، وقد تخلل في أعمـاق الموسيقى الاندلسية الشعبية ٠ فقد نشرت الاديبة كارولينا ميخايليس فاسكونثيليوس كتيبا حول اغنية ذاعت بين الشعب في شبه الجزيرة الايبيرية كلهـا ٠ وقد أثبتت ، في هذا الكتيب ، ذيوع هذه الاغنية والتغني بهـا في المشاهد التمثيلية والاحتفالات التي كانت تقام في الاعياد الشعبية في زمن الشاعر خيل ثيثنتي (١٤٦٥ ــ ١٥٣٦ ؟) وفي قرون قبله وبعده حتى انها استعملها المسيحيون الاسبان كأغنية من أغاني المهود ٠ وهذا اللحن يرجع في أصوله الى الحان عربية شرقية ، وقد انتقل الى اسبانيا وشاع في بعض الاغاني الاسبانية التي كانت ولا تزال ذائعة ذيوعا كبيرا بين الشعب الاسباني حتى اليوم[٤١] ٠

ويؤكد منندث بيلايو انه ينبغي ان نسلم بانه ، منذ القرن الرابع عشر ، على الاقـل ، كان هناك تأثير عميـق للموسيقى العـربية بين المسيحيين الاسبان ٠٠٠ وانه لمن الطبيعي أن تنتقل الى الاغاني الاسبانية ، مع الآلات الموسيقية العربية ، ومع الالحان ، كلمات تلك الاغاني العربية التي تأثرت بها الموسيقى الاسبانية »[٤٢] .

ولقد بقي هذا الطراز الاندلسي الذي اخترعه مقدم بن معافى القبري (٢٢٥/٨٤٠ - ٢٩٩/٩١٢) حيا بين الشعراء الاسبان حتى أواسط القرن السابع عشر على أقل تقدير .(٤٣) .

وبعد حرب الاسترداد التي احتل فيها الاسبان المدن العربية الاندلسية ، كان المسيحيون الاسبان يطربون حين يستمعون الى الموسيقى العربيــة ويتمتعون بها وبالاغاني العربية غاية التمتع . وفي كتاب « التاريخ اللاتيني » الذي الفه الامبراطور الفونسو السابع (حكم سنة ١١٢٦ - ١١٥٧م) اشارة تقول انه لما دخل الملك المذكور الى طليطلة سنة ١١٣٧ ، خرج لاستقباله رؤساء بني سراج ووجهاء اليهود والمسيحيين ، مع شعب طليطلة كله ، وكان الجميع يتغنون ، كل بلغته ، بمدائح ترجو من الله ان يرعى الملك ويسدد أعماله ويوفقه فيها .

وفي تاريخ الفونسو الحادي عشر ، عندما يتكلم عن دخول الملك الى اشبيلية يقول : « كان الرجال العــرب والنساء العربيات يؤدون العــابا عجيبة » ، وهذا يعني ان العرب كانوا ، تحت الحكم الاسباني ، يشاركون ، في الاحتفالات العامة ، بفنهم من رقص وغناء .

على ان الملوك الاسبان لم يكتفوا بالاستماع الى الموسيقى العربيــة تعزف في الشوارع والساحات العامة ، بمناسبة الاعياد ، ولــكنهم ادخلوها في قصورهم وبلاطاتهم ، وحذوا ، في ذلك ، حذو الملوك العرب ، تماما ، فعينوا المغنين العرب في قصورهم الملــكية ، واجروا عليهم الاعطيات . ولدينا أخبار عن كثير من المغنين العرب الذين كانوا يعملون في قصور الملوك الاسبان وملوك البرتغال فلا ينبغي ، اذن ، ان ندهش من تأثير الغناء العربي في الغناء الاسباني بل انه كان الامر يكون غير مفهوم لو لم يكن له تأثير فيه ، كما يقول البحاثة الاسباني مييندث بيدال(٤٤) .

وكانت التقاليد الموسيقية العربية ، في اسبانيا ، في اوج حيويتها ، بين الموريسكيين (العرب المتنصرين) طوال القرن السادس عشر ، وكانت موسيقاهم وأغانيهم ورقصهم تثير اعجاب الاخباريين الاسبان انفسهم ، وهم يقصون علينا اخبارهم .(٤٥) .

ولدينا أمثلة على الاسبان الذين تأثروا بالحياة العربية تأثرا قويا . فقــد ورد عن فرانثيسكو ديسكالث ، وهو شيخ اسباني من كوثينتاينا انه كان يعيش عيشة العرب : يحتفل بالمناسبات التي يحتفلون بها ، ويغني أغاني عربية ، ويحث جيرانه على صيام رمضان . ويقال انه كان يتجول من مكان الى آخر وهو يعزف على عوده وبرفقته شخص حديث الدخول الى المسيحية ، كان يساعده ويشترك معه في الغناء والضرب على الدف ، وكانا يغنيان اغنيات يذكرون فيها اسم « محمد » . وكانا مولعين ، خاصة ، بان يغنيا باللغة العربية اغنية بهذا المعنى : « ايها الناس صوموا في هذا الشهر المبارك كما اعتدتم ان تفعلوا ، لــكي تكسبوا الجنة »(٤٦) .

وهناك خبر عن فتى عاشق اسمه بوبر توكاريرو كان يغني بالعربية اغنية تبدأ هكذا : « يا غرناطة الجميلة ... » .(٤٧)

وعادة الغناء في الشوارع ، ليلا شائعة بين كثير من فتياننا ، في هذا العصر ، فهم يتجولون على شكل جماعات يتداولون بينهم أدوار الغناء ، وقد يمرون تحت شباك حبيبة لاحدهم فيثقلون الخطو أو يقفون ويدعون العاشق يتغنى بما يحفظ من اغنيات حديثة أو موال أو مقام ... الخ . هذه العادة انما هي ارث ورثناه عن العرب الاندلسيين ، كما ورثه الاسبان ، اليوم . فقد وصلتنا أخبار عن مصادر اسبانية معاصرة تصف كيف كان الفتيان العرب يتجولون في الشوارع ، ليلا ، وهم يغنون على عزف العود والدف ، وكيف ان منهم من كان يذهب ، في منتصف الليل ، الى الشارع الذي تسكن فيه حبيبته ليغني لها على انغام العود الشجية .(٤٨)

وهذه العادة نفسها شائعة اليوم ، بين الشبان الاسبان ، الا انهم استبدلوا بالعود القيثارة . وان العراقي الذي يعيش فترة في احدى المدن الاسبانية الجنوبية ليشعر ، وهو يسمع الالحان الشعبية العذبة تأتيه من بعيد ، حين يكون مضطجعا في فراشه ينتظر النوم ، ثم تبدأ بالاقتراب والوضوح ، ثم بالابتعاد ثانية والخفوت ، انه ليشعر وكأنه في بيت في الاعظمية أو في احدى محلات بغداد .

* * *

وبعد هذا العرض المركز لبعض مظاهر التأثير العربي في الثقافة الاسبانية ، احب ان أبين ان حقول الدراسة فيما يتعلق بالعلاقات العربية الاسبانية حقول واسعة شاسعة ، وفي غاية الخصوبة والثراء . فالتأثيرات المتبادلة بين العرب والاسبان ، والتأثير العربي خاصة ، في اسبانيا وحضارتها وشعبها وتاريخها ، كل هذا يكون مادة غزيرة لدراسات مقارنة تاريخية وأدبية واجتماعية وحضارية وفولكلورية ولغوية ذات أهمية بالغة للعرب والاسبان على السواء . وان في وسع هذه الدراسات ، لو اقيمت على اسس علمية منظمة ، ان توضح مدى فاعلية الشخصية العربية وعمق تأثيرها الحضاري لا في اسبانيا واوربا فحسب ، بل في كل الاصقاع التي رفرفت عليها الراية العربية الاسلامية . ان اهمال هذه الجوانب من الدراسات الاسلامية لهو اهمال للشخصية العربية ومقوماتها الحضارية . ولئن جاز هذا في دور كنا فيه نرزح تحت النير الاستعماري ، فلن يجوز لنا ، بأي حال من الاحوال ، ونحن في عهد متحرر نحاول فيه ان نبرز ملامح شخصيتنا القومية وعناصر قوتها وجوانب الروعة والابداع فيها ، بعد ان قامت محاولات منظمة ، طيلة عصور تأخرنا ، لطمس مقومات هذه الشخصية وتشويه معالمها والتقليل من دورها الفعال في التراث الانساني المتنامي .

المراجـــع

(١) اعترف كثير من المستشرقين بهذه الحقيقة ، منهم : فرانثيسكو كوديرا
Francisco Codera

انظر كتابه : *Estudios criticos de historia árabe española*, *Madrid*, 1917, pp. 14-15.

(٢) انظر : محمد عبدالله عنان : الآثار الاندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال • مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة ١٩٦٢ ، ص ٤٤٠ •

(٣) راجع في هذا :

أ ـ كتابنا بالاشتراك مع الدكتورة بتول العلاف : مفردات اسبانية عربية الاصل ، بغداد ١٩٦٢ •

ب ـ عنان : المصدر المذكور في الهامش (٢) ص ٤٤١ ـ ٤٤٣ •

ج ـ خوزيه اوربانوكاستيللو وفيليب ريكيخوكاريو : أصل اللغة الاسبانية وحيويتها بين اللغات الحديثة ، في « مجلة اللغات » يصدرها معهد اللغات العالي في جامعة بغداد ، العدد الاول ، ١٩٦٤ ، ص ٣٥ ـ ٤١ •

د ـ الدكتور خالد الصوفي : تأثير اللغة العربية في اللغة الاسبانية ، في مجلة « المعرفة » العدد السابع ، دمشق ـ ايلول ١٩٦٢ •

هـ ـ ساطع الحصري : آراء وأحاديث في اللغة والادب ، بيروت ١٩٥٨ ص ٥٩ ـ ٦٠ و ١٨٠ ـ ١٨٤ •

و ـ أحمد أمين : قصة الادب في العالم (القاهرة ١٩٦٠) ج٢ القسم الاول ص٧٤ •

ز ـ طه المدور : بين الديانات والحضارات . بيروت ١٩٥٦ ، ص ٧٢ •

ح ـ Julián Ribera: *Historia de la música árabe medieval y su influencia en la española*, (Madrid 1927), pp. 253-54

(٤) Miguel Asín Palacios: *Contribución a la toponimia* árabe de España, 2- edición. (Madrid-Granada), 1944.

(٥) جاء هذا في بحث للباحثة الاسبانى اوليفر آسين J. Oliver Asín نشره في جريدة (يا) Ya التي تصدر في مدريد ، سنة ١٩٦٠ على ما اذكر •

(٦) عنان : المصدر المذكور في الهامش (٢) ص ٤٣٨ •

(٧) المصدر السابق •

(٨) آنخل جنثالث بالنثيا : تاريخ الفكر الاندلسي • نقله عن الاسبانية الدكتور حسين مؤنس . القاهرة . ١٩٥٥ . ص ٥٢٢ • وقد اعتمدت فيما كتبته عن التأثير العربي في التصوف والادب الاسباني . على هذا الكتاب في ترجمته العربية بالدرجة الاولى . وعلى نصه الاسباني التالي:

Angel González Palencia, *Historia de la Literatura Arabigo-Española*. (Colección Labor no. 164-165, 2- edición. Madrid. 1945.

(٩) المصدر السابق ص ٥٢٣ ـ ٥٣٦ •

(١٠) المصدر السابق ص ٢٧ ، وانظر : R. Menéndez Pidal, *España, eslabón entre la cristianidad y el islam*, (Colección Austral no. 1280), Madrid, 1956, pp. 35-36.

(١١) المصدر المذكور في الهامش (٨) ص ٥٣٦ ·

(١٢) المصدر السابق ص ٥٤٣ ·

(١٣) المصدر السابق ص ٥٤٩ ــ ٥٥٠ ·

(١٤) Miguel Asín Balacios, *El islam cristianizado*, (Madrid 1931), p. II.

(١٥) آنخل جنثالث بالنثيا : نفس المصدر المذكور في الهامش (٨) ص ٥٧٩ ــ ٥٨١ و ٥٩٧ ·

(١٦) المصدر السابق ص ٥٨٥ و ٥٨٧ ــ ٥٨٨ و ٥٨٩ ــ ٥٩١ ·

(١٧) المصدر السابق ص ٥٩٣ ــ ٥٩٤ وهامش ص ٥٩٤ ·

(١٨) المصدر السابق ص ٥٩٥ ·

(١٩) المصدر السابق ص ٥٥٠ ·

(٢٠) Charles Philip Wagner, *The sources of Caballero Cifar* (Revue Hispanique, X, 1903)

عن المصدر السابق ص ٥٩٨ ·

(٢١) آنخل جنثالث بالنثيا : المصدر السابق ٥٩٨ ــ ٥٩٩ ·

(٢٢) لقد ترجمت قصة حي بن يقظان الى عديد من اللغات القديمة والحية ، أكثر من مرة ، ومن شاء فلينظر حول هذه الترجمات :

Angel González Palencia, *El Filósofo Autodidacto*, (Madrid, 1948), Prólogo.

واحمد امين : حي بن يقظان (ذخائر العرب ٨) هامش ص ١٣ ·

(٢٣) هو اديب اسباني كبير · ولد في مدينة قرب (قلعة أيوب) ودرس في سرقسطة وسكن في وشقة · كان من الداعين الى الاهتمام بالفكرة في الادب · وهو واحد من الادباء الاسبان الذين ذاع صيتهم خارج بلادهم ، وقد ترجمت مؤلفاته الى معظم اللغات الاوربية ، وكان له تأثير على آراء شوبنهاور المتشائمة · وقد وصف هذا الاخير كتاب (الكريتيكون) بانه « واحد من أفضل الكتب في العالم » · انظر :

1. José García López, *Literatura Española*, Barcelona, 1959, pp. 307-14.
2. Profesor de Agra Cadarso, *Historia de la literatura española*, (Madrid 1957) pp. 244. 245.

(٢٤)

F. Pons Boigues, *El Filósofo Autodidacto de Abentofáil*... con un prologe de M. Menéndez y Pelayo (Zaragoza. 1900), citado por A.G. Palencia, op. cit. p. 12, nota, 8.

وانخل جنثالث بالنثيا : المصدر المذكور في الهامش (٨) ص ٦٠٢ ·

(٢٥) أحمد امين · نفس المصدر المذكور في الهامش (٢٢) ، هامش ص ١٣ ·

(٢٦) E. García Gómez, *Un cuento árabe fuente común de Abentofáil y de Gracián*, (Revista de Archivos,.... Madrid, 1926).

واحمد امين : المصدر السابق . وانظر : انخل جنثالث بالنثيا : المصدر المذكور في الهامش (٨) ص ٦٠٢ .

(٢٧) المصدر المذكور في الهامش (٨) ص ٥٨٢ .

(٢٨) M. Menéndez y Pelayo, *Origenes de la novela* 2- edición (Madrid. 1962), tomo. I, p. 35.

(٢٩) انظر : المصدر المذكور في الهامش (٨) ص ٥٨٥ ـ ٥٨٦ .

(٣٠) نفس المصدر ص ١٨٠ ـ ١٨١ .

(٣١) Profesor de Agra Cadarso, op. cit., p. 172

(٣٢) نفس المصدر ص ١٧٢ ـ ١٧٣ .

(٣٣) المصدر المذكور في الهامش (٢٨) ص ٦٧ .

(٣٤) المصدر المذكور في الهامش (٨) ص ١٨٠ .

(٣٥) نفس المصدر ، ص ٢٨ و ٦٢٣ ـ ٦٢٤ ، وانظر :
Julián Ribera, op. cit., 233, 254 sqq., y 311-41.

(٣٦) المصدر المذكور في الهامش (٨) ص ٦١٣ و ٦١٤ .

(٣٧) ريبيرا : المصدر المذكور في الهامش (٣) (ج) ص ٢٥٠ و ٢٥٤ وبالنثيا : المصدر في الهامش (٨) ص ٦٢٥ . وانظر :
R. M. Pidal, *Poesía árabe y poesía europea*, (Colección Austral no: 190), 4- edición, (Madrid, 1955), p. 43.

(٣٨) المصدر المذكور في الهامش (٨) ص ٦٢٥ .

(٣٩) نفس المصدر ص ٦٢٨ و ٦٢٩ . وانظر :
1. R. M. Pidal, la obra citada en la nota (10), p. 15.
2. A. Federico de Schack, *Poesía y arte de los árabes en España y Sicilia*, traducila por: Juan Valera, (Madrid, 1932), T. II. pp. 210-13.

(٤٠) نفس المصدر ص ٦٢٧ و ٦٢٨ ، وبيدال : المصدر المذكور في الهامش (٣٧) ص ٤٤ و ٤٥ .

(٤١) ريبيرا : المصدر المذكور في الهامش (٣) ص ٢٦٧ ـ ٢٦٩ و ٢٧١ .

(٤٢) نفس المصدر ص ٢٦٥ .

(٤٣) ريبيرا : المصدر المذكور في الهامش (٣) ص ٢٥٩ . وانظر : بالنثيا : المصدر المذكور في الهامش (٨) ص ٢٩ .

(٤٣) ريبيرا : المصدر المذكور في الهامش (٣) ص ٢٥٩ . وانظر : بالنثيا : المصدر المذكور في الهامش (٨) ص ٢٩ .

(٤٤) ريبيرا : المصدر المذكور ، ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣ ، وانظر : بيدال : المصدر المذكور في الهامش (٣٩) ص ١٦ ، ١٧ .

(٤٥) ريبيرا : المصدر المذكور ص ٢٤٤ .   (٤٦) نفس المصدر ص ٢٣٨ و ٢٣٧ .

(٤٧) نفس المصدر ص ٢٤٠ و ٢٤١ .   (٤٨) نفس المصدر ص ٢٤٦ .

موسيقى الأدب

- ٢ -

الدكتور بدوي طبانة

ومن هنا كان من العسير في هذا المجال القول بحكم عام يشمل اللغات واهلها جميعا • ومن الممكن القول بأن ورود بعض تلك الحروف أوالخصائص المنطقية في لغة من اللغات في كلمة من كلمات لغة غيرها مما يجعل هذه الكلمة ثقيلة ، ومن ثم تكون من أهم الاسباب في فقدها موسيقيتها ، تلك الموسيقى التي يتعذر تحديدها في اللفظ المفرد ، وان كان علماء اللغة والادب ، وكذلك علماء البلاغة ، قد نبهوا الى بعض الصفات الجيدة للألفاظ •

وتلك الصفات الجيدة يمكن ان تتمثل فيها تلك الموسيقية ، لان أجراس الحروف ووقعها على السمع هي الموسيقى التي تحدث التأثير في النفوس بعد أن تستقبل الآذان الكلمات وتجد في بعضها شيئا من المتعة تحس به وتطرب له •

ولذلك يعبر كثيرا عن التأثير الذي يصعب التحديد اللفظي بل والتحديد الموضوعي الواضح لأسراره بكلمة « الاحساس » تارة ، وبكلمة « الذوق » تارة اخرى ، وقد يضاف الى كل منهما كلمة « الموسيقى » لتوضيح المقصود كما قد يعبر عنه بحسن الوقع ، ولاشك أن ذلك في حقيقته انما هو نتيجة من النتائج ، وليس سببا من الاسباب ، لان العبارة لاتستطيع أن تنهض بالافصاح عن الاسباب والمؤثرات الحقيقية •

ولكن مما لاشك فيه ان ذلك الاحساس احساس عضوي أو عضلي أولا ثم يكون التأثير نتيجة لذلك الاحساس • فالذي يكد عضلات المنطق من الحروف والذي يكد عضلات السمع من الاصوات هو القبيح • أو بعبارة أخرى : القبيح من الالفاظ هو الذى فقد الموسيقى ، وان الذي يستساغ من الالفاظ هو الموسيقى ، أي الذى تناسقت اجراس حروفه ونغمات مقاطعه •

ولذلك كان من الضروري بعدما تقدم أن يقصر الباحث في موسيقى الادب بحثه على مظاهرها في لغة واحدة ، ليبحث عن أسرار تأثيرها عند اصحاب لسان واحد ، لان طبيعة الالفاظ ومخارج الحروف التى تتألف منها تختلف من لغة الى لغة ، ولان الموسيقى بوجه عام ، ومثلها في ذلك

سائر الفنون ، يحتكم فيها الى حاكم الذوق ، ولذلك تختلف الامم في تقديرها وفي درجات التأثر بها · وكثيرا ما تستطيب بعض الامم والجماعات لحونا لاتستسيغها سواها ، أو لاتقع منها موقعها عند غيرها من الامم أو الجماعات· ومن ثم تعددت الوان الموسيقى ، وتباينت الحانها ، حتى قيل : لحن شرقى ولحن غربى ، او موسيقى شرقية وموسيقى غربية ···

وقد اشبع علماء اللغة العربية دراسة المفردات تحقيقا وتمحيصا ، وبحثوا بحوثا عميقة في اللفظة المفردة ، وفي اسرار تركيبها من حروفها ، وكتبوا العلل الكثيرة لما استعمل منها وما اهمل ، وما ينقاس وما لاينقاس والفت في هذا الموضوع كتب كثيرة تعد من أهم الاصول في الدراسات اللغوية ·

ولكنا نقصر قولنا في هذا المقام على ما يتصل بالادب وبالدراسات البلاغية التي موضوعها هذا الادب ، والبحث فيما تكون به الالفاظ المفردة والالفاظ المركبة جيدة جديرة بان تكون لبنة من لبنات العمل الادبي الذي يحكم عليه بالجودة ولصاحبه بالفنية ، وكذلك ما تكون به اللفظة المفردة رديئة تقدح في العمل الادبي ، وتغض من شان صاحبه ، لان المقاييس البلاغية تنفر منها لعيوب كامنة فيها ، وفي اجراس الحروف التي تداخلت في تأليفها فافقدتها الوقع الموسيقى الجميل ، متجنبين في ذلك التفصيلات الكثيرة التي أخذت حظها من الدراسات اللغوية قديما وحديثا · وان كنا نفيد من تلك الدراسات ما يعين على الوصول الى النتيجة التي نصل اليها او التي استطاع ان يصل اليها غيرنا من الباحثين في بلاغة الكلام ونقده ، ونحاول ان نفصل القول في الكلمة المفردة اولا ثم في التركيب اخرا ·

(١) الفة الكلمة :

ان من أهم الاسباب في احساس قارىء الادب أو المستمع اليه بجودة كلمة من الكلمات ، ولذة وقعها عنده ، هو شعوره بأن تلك اللفظة ذات تاريخ عنده ، وانه يجدها في محفوظه من المأثور من جيد الكلام ومعنى ذلك أنه قد قرأ هذه اللفظة او استمع اليها من قبل في كلام الادباء الذين يعترف لهم بالتفوق وبالقدرة على الابداع ، والذين وجد فيما قرأ لهم او استمع اليه من ادبهم احساسا بالمتعة التي لم يجدها في كلام غيرهم من الناس في شؤون العيش ومطالب الحياة ، وحينئذ يكون قرار تلك الالفاظ في نفسه مرتبطا بالمتعة التي كان يحسها بالقراءة او الاستماع الى اولئك الادباء والى كلامهم الذي وجد فيه ماوجد من اللذة والاستمتاع ·

وعلى هذا فان اللفظة المفردة التي جرى استعمالها في الاداب التي يعترف بها ، ويحس هو بحسنها كما يحس بها جماعة الادباء والخبراء بفن الادب ، ولذلك سارت مسير كلامهم ، هذه هي اللفظة الجيدة ، وهي التي وصفها العارفون بالفصاحة ، لانها أصبحت مأنوسة عندهم ، مألوفة لديهم ، او

بعبارة اخرى اصبحت من النماذج في أساس التعبير الادبي الذى يقدرونه ويرضون عنه .

وألفاظ النماذج العالية ، والانماط الادبية الرفيعة كثيرة لاتحصى في المأثور من الكلام المنظوم والكلام المنثور على السواء ، وتلك الالفاظ هي التي ينطوي فيها سر التأثير ، والشعر - كما يرى شارلتون (Charlton) - مؤلف من ألفاظ ، ومن الفاظ فقط ، كما تتالف سائر ضروب الكلام ، فكل ما للشعر من سحر يفتن القلوب انما هو صادر عن الالفاظ والالفاظ وحدها(١) ..

اما تلك الالفاظ التي احتفظت بها كتب اللغة ومعجماتها عن عدد قليل من أصحاب تلك اللغة ، او عن عدد نادر من الادباء ، ولم تشع على ألسنة الناس من جهة ، وندر ورودها في النماذج الجيدة من جهة اخرى ، فانها تفقد تلك الصفة ، ومن ثم تفقد وقعها الموسيقي ، ووصفها بالفصاحة ، وتصبح قبيحة منكرة .

ولا شك ان هنالك سببا من الاسباب أدى الى ايثار الادباء الالفاظ الاولى ونفورهم من الالفاظ الاخرى .. وهذا السبب هو الذى دعاهم الى تحاشيها في أسلوبهم الادبي الذى يوصف بالرونق والجمال ، ويوضعون بسببه من الفنية واصحابها بمكان . وكان من نتيجة تجنبهم تلك الالفاظ ان اهملت وماتت ، ولم يبق منها الا حطام واشلاء هي صور الحروف التي ركبت منها والحركات التي تعاقبت على تلك الحروف في بطون المعاجم وكتب اللغة ، وتبرأت منها الالسنة الناطقة والادب الحي ، ولذلك كان المستعمل لها بعد ذلك معيبا ، موصوفا عند الناس بالتكلف او التقعر أو التشادق الذى عابه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحذر منه في قوله « اياي والتشادق » كالذى عابه عمر بن الخطاب على من سأله : ما قولك فيمن ظحى بضبي؟ يريد : « ضحى بظبي » وقوله : انها لغة ! وما يقال من أن عمر رضى الله عنه علاه بدرته ، وقال له : قم يالكع !!

ان قلب الضاد ظاء في « ضحى » وقلب الظاء ضادا في « ظبي » قد يكون لغة من اللغات ، أو لهجة من لهجات بعض العرب اصحاب اللغة ، بل اننا لانشك في انها كذلك ، ولكن هذه اللغة أو تلك اللهجة قد فقدت الالف في بيئات العروبة ولغتها الفصحى ، ولذلك أنكرتها البيئة ، وأنكرها عمر لهذا السبب وحده ، والا فان هذا النظم الجديد او النظم القديم لا يختلف عن النظم المعهود وتأليف الحروف في الكلمة في قليل أو كثير .

ومن هذا يتبين أن حسن اللفظة أتى من طريق أنها مألوفة الاستعمال بين الادباء ، دائرة في كلامهم ، « وانما كانت مألوفة الاستعمال دائرة في الكلام دون غيرها من الالفاظ لمكان حسنها ، وذلك ان ارباب النظم والنثر غربلوا اللغة ، باعتبار ألفاظها ، وسبروا وقسموا ، فاختاروا الحسن من الالفاظ فاستعملوه ، ونفوا القبيح فلم يستعملوه ، فحسن الالفاظ سبب استعمالها دون غيرها(٢) ..

قال ابن الاثير(٣) : وقد رأيت جماعة من الجهال اذا قيل لاحدهم : ان هذه اللفظة حسنة ، وهذه قبيحة ، أنكر ذلك ، وقال : كل الالفاظ حسن ، والواضع لم يضع الا حسنا ..

ومن يبلغ جهله الى ان لايفرق بين لفظة « الغصن » ولفظة « العسلوج » وبين لفظة « المدامة » ولفظة « الاسفنط » وبين لفظة « السيف » ولفظة « الخنشليل » وبين لفظة « الاسد » ولفظة «الفدوكس» فلا ينبغي ان يخاطب ولا يجاوب بجواب ، بل يترك وشأنه !.. ومن له ادنى بصيرة يعلم أن للالفاظ في الاذن نغمة لذيذة كنغمة اوتار ، وصوتا منكرا كصوت حمار ، وأن لها في الفم ايضا حلاوة كحلاوة العسل ، ومرارة كمرارة الحنظل .. وهي على ذلك تجرى مجرى النغمات والطعوم .. ويرد ابن الاثير على القول بأن العرب استعملت هذه الالفاظ ، واستعمالها اياها دليل على حسنها ، بأن ذلك قول فاسد ، فان الذى نقلد فيه العرب من الالفاظ هو الاستشهاد بأشعارها على ما ينقل من لغتها ، والاخذ بأقوالها في الاوضاع النحوية ، في رفع الفاعل ونصب المفعول وجر المضاف اليه وجزم الشرط ، وأشباه ذلك ، وما عداه فلا .

ألا ترى أن لفظة « المزنة » مثلا حسنة عند الناس كافة من العرب وغيرهم ، لايختلف أحد في حسنها ، وكذلك لفظة « البعاق » فانها قبيحة عند الناس كافة من العرب وغيرهم ، فاذا استعملتها العرب لايكون استعمالهم اياها مخرجا لها من القبح ، ولا يلتفت اذن الى استعمالهم اياها ، بل يعاب مستعملها ، ويغلظ له النكير حيث استعملها !

وعلى هذا فان تقبل الادباء كلمة من الكلمات ، واستعمالهم اياها على مر العصور ، يحدث نوعا من الألفة بها ، وذلك لما يجدون فيها من الصفات التي لايجدونها فيما يهملونه ولا يستعملونه ..

غير ان الاستعمال في حد ذاته ليس موجبا لاستعمال اللفظة في الادب ، فقد يكثر هذا الاستعمال ويفشو حتى يبتذل بسببه اللفظ على ألسنة الجماهير ، ويصبح من لغة العامة ، ويفقد اعتباره من اللغة الممتازة التي هي لغة الادب تلك اللغة التي تنفر من هذا الابتذال ، وتحتفظ بترفعها وفنيتها المميزة لها عن لغة السوقة والعوام ..

وليس ما يستعمله العامة من الالفاظ صحيحا كله، فقد يستخفون ألفاظا ويستعملونها ، وغيرها أحق بذلك منها « الا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن « الجوع » الا في موضع العقاب أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر . والناس لا يذكرون « السغب » ويذكرون « الجوع » في حال القدرة والسلامة . وكذلك ذكر « المطر » لانك لاتجد القرآن يلفظ به الا في موضع الانتقام ، والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر « المطر » وذكر « الغيث » . ولفظ القرآن الذى عليه نزل أنه اذا ذكر « الابصار » لم يقل « الاسماع » واذا ذكر « سبع سموات » لم يقل « الارضين » ، الا تراه لا

يجمع الارض « ارضين » ولا السمع « أسماعا » ؟ والجارى على أفواه العامة غير ذلك ، لايتفقدون من الالفاظ ماهو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال ... والعامة ربما استخفت أقل اللغتين وأضعفهما ، وتستعمل ماهو أقل في أصل اللغة استعمالا ، وتدع ماهو أظهر وأكثر ، وكذلك صرنا نجد البيت من الشعر قد سار ولم يسر ماهو أجود منه(٤) ..

وعلى هـذا فان اللفظ الذي يستعمله الادباء ، او الـذي ينبغي ان يستعملوه ، يمتاز بالتخير والانتقاء ، ولا ينحدر الى الجرى على ألسنة العوام من الناس ، ومعنى العوام أو العامة هنا عامة أهل اللغة ، الذين يسود كلامهم الصواب في موافقة أصحابها في الحديث والتعبير ، والجرى على أصول لغتهم في الافادة والافهام ، ولكنهم مع ذلك لايفاضلون بين لفظ ولفظ ، ولايعمدون الى ايثار الجيد في الاستعمال او التطلع الى التعبير الممتاز ، وأولئك هم الذين سماهم بعض علماء البلاغة « اوساط الناس » وسمى لغتهم التى يستعملونها « متعارف الاوساط » ، وكلامهم على مجرى متعارفهم في التأدية للمعاني فيما بينهم ، ولا يحمد منهم هذا الكلام ولا يذم في باب البلاغة(٥) ..

وذكر الجاحظ في معرض الاشادة بأدباء الكتاب ، وانه لم ير قط أمثل طريقة في الكتابة منهم ، ان أولئك الكتاب الادباء انما استحقوا هذا لانهم قد التمسوا من الالفاظ مالم يكن متوعرا وحشيا ، ولا ساقطا سوقيا . ثم فسر ما يريد بالعوام في قوله « واذا سمعتموني اذكر العوام فاني لست أعني الفلاحين والحشوة(٦) والصناع والباعة ، ولست أعني أيضا سكان الجبال، وسكان الجزائر في البحار ، ولست أعني من الامم مثل الببر والطيلسان ، ومثل موقان وجيلان ، ومثل الزنج وأشباه الزنج ، وانما الامم المذكورون من جميع الناس اربع : العرب ، وفارس ، والهند ، والروم .. والباقون همج واشباه همج .. قال « وأما العوام من أهل ملتنا ودعوتنا ولغتنا وأدبنـا وأخلاقنا . فالطبقة التي عقولها واخلاقها فوق تلك الامم ، ولم يبلغوا منزلة الخاصة منا ، على ان الخاصة تتفاوت في طبقات أيضا(٧) ..

وهذا يبين لنا في وضوح كيف أحس الادباء والنقاد بعظمة فن الادب ، وانه من فنون الخاصة من الناس ، وعده فنا من الفنون الجميلة أو من الفنون الرفيعة التي تأبى طبيعتها الابتذال ..

ولم يخلق كل الناس ليكونوا أدباء ، وانما ذلك وقف على جماعة منهم اعدتهم الطبيعة لحمل رسالة هذا الفن الجميل ، وهيأت لهم اسبابه . ثم زودوا انفسهم بأدواته ، وأهم تلك الادوات اللغة التي يتخيرون منها الالفاظ الممتازة والتعابير الجيدة .. أما غيرهم فقد سلكوا في عوام الناس ، وعيب من الادباء من جنح الى لغتهم ، ولو كانت معانيهم أكرم المعاني وانبلها .

ولقد عيب على جماعة من الادباء الفحول استعمالهم بعض الالفاظ التي ابتذلت وامتهنت على ألسنة العامة ، كما عيب على أبي تمام استعماله كلمة « تفرعن » في قوله :

جليت والموت مبد حر صفحته وقد تفرعن في أفعاله الأجل

فان « تفرعن » مشتق من اسم فرعون ، وهو من الفاظ العامة ، وعادتهم أن يقولوا « تفرعن فلان » اذا وصفوه بالجبرية . وأخذ على أبي نصر عبد العزيز بن نباتة قوله :

أقام قوام الدين زيغ قناته وانضج كي الجرح وهو فطير

لان لفظة « فطير » عامية مبتذلة ، وأخذ على أبي الطيب المتنبي قوله :

خلوقية في خلوقيها سويداء من عنب الثعلب(٨)

وقالوا ان «عنب الثعلب» تترفع العامة ان نظمت شعرا أن تقول مثله. وأخذ على أبي تمام قوله :

قد قلت لما لج في صده اعطف على عبدك يا قابرى

ووصف قوله هذا بانه غاية في السخافة ، لان لفظ « يا قابرى » من ألفاظ عوام النساء وأشباههن . وعيب على أبي نصر بن نباتة قوله :

فقد رفعت أبصارها كل بلدة من الشوق حتى اوجعتها الاخادع

فان « أوجعتها » من أشد الفاظ العامة ابتذالا ، وان كانت « الاخادع » قبيحة أيضا . وكذلك أخذ على أبي تمام استعماله كلمة « كيمياء » في قوله :

ليزدك وجدا بالسماحة ما ترى من كيمياء المجد تغن وتغنم

لان لفظة « كيمياء » من ألفاظ العوام المبتذلة ، وليست من ألفاظ الخاصة . ولا يحسن نظم مثلها . وعيب على أبي الطيب قوله :

تستغرق الكف فوديه ومنكبه وتكتسى منه ريح الجورب الخلق(٩)

فان لفظ « الجورب » مما يكره ايراد مثله في الادب والشعر .

قال الخفاجي : وليس لاحد ان يتخيل ان العذر في ايراد هذه الألفاظ وأمثالها تعذر ما يقع موقعها في النظم ، كما يظن ذلك بعض المتخلفين في هذه الصناعة . وذلك انه ليس يجب على الانسان ان يكون شاعرا ولا كاتبا ولا صاحب كلام يؤثر ولفظ يروى ، ولا يجب عليه ، لو وجب هذا ، ان ينظم تلك القصيدة التي وردت فيها هذه اللفظة ، ولا البيت من القصيدة . فكيف تعذره اذا أورد لفظة قبيحة جارية مجرى ما ذكرناه ، وهو قادر على حذف البيت كله ، واطراح ذكر جميعه ، ان لم يكن قادرا على تبديل كلمة منه ؟!

قال : وأمثال هذا في الاشعار المطرحة كثير ، ولو تأملت قصيدة واحدة من شعر من يدعي القريض في هذا العصر وجدت فيها عدة امثلة لكل ما أكرهه وأنكره ، الا اني اعتمد على التمثيل بأشعار هؤلاء الفحول المتقدمين في هذه الصناعة لامور : أولها : صيانة هذا الكتاب عن تهجينه بذكر غيرهم، وثانيها : ان اللفظة التي تكره في نظم هؤلاء الحذاق تقع فريدة وحيدة يظهر

مباينتها لكلامهم ، فالعلم بها واضح وكشفها جلي ، وقد قال حبيب بن أوس :

وكذاك لم تفرط كآبة عاطل حتى يجاورها الزمان بحال

وقال غيره قبله :

الجهل في الجاهل المغمور مغمور والعيب في الكامل المذكور مذكور
كقوفة الظفر تخفى من مهانته وبعضها في سواد العين مشهور

وليس مكانها في اشعار غيرهم كذلك ، بل هي منظومة مع غيرها في القبح وأشكالها • وثالثها : إيثاري أن أعلمك أن مقدمي الفصاحة سامحوا أنفسهم ، وأصبحوا في طاعة أهوائهم ، ليتحقق ان الزلل في طباع البشر موجود ، والعصمة عن أكثرهم بائنة • فأما اقتصاري في أكثر ما أمثل به على المنظوم دون المنثور مع أن كلامي عليهما واحد ، فانما أقصد ذلك لكثرة المنظوم واشتهاره ، ورغبتي في ان يسهل الوزن عليك حفظ ما أذكره ، فانه داع قوي وسبب وكيد(١٠) •

هذا ما يقول الخفاجي المتوفى سنة ٤٦٦ هـ ، ولعله لو عاش الى زماننا لانكر ان فنا من فنون الانسانية الرفيعة اسمه « فن الادب » يعيش فيه ، ولجرد كثيرا من الادعياء مما يتشبثون به من ادعائهم صحبة هذا الفن ، ومعرفتهم أصوله وقواعده ، وأنشد مع الشاعر القديم :

لقد هزلت حتى بدا من هزالها كلاها وحتى سامها كل مفلس

ورحم الله العقاد الذي وصف هؤلاء أصدق وصف ، ونعتهم أبلغ نعت في قوله انهم « فضوليون على موائد الادب ، لا يحسنون الطهو ، ولا يبذلون نفقة الطعام ، ولا تستجاب عندهم دعوة الضيوف » فقد أطرحت التعابير الجميلة ، ومال اولئك الى كل سفساف من اللفظ ، والى كل رديء من العبارة ، زاعمين ان ذلك هو طابع العصر الذي لايجمل فيه غيره ، وان الاديب صورة لبيئته ومجتمعه بكل مافيه ، ولذلك فهو يحكي عالم الضعف والهزال والانحلال ، لان عصره كذلك ، أو لان أمته كذلك ••

والحقيقة الماثلة تكذب هذه الدعوى ، فلا شك ان الامة قد قطعت شوطا كبيرا في مضمار الحضارة والتقدم ، وازدهرت نواحي الحياة عند الافراد والجماعات ازدهارا لم تشهده الانسانية فيما قبل •• وكان من المنتظر ان يجاري فن الادب ركب الحضارة في تقدمها وازدهارها •• ولكن اولئك الادعياء يفهمون القضية فهما معكوسا ، ويرون هذه المسايرة أو هذه الواقعية لاتكون في زعمهم الا بانحطاط مقاييس الادب ، وتهافت معانيه ، واختلال مبانيه ، وانحدار لغته وابتذالها ، لعلهم يجدون لانفسهم بتلك المقاييس الفاسدة سبيلا الى حشد أنفسهم في سلك أصحاب الفن الادبي ، وهو منهم براء ••

ـ للبحث صلة ـ

المصادر :

(١) فنون الادب : شارلتون (ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود) ٤
(٢) ابن الاثير : المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر ١/١١٤
(٣) المصدر السابق ١/٢٢١
(٤) الجاحظ : البيان والتبين ١/٣٠
(٥) انظر (مفتاح العلوم) ١٥٠
(٦) الحشوة بالضم والكسر : أرذال الناس وأسقاطهم ٠
(٧) البيان والتبين ١/١٢٧
(٨) يصف عين باز فيقول : ان مقلته صفراء مثل لون الخلوق ، وهو ضرب من الطيب أصفر اللون ، وانسان عينه كأنه الحبة الصغيرة من عنب الثعلب ٠
(٩) هذه الامثلة مما مثل به الخفاجي في كتابه « سر الفصاحة » انظر صفحة ٧٨ وما بعدها ٠
(١٠) الخفاجي : سر الفصاحة ٨٢ ٠



صحو المشيب

حافظ جميل

لا تبك من ألم المصاب   فلكل مقدور كتاب
ولكل يوم وعده   لك في مجيء أو ذهاب
دنياك هذى كلها   وطر وأحلام رغاب
ما أوصدت بابا ولم   تفتح أمامك ألف باب
فارفق بقلبك أن يظل حليف هم واكتئاب
ما العمر شهد في أوائله وفي أخراه صاب
صحو بالفؤاد اذا صبا   لا بالمشيب ولا الشباب
كم نفحة مسكية   لك في العتيق من الشراب
وقديم ود كلما   طال الزمان عليه طاب
ما طائر غنى هواه على الأفانين الرطاب
بأرق منه على الربى   يترنم العجب العجاب
ماذا يعوقك ان جريت وراء حبك من صعاب ؟
وكشفت عن نزوات قلبك لا قناع ولا حجاب ؟
وهتفت بالغيد الملاح وان عزفن عن الجواب ؟
وأبيت ان تعصي لهن مشيئة فيقال : تاب ..
وصممت أذنك لا تطيق سماع لوم أو عتاب
وبدوت غضا في الفؤاد ولو هشيما في الأهاب
أتظن قلب سواك من   علق وقلبك من تراب ؟
منذا يلومك ان بليت وظل قلبك في وثاب ؟!
لم تخل مهما عتقت   في الدن خمر من حباب
أتعاف دنياك الحبيبة وهي ما برحت كعاب ؟ ..
وتميل عنها لا تريد سوى اعتزال واغتراب
وتبيت أظمأ ما تكون الى مراشفها العذاب
وتريق دمعا كالغمام على فؤاد كاليباب
وتروح لا أجرا كسبت على شقاك ولا ثواب
الا مزيد تعاسة وندامة يوم الحساب
ماذا تهاب وكان عهدك في الصبا ألا تهاب ؟!
أتهاب ان علق الهوى بك أن يصيبك ما أصاب ؟
ولمن تعيش وانت من غصص الهوى خالي الوطاب ؟
ولم الحياة بلا سهاد أو سقام أو عذاب ؟ ..
هل مات قلبك في حشاك فلا خفوق ولا اضطراب
وارتد كالحجر الأصم فلا يذيب ولا يذاب ؟
ودع اذن دنياك لا   غرض لديك ولا طلاب
يكفيك انك قد مررت بانسها مر السحاب

المدرسة الحديثة في النقد

جون هولووي

ترجمة : عبد الوهاب الوكيل

حدثت في الثلاثين سنة الماضية ثورة في ميدان النقــد الادبي وهي ما تزال قائمة حتى الان فعلا . فالثوار أو أتباعهم الاشداء ، كما هي العادة ما فتئوا يهيمنون على الموقف ، وهذا ما يدعو الى الحذر ذلك لاننا مانزال في المرحلة التي تأخذ فيها الافكار الثورية التحررية بالتحول في صمت وهدوء وحتى يتعذر ملاحظتها بعد جيل تقريبا .

الحذلقة الجديدة :

وعندما أتحدث عن هـذا الموضـوع فانما أفعل ذلك بصـفتي من المحاربين القدماء فقد دخلت المعركة الى جانب المنتصر على الاقل ولكننا اليوم نواجه معركة جديدة . فالمدرسة الحديثة في النقد تقوم على قراءة النص وتتبعـه عن كثب ، وتجزأة القصـيدة الى عناصرها المكونة والتحدث عن الصور الشعرية ، والغموض ، والاقتران ، والنسيج الشعري ، ونستطيع ايضا تتبع هذه المدرسـة الحديثة وهي تتغير بدورها فتتحول الى حذلقـة جديدة ، فتحيل ما كان جديدا وحادا وعذبا في طيفها القديم الى شيء رتيب يبعث الملل ، تجري فيـه العمليات البـارعة وذلك على حسـاب الاشـياء الاخرى . ولو صح ما ذهبت اليه بخصوص هذه الظاهرة ، فليس في ذلك ما يدعو الى ظهور تلك الافكار التي يصوغها الاساتذة الكبار بادىء ذي بدء لتكون أدوات فعالة في اقامة حيلة أدبية غنية ، ثم يتولاها الاساتذة الصغار فيحيلوها كليلة لكي يأمنوا على سلامتهم في ظل الاعمال الرتيبة وراحتهم في ظل القيود .

وسأشير فيما بعد الى مقاطـع مقتبسة من مؤلفـات بعض النقـاد المعروفين تتجلى فيها الاخطار التي نجابهها الان ، وذلك في مراحلهم الاولية البسيطة كما أعتقـد . ونكون بهـذا قد خصصنا بعض النقـاط الضعيفة المتفرقة تقريبا لمؤلفات كانت بمجموعها قد حققت لنا بعض التقدم الملحوظ، ولكنها مهمة كنقاط تشير الى أصل الاخطار التي تشغل عالم النقد اليوم . فكيف أطمع في تشخيص أشياء غير ملموسة كهذه ؟ ولكنني ربما نجحت

في مسعاي هذا بالرجوع الى خبرتين من خبراتي الشخصية الحديثة ، كانت احداهما كالآتي :

ذهبت قبل مدة وجيزة لحضور اجتماع نظمته احدى الجمعيات الادبية · وهناك استمعت الى بحث لا يخلو من البراعة في تحليل قصيدة معينة من شعر (مارفيل)[1] وتدعى (تعريف الحب) تعتبر هذه القصيدة من قصائد العصر الرئيسة وذلك على الاقل منذ أن كتب الدكتور (ليفيز) عنها أبحاثا مفصلة في الثلاثينيات من هذا القرن · ولا شك أن عشرات القراء من ذوى الحس المرهف في النقد قد عالجوهافي العقدين التاليين بعده ووافقوه فيما ذهب بشأنها حتى شرع المؤلفون يشيرون اليها ، في كتبهم عن النقد وتاريخه وكأنها غرة من غرر العصر ·

وكان هذا التوافق بين النقاد والدكتور (ليفيز) هو ما أراد المحاضر في ذلك الاجتماع أن يتحداه ، وفعلا بدأ بتحليل القصيدة من جديد وادعى بأن أقصى ما يستطيع أن يقوله فيها هو أنها خير من قصائد (كاولي)[2] ولقد أطلق على بحثه هذا (نظرة جديدة الى مارفل) وقد فاته كما فات مستمعيه أن الضرورة تقضي بأن يتحدث عن (نظرة جديدة في تحليل القصائد الشعرية) وذلك ان كان على حق فيما ذهب اليه مارفل ويتجلى في هذا المثل نمط من التحقيق العلمي طبق في مجالات متعددة واسعة وما يزال يطبق بكل ثقة واطمئنان ، وفي فترة تبلغ العشرين عاما · وقد جاء هذا النمط في التحقيق بنتيجة معينة في أحوال معلومة عدة مرات · ولكنه جاء ذات يوم بنتيجة عكسية تقريبا · ويتضح من هذه الظاهرة عيوب أسلوب التصنيف الاحصائي الاساسية مثلا · ومع اني لست بعالم فيزياوي الا اني أعتقد أن شيئا مماثلا لهذه الظاهرة حصل عندما حاول العلماء قياس كثافة الضغط خلال مروره بطبقات الاثير وذلك بمقارنته بالسابح عبر النهر أو باتجاه تياره أو ضده · فقد أعطت طريقتهم تلك ، وكانت أكيدة حتى ذلك الحين ، ثمارا غريبة شاذة مما أدى الى اعادة النظر بصورة أساسية في جوهر المشكلة بأسرها · فقد جوبه الحاضرون في المساء الذي أشرت اليه توا بموقف مماثل لذلك · ولكن أحدا لم يحس بحاجة الى اعادة النظر في جوهر المشكلة ذاتها فقد وضع الاسلوب الشائع وهو اسلوب مألوف مجرب في حيز التطبيق فجاء بنتيجة معينة وهذا هو كل ما في الامر ·

الحاجة الى التركيز :

وأما التجربة الثانية التي كنت أعنيها فهي أن أحد معارفي قال في معرض حديث له أن لابد من اقامة نقد الرواية على التحليل المفصل لبعض المقاطع الصغيرة وذلك لاعتقاده بـ (ضرورة تفحص شيء ما) وينتج من هذا فرضية رئيسة من فرضيات النقد الحديث وأساليبه · ويقوم الاكتشاف المعاصر (أو الفكرة القديمة التي أعيد احياؤها) في النقد على ضرورة انبثاق

أي حكم نقدي قيم من عملية امعان الفكر وتركيزه في الموضوع • اذ أن الانطباعات المهمة والاستجابات العاطفية لا تفي بالغرض • وهذا أمر طبيعي • بيد أن ثمة فكرة خفية ولكنها جوهرية تكمن خلف هذه الملاحظة وهي الخاصة بضرورة (تفحص شيء ما) فان ما نستطيع تفحصه وامعان كل الفكر فيه لا يمكن أن يتعدى مقاطع صغيرة أوردت لنا حرفيا •

وهنا لابد لنا أن نتذكر الصورة التي تم بها تطور النقد التطبيقي تاريخيا • فقد ظهر هذا اللون من النقد على العموم على أثر اكتشاف (دون)[٣] والشعراء الميتافيزيقيين و (هوبكنز)[٤] للمرة الثانية ودراستهم جملة وتفصيلا • وكذلك بعد ظهور مجموعة القصائد القصيرة التي نشرها (ريجاردز) في كتابه الموسوم (النقد التطبيقي) اذ قلما تجد العناصر التي نعثر عليها في الاثار المطولة المدة الكافية للنمو والتطور • وبالعكس فان صورة شعرية واحدة تنمو في القصيدة من أولها الى اخرها كما أن القصائد القصيرة تشجع على التعقيد في النسيج وذلك لسهولة قراءتها مرات متعددة قبل أن يتسنى للقارىء فهمها كليا • وقد تم تعلم (القراءة المباشرة) للنص في حقل القصائد الصغيرة هذا • ولكننا نفترض اليوم بأن هذا اللون من القراءة سديد في جميع المجالات وحاسم حقا • وان الادب القصصي مثلا لا يثير مشاكل جوهرية جديدة في هذا المضمار فنحن نعتقد بأننا ما نزال نجابه مشكلة الاختيار القديمة بين أن نتفحص النسيج اللفظي أو أن نتفحص أي شيء مطلقا • ولكن ما أغربه من رأي عندما نمعن النظر فيه •

ولا تثبت هاتان التجربتان شيئا غير ذلك • ولكنهما انما يظهران كما أرجو كيف أن قواعد معينة في النقد أخذت تكتسب صرامة وشدة من حولنا • وهذه هي (المدرسة) الجديدة • وهي تظهر في أحاديث السهرة وفي محلات بيع الكتب ، في محطات السكك الحديد وفي الواجبات المدرسية لطلبة الصفوف المنتهية الثانوية وفي مؤتمرات المعلمين التي تعقد في عطل نهاية الاسبوع •

النسيج الشعري :

ولننظر الان عن كثب فيما يعتبر من الامور المسلم بها في هذه (المدرسة) • نجد أولا أن المدرسة الحديثة لها فكرة عامة معينة عن النسيج الشعري • وقد أصبحت أسسها اليوم مألوفة واضحة فهناك دراسة (ت• س• اليوت) ل (الصور الشعرية وتابعها) في شعر (مارفيل) أو عن (استعارته الغريبة المشحونة بالخيال) وهناك أيضا بحث (اليوت) عن (ماسنجر)[٥] وعبارته الشائعة : « الفاظ أبدا تطل من بين تراكيب جديدة ومباغتة » • وهناك بعد فترة من الزمن ، الدكتور (ليفز) وكتاباته عن اليوت نفسه التي يبحث فيها عن « دقائق وتعقيدات نفسية تعكسها

صورة شعرية غنية ومتنوعة وتفهم أكيد يثير الاعجاب • فكأن جميع ألفاظ اللغة قد جرى استعمالها » • وما هذه العبارات الا أسهم بسيطة تشير نحو الافكار السائدة اليوم •

وتصحب الفكرة السائدة فرضيتان • فهناك أولا الفكرة القائلة بأن النسج الشعري لهذا الموضوع من الدراسات المباشرة للنصوص هو من المزايا الاكيدة وليس مجرد صفة أو لون من الكتابة • كما أنه ليس حتى من المحسنات اللفظية الثانوية • وهناك ثانيا الفرضية التي تقول بأن القصيدة الشعرية التي تخلو منه تتعرض الى خطر مباشر • ولقد أصبحت هذه الافكار اليوم أفكارا مسلما بها مما جعل الناس ينظرون اليها وكأنها من الحقائق البديهية التي لا تحتاج الى برهان • ولكنها مع ذلك لم تكن دائما كذلك فقد عثر (ولتر باجوت)[٦] قبل حوالي المائة عام في شعر (ميلتون) على نفس الصفات التي يراها النقاد المعاصرون فيه • فقد كتب يقول : « اننا نجد تعقيدا سطحيا في شروحه وصوره الشعرية واستعاراته يقابل ذلك من الناحية الثانية بساطة خفية في الفكرة » ، أو كما قال أيضا : « يقال أن للكلمات التي يستعملها بعض الكتاب (أيد وأرجل) أي أنها تبدو وكأنها تتمتع بنشاط الكائنات الحية وحيويتها ، ولكن كلمات (ميلتون) تفتقر الى هذه الحياة الحيوانية » وعلى كل حال فقد كان (باجوت) ينظر الى نفسه كمن يقوم بتشخيص في الادب وليس في تثمينه فقد كان شعر (ميلتون) يفتقر الى هذه الصفة • وهي ما دعاه أحد النقاد المعاصرون ب (مواطن القوة العضلية) وذلك لانه شعر من طراز جديد وقد نجد في هذه الفكرة تفسيرا صائبا ل (الفردوس المفقود) أو قد لا نجد • أما أنا فأكاد أجزم بالنفي • ولكن النتيجة التي نخلص اليها من هذه العبارات هي أن (باجوت) لم يكن ليرى في تعليقه ذاك ذما لميلتون وهو عكس ما يراه الكثير منا اليوم •

وينبغي أن نذكر حقيقة تاريخية ، ان الذوق السائد لما يدعى (بالجذور اللوامس) لم ينشأ عن الاهتمام الكلي بالقصائد الجيدة فحسب وانما تطور بالدرجة الاولى عن أولاع واسعة ومتعددة وطموحة أي للمحافظة على سلامة الثقافة العامة •

ان اعجاب المستر اليوت بالتراكيب الشعرية الجديدة التي ابتكرها (تورنر)[٧] و (مدلتون)[٨] لذي علاقة بعباراته التي تشير الى « فترة من التطور الهائل في الاحساسات وتطور في اللغة الانكليزية لم تشهد له نظير بعد » أما أنا فلست اجرأ على استعمال مثل هذا النمط من التفكير العالي • ومع ذلك فاني اتساءل عما اذا كان هذا التطور الغريب الاثر الذي نجده أحيانا في التضخم اللغوي الذي يكاد يغمر القصيدة بأسرها ؟ ان هذا ما حصل فعلا ، كما قال (ارنولد)[٩] ، في الكثير من الشعر الاليزابيثي وحتى في شعر شكسبير نفسه • وهو يمكن أن يكون مصيبا في قوله هذا ،

وربما كان · ولكن تذكرنا لوجهة نظره هذه يثير أمامنا مسألة كانت مغلقة علينـــا ·

وهنـا يأخذني الخـوف ، ليس على القصائد المعينـة بل على الاسس العامة · فما من عناية تبذل في هذا المجال بالذات ، الا ويمكن وصفها ، وفي الاحوال الراهنة ، بالشدة والصرامة · وعندما نكتشف تحسينات جديـدة في النسيج الشعري ، لابد ان نتساءل دائما عما اذا كانت تلك التحسينـات ستساهم في جعل القصيدة افضل وان كان الامر كذلك فينبغي ان نتسائل عن مقدار هذا الاثر اهو كبير عظيم ام طفيف زهيد ؟

نوعان من عيوب النقد :

لقد ادى الاعتراف الناقص بهذه الحقيقة الى نوعين مختلفين من عيوب النقد · احدهما يتلخص في التأكيد على النقاط الصغيرة وكأنها كبيرة جدا واما الثاني فهو التحدث عن النسيج الشعري الدقيق وكأنه من العوامل التي لايصح توفرها بكثرة · هنالك مقطع من كتاب للدكتور (ليفز) يوضـح بجلاء ودقة النقطة الاولى التي ذكرتها فقد تكون صائبة بشكلها الحالي هذا ، ولكن على القارىء ان يتدبر في الحال ما اذا كانت ستورده الى الخطأ · وهذا المقطع هو كلمات السيدة مكبث الترحيبية بالملك عندما استقبلته في قلعتها -

« اننا لو ضاعفنا
خدماتنا ، في كل جزء منها ، مرتين ، ثم اعدناها ضعفا
فانها ستبقى ضئيلة وبسيطة لاتباري
ما اغدقت من معالم واسعات عراض
على بيتنا ياذا الجلالة ·

اذ يقول الدكتور (ليفز) اننا نشعر ان في كلمة (تباري) قوة طبيعية غير عادية تتصل في النهاية بالصورة الضمنية ل (نهر سريع الجريان لايقف في سبيله شيء) وبه (يتحققها) الاستعاره التقليدية التي تعتبر الملك منبع الشرف · ولنفرض هنيهه ان هذا التحليل كامل ومضبوط فعند ذلك يبرز سؤال اخر وهو الى اى حد يمكن ان يزيد هذا التحليل في حسنات القطعـة بالذات وكم سيزيد ؟ ·

هل سيزيد هذا النوع من الاستعارة في الحديث عن الملك كمنبع للشرف من تثميننا لها وتمتعنا بها واحساسنا بما تضفيه من معان على المسرحية ؟ اما انا فلا اعتقد بانها ستزيد منه كثيرا ولكن الدكتور (ليفز) يســتطرد ويتحدث عن قوة الضبط الدقيقة البديعة « عند شكسبير في ذلك الشـيء الذى يبرز عبقريته » كما تبرزها احلى الصور الشعرية عنده ــ وهي ميـزة يجب ان نقول بها ــ · ولابد لنا من ملاحظة الدقة التي يعبر فيها الدكتور (ليفز) عن افكاره · فلو يعنى كلامه هذا بان شكسبير يكشف هنا بصورة

عابرة تقريبا ، عن قابلية لو ظهرت في مكان اخر لكانت ستعود فعلا بنتائج ممتازة ، فلا بأس في ذلك ولكننا ينبغي ان نعجل بالاستنتاج بان هذا المقطع الشعرى بالذات ٠٠ ممتاز او انه ينور المسرحية بصورة مدهشة تكشف لنا عن معانيها كل ذلك لسبب تفهمنا للاستعارة في البداية اذ ان هذا معنـــاه كما سبق ان ذكرنا ، اعتبار توفر صفة واحدة من صفات الشعر في القطعـة ضمانا اكيدا لتوفر المزايا العظمى ٠ ومع ذلك فكم من مرة شخص فيهاالنقاد اليوم وجود هذا اللون من النسيج الشعري ، ومن ثم اكتفوا بالافتراض أو التأكيد المطلق على جودة القصيدة التام ٠ ولـكننا ان بالغنا في ذلك كثيرا فسيعني ذلك وقوع انفصال بين الميزة الشعرية الاصيلة ، وبين تعقد النسيج الشعرى هو في صرامة الانفصام الذى حدث في نقد الدرجة الثانية للاجيال القليلة الماضية بين الميزة الشعرية الاصيلة وبين (الموسيقى اللفظية) ٠

ولقد حصل اليوم رد فعل عند الجميع تقريبا تجاه النقص الثـاني الذى تحدثت عنه ، الا وهو التعقيد المطرد ــ تلك المدرسة التي يمـكن ان نسميها « المتعة في المزيد من التعقيد » ٠ بيد ان الجزء الاكبر من رد الفعـل هذا جرى تبريره باستخدام مقياس غامض في تحديد ماهو معقول : الا وهو عدم المبالغة فى التفنن والحذلقة ٠ ويخطيء هذا الرأى الهدف ايضا ٠ فهناك عادة حجة قوية جدا ضد الناقد الذي يبالغ في تفننه ٠ فلنتدبر مثلا هـذه الابيات من قصيدة (مارفل) الموسومة ب (الحديقة) :

وفي ذات الوقت ولندرة اللهو
ينسحب العقل الى حيث يتمتع بسعادته الخاصة
فالعقل ، ذلك الخصم الذى يجد كل شيء فيه
مثيله في الحال ٠٠٠٠!!

فقد ناقش الاستاذ (امسبون) قبل وقت بعيد هذه الابيات ومما قاله فيها ٠ ان عبارة (لندرة اللهو) لاتعني فقط من قلته وانما تعني ان العقل نفسه يأخذ بالتضاؤل والصغر من جراء لهوه (واعتقد انه قال بان اللهو الريفي ينفي الصفة العقلية عن الشاعر) ٠ كما ان كلمة (Strait) لا تعني في الحال فقط ، بل انها تعني ان الافكار متراصة ومتلاحمة في الفكر الذى هو بالطبع عالم صغير او (مايكروكوزم) ولكن هذين التفسيرين يوضحان، كما اعتقد ، ثقة في غير محلها بالفكرة القائلة بان في التعقيد مزايا عظيمـــة ذلك لان الفكرة التي تقول بان العقل خصم كبير تسود هذه الابيات وتبرز بوضوح فيها ٠ وكم سيتجلى ضعف (مارفيل) لو انه قال بان شيئا مـــا يجعل العقل ينكمش ويتقلص ومن ثم يبادر فورا الى تشبيهه بالمحيط ٠ومن غير اللائق ايضا ان يقول بان العقل كالخصم الكبير ، ومن ثم يبادر الى القول بان الاشياء متراصة ومتلاحمة فيه: ولن تجعل هذه التعقيدات من الابيات ابياتا افضل بل العكس ٠ فهي تؤدي الى تحطيمها ، ويرتكب الناقد في هذه

الحالة اساءة موجهة ليست ضد فكرة عامة غامضة تدور حول ماهو معقول ، بل الى القصيدة نفسها ، والتي باستعماله كلمة المحيط لاتسمح بمثل هذه التفاسير مطلقا ٠

ويستطيع المرء ان يطلق التعميمات فيقول بان القصيدة ينبغي ان تضم كنزا من المعاني ، وانها ايضا وبنفس الاصرار يجب ان تتجنب فيضا من المعاني الاخرى ٠ وينحصر جزء كبير من مهمة القارىء المتتبع للنص في الاحساس بالمعاني التي لاتحتويها القصيدة ٠ ولكن هذه الحقيقة لاتلقى العناية والتأييد اللازمين ذلك لان التعقيد نفسه والذي كان يعتبر اكتشافا مثيرا في بداية الامر اصبح هدفا رتيبا للبحث ، بل الشيء الوحيد الذي نعرف كيف نبحث عنه تقريبا ٠

واذا قلت بانه الشيء الوحيد تقريبا فانما اشير بذلك الى نقطة مهمة جدا ، وبعكس الانواع المختلفة للادب تبدو (المدرسة) الحديثة في النقد في الغالب ، وكأنها تتحرك بفعل ضرورة داخلية ٠ وينبغي علي ان اوجز في هذا الخصوص فالجأ الى التعميم والتصوير الكاريكاتوري ولكن وراء هذا التصوير الكاريكاتوري تكمن حقيقة جدباء ٠ ومن الامثلة الاولى لهذا الحصر والتضييق ، ما نجده في كتاب الاستاذ (ولسن نايت) الموسوم بـ (عجلة النار) ـ ففي هذا الكتاب الذي يعتبر من المراجع المثمرة للحركة الجديدة يذكر الاستاذ نايت بحق في معرض بحثه في مسرحيتي (يوليوس قيصر) و (ماكبث) بعض « الشبه التصوري » وارجو ان تكونوا قدلاحظتم استعمالي الكلمة « تصوري » وهي كلمة لها دلالتها في تقدير المدى الكامل للزخم الادبي ٠ ولكنه يمضي فيقول بانه لايتجلى لنا الا عندما تغمرنا الصفة الشعرية للمسرحيات ٠ فهل يعني ذلك ان كلمة تصوري تنقلب بعملية تحول هادىء الى كلمة « شعري » ؟ كلا ٠ ليس الامر كذلك ٠ ولكن عملية التحول لما تنته بعد ٠ ان الاشارة الى الصفة الشعرية تقود السيد (نايت) توا الى الحديث عن الرمزية الشعرية او الصور الشعرية ، وكأن الشعر يعني الرمزية او الصور الشعرية ٠

بيد ان النقطة التي اسعى الى توضيحها هنا هي ان بحث الاستاذ (نايت) الذي يحتفظ بصفة الشمول انما هو في الحقيقة آخذ بالضيق المتزايد ٠ فعندما نقرأ فيه ان كلمتي « دم » و « مدمى » تترددان سبع عشرة مرة في المشهد الاول من الفصل الثالث فقط ، نستطيع آنذاك ان نفهم المدى الكامل للتحديد والتضييق الذي يهددنا ، ان جاز لي ان اقول ذلك ٠ ويجب ان لايغرب عن البال ان كل ما ذكرته الان يبرز في الفصل الاول الخالد الذي يهدف الى ان يفتح اعين القارىء امام مجالات واسعة كان عاجزا عن رؤيتها من قبل ٠

ويمكننا الحصول على مثل متأخر اكثر وضوحا من ذلك في مقال للسيد (ترافرسي) يدور حول أفضل الطرق لقراءة مسرحيات شكسبير ،

ونقدها • ويرد هذا المقال في المجلد الثاني من السلسلة الحديثة التي قامت بنشرها دار (بليكان) للنشر • تلك السلسلة الموسومة ب (دليل بليكان للادب الانكليزي) حيث يبدأ السيد (ترافرسي) مقاله في موضوع كـان نقطة نقاش حاد في السابق فيقول : اننا عندما نبحث في المسرحيات المتقدمة لشكسبير (وليست سواها من المسرحيات ، كما يتضمن المقطع) فعلينا ان نتفحص اولا ما فيها احيانا من صيغ وتعابير ومفردات مدهشة ، ويضيـف بعد ذلك باننا من الطبيعي ان ننتقل بعدها الى الوزن الشعري وهو يتحول الى الصور الشعرية ، تلك الصور التي (نجدها في النهاية تأتي بتـكرار له مغزاه ، مكونة وحدة تتميز بالدقة الكبيرة وتوحي بالمعاني المختلفة •وذلك على الرغم من الملاحظة التي يذكرها عرضا تقريبا وهي ان الشخصية الروائية والحدث الروائي هما أيضا في تطور نسبي • ولـكن السيد (ترافرسي) ما يفتأ في الجملة الثانية ان يتخلى فعلا عن هذه الملاحظات المفسرة اذ يقـول : « ان خير اسلوب للبحث هو الذي يقوم على المضي في دراسة الكلمة والتقدم منها نحو الصورة في اطارها الشعري ، ثم السير بعدها في السبيل الذي يتم فيه تدريجيا حيـاكة زخرف الموضوعات الادبية المتداخلة ، فتشكل حدثا دراميا » • ويبدو هذا الاسلوب الذي اقترح في البـداية للمسرحيات الاولى متصلا بما يدعوه السيد (ترافرسي) ب (فن شكسبير) بصورة عامة • وما هو في الحقيقة الا الاسلوب الذي يستخدمه السيد (ترافرسي) كلما أراد الكتابة عن شكسبير • وهكذا ، وبالاستعانة بهذا البحـث البسـيط في الاسلوب ، نجد اننا وقد حكمنا على انفسنا باستعمال اسلوب يجبر الناقـد على البحث عن شيء واحد فقط ، الا وهو زخرف الصور الشعرية •

وسوف اتناول البحث في الصور الشعرية في مقالي الثاني وقد حاولت هنا ان اشير الى كيف ان النظام السائد في النقد اليوم ينذر بالتحجر والجمود والاطباق بصمت علينا • ولكن اخشى انني لم اتعرض الى اهم اخطـارنا الحديثة في النقد • وهذا ما سأحاول القيام به في الحديث القادم •••

× ـــ آثر الكاتب ان يسميها المؤسسة •

(١) مارفيل ـ ١٦٢١ ـ ١٦٦٨ ـ كان اندرومارفل الشاعر الطهري الوحيد بين الشـعراء الميتافيزيقيين ويمتاز شعره بحس مرهف نحو الطبيعة وعاطفة متاججة • راجع الحاشية رقم (٢) عن الشعراء الميتافيزيقيين •

(٢) كاولي : ١٦١٨ ـ ١٦٦٧ ـ كان ابراهام كاولي من اشهر شعراء زمانه فقد نشر اول ديوان له وهو في الرابعة عشرة • ويعتبر اخر شاعر من الشعراء الميتافيزيقيين فقصائده تتميـز بنفس الصفات ولكنها تفتقر للعاطفة الصادقة •

(٣) دون : ١٥٧٣ ـ ١٦٣١ ـ يعتبر جون دون الرائد الاول للمدرسة التي يطلق عليها في الادب الانكليزي بمدرسة الشعراء الميتافيزيقيين • ومهما كان المقصود من لفظة (الميتافيزيقيين) فان شعر دون يتصف بمظهره الفلسفي بالمفهوم الافلاطوني للفلسفة وكذلك النمط مـن الاستعارة الغريبة والعاطفة المتاججة التي اشتهر رواد هذه المدرسة بها • ولقد اصبحت

هذه المدرسة موضع اهتمام النقاد ودراساتهم في مطلع هذا القرن ونالت من الاعجاب مالم تنله في حينه ٠

(٤) هوبنكز ـ يمتاز جرالد مانلي هوبنكز بحس مرهف للطبيعة ٠ ورغم انه مات في اواخر القرن الماضي الا انه يدرس مع شعراء مطلع هذا القرن وذلك لان شعره لم ينشر حتى ١٩١٨ ٠

(٥) ماسنجر : ١٥٨٣ ـ ١٦٤٠ ـ كتب فيليب ماسنجر عدة مسرحيات بعضها بالاشتراك مع كاتب اخر يدعى (فلجر) ولعل خير ماكتب هي الكوميدى المعروفة (طريق جديد لدفع دين قديم) ٠

(٦) ولتراباجوت ـ ١٨٢٦ ـ ١٨٧٧ ـ كان صرافا ومالكا للسفن ومحررا لمجلة (ناشنال ريفير) ثم (الايكونومست) نشر عدة كتب في الاقتصاد والسياسة كما نشر كتابا عن الدراسات الادبية ٠

(٧) تورنر ـ ١٥٧٥ ـ ١٦٢٦ ـ كاتب مسرحي حياته مجهولة لنا تماما ٠

(٨) توماس مدلتون ـ ١٥٧٠ ـ ١٦٢٦ ـ كاتب مسرحي كتب عدة مسرحيات يهجو بها اوضاع عصره ٠ كما كتب مهازل رومانسية بالاشتراك مع عدد من معاصريه من الكتاب ٠

(٩) ارنولد ـ ١٨٢٢ ـ ١٨٨٨ ـ كان ماثيو ارنولد شاعرا وناقدا ومربيا كبيرا نشر اول ديوان له في ١٨٤٩ كما نشر مجموعة مقالات في النقد في ١٨٦٥ ـ ١٨٨٨ ـ



المصطلحات العلمية العربية

« ان الانسان ليصل عن طريق علم النجوم الى برهان وحدة الله ومعرفة عظمته الهائلة ، وحكمته السامية، وقوته الكبرى وكمال خلقه »

البتاني ٨٧٣ – ٩٠٨م

«ان المقدمات النظرية ، اذا رتبت على شروطها افادت العلم بالنتيجة على وجه لايتمارى فيه ، ويكون العلم المستفاد من المقدمات بعد حصولها ضروريا كالعلم بالمقدمات الضرورية المنتجة له »

ابو حامد الغزالي

جمعها وشرحها

رشيد عبد الرزاق الصالحي

الاستاذ المساعد في كلية الهندسية

عبر الزمن وبحسب ما يقتضيه التطور العلمي وتستوجبه مقتضيات الترجمة والبحث العلمي وضع العرب كثيرا من المصطلحات العلمية ، ولما كانت هذه الالفاظ موزعة على المراجع المختلفة دون ان يجمع منها الا النزر القليل ، لذلك جربت ان اتخذ من مطالعاتي الخاصة فرصا لجمع مثل هذه المصطلحات العلمية بغية تعريف الاخرين ذوي العلاقة ببعث التراث العربي الاسلامي ، وفي هذا المقال ادرج بعض ما جمعته مع شرح يسير وبحسب ما تقتضيه المصلحة العلمية لبيان معنى كل مصطلح • ان هذه الالفاظ الواردة تمثل كلمات تعطي من حيث المعنى معنى مغايرا للمعنى اللغوي فهي اقرب الى المعاني العلمية التي تنتسب اليها فتارة تمثل اسماء لالات وتارة تمثل معاني تختص بالفلك والرياضيات والكيمياء وتارة تخص ادوات القياس واخرى تشمل باقي الفنون والعلوم •

الخطاف : وهي حربات كبيرة لصيد الاسماك والحيتان المائية •

غسرافة : وهي آلة الطعام التي يغرف بها •

شربة : وهو شراب مثلج من عصير الفواكه ممزوج بالسكر والكحول (كيمياء) •

دائرة السمت : وهي الدائر التي يمكن للمرء بواسطتها تحديد سمت النجوم ، وتعنى الزاوية الناتجة عن خط أفقي ثابت وخط أفقي آخر صادر عن كوكب السماء ٠

الأداة : وهي مسطرة لقياس الزوايا ، تدور حول نقطة في طرفها ، وينتقل طرفها الاخر على دائرة ذات أقسام متساوية ٠ (وتعتبر هذه الآلة من الآلات التي أضافها العرب على المحلقات الفلكية Armillar

السمت : هو نقطة من الفلك ينتهي اليها الخط الخارج من مركز الكرة الارضية على استقامة الشخص ٠ ان آلة السموت Azimut هي الآلة التي تشبه الى حد بعيد آلة الثيودولايت الحديثة عندنا Theodotile

الزيجة : جمع زيج وهو عند العرب صناعة حسابية على قوانين عددية فيما يخص كل كوكب عن طريق حركته وما ادى اليه برهان الهيئة في وصفه من سرعة وبطء واستقامة ورجوع ٠٠ الخ وبه يعرف مواضع الكواكب في أفلاكها بأي وقت فرض من قبل حسبان حركاتها على تلك القوانين المستخرجة من كتب الهيئة ٠ ولهذه الصناعة قوانين ، كالمقدمات والاصول ، لها في معرفة الشهور والايام والتواريخ الماضية ، وأصول متقررة في معرفة الاوج والحضيض والميول وأصناف الحركات واستخراج بعضها من بعض يضعونها في جداول مترتبة تسهيلا على المتعلمين وتسمى بالزيجة ٠ وهي بالعرف الحديث الفلكي جداول فلكية ٠

الأرواح : وهي المواد الطيارة كالكبريت وملح النشادر عند الكيميائيين القدامى أمثال جابر بن حيان حيث جاء في أحد كتبه ان لا تقبل التكلس (التأكسد) ــ كيمياء ــ ٠

حجر الفلاسفة : وهي المادة التي كان يفتش عنها الكيميائيون القدامى اعتقادا منهم أن بها خاصية تحويل جميع المعادن الى ذهب وشفاء جميع الامراض ــ كيمياء ــ ٠

أكسير الحياة : وهو السائل الساحر في الكيمياء القديمة الذي كان يظن ان به سر تحويل المعادن الخسيسة الى ذهب ، وقيل أنه مقوي يهب الشباب الخالد لمن يتناولونه ومن خواص هذا الاكسير انه يذيب كل شيء٠ فبمجرد اذابة المعادن فيه والقاء حجر الفلاسفة في المحلول انتشر الذهب في الحال فيه ٠ وهذا الاسم أطلقه علماء العرب ٠

الاستقصاط الاربع : وهي النار والهواء والماء والارض كما ورد في كتاب فضائح الباطنية لابي حامد الغزالي (ص٣٩ تحقيق عبدالرحمن بدوي) وقد ذكر رأي الباطنية في العالم فقالوا : « العالم قديم ، أي وجوده ليس

مسبوقا بعدم زمانه ، بل حدث من السابق : التالي وهو أول مبدع . وحدث من المبدع الاول النفس الكلية الفاشية جزيئاتها في الابدان المركبة . وتولد من حركة النفس الحرارة ، ومن سكونها البرودة ثم تولد منهما الرطوبة واليبوسة ، ثم تولدت من هذه الكيفيات الاستقصاط الاربع » . كما أن رأي الباطنية في كيفية تكون المعادن والحيوان والنبات والانسان كان « اذا امتزجت — أي الاستقصاط — على اعتدال ناقص حدثت منهما المعادن ، فان زاد قربها من الاعتدال وانهدم حرفية التضاد منها تولد منها النبات ، وان زاد تولد الحيوان فان ازداد قربا تولد الانسان ، وهو منتهى الاعتــــدال » .

ولا شك أن هذا الرأي كفر واضح لذوي الاختصاص حيث انه مستمد من المجوس بتبديل عبارة النور والظلمة بالسابق والتالي كما جاء في المصدر السابق نفسه فضائح الباطنية .

الاخلاط الاربعة : وهي الصفراء والسوداء والبلغم والدم .

الضلع القائم : وهو المستقيم المار ببؤرة القطع المكافيء والعامود على محوره الثانوي والذي تقع نهايتاه على القطع وهو يناظر المصطلح الحديث في الرياضيات بالبعد البؤري للقطع المكافيء Latus Rectum — هندسة تحليلية — .

سهم القطع المكافيء : وهو المستقيم الذي يمر ببؤرته ورأسه والذي تطلق عليه اليوم في الهندسة التحليلية المحور الثانوي .

سهم القوس : وهـو المستقيم الواصــل من منتصفها الى منتصف وترها — رياضيات — .

زاوية الانعطاف : وهي زاوية الانعكاس في مبحث الضوء (الزاوية المحصورة بين الشعاع المنعكس والعمود المقام من نقطة السقوط) والفعل انعطف يعني انعكس بالمعنى الفيزيائي .

المعتبر : وهـو الشخص الذي يقوم باجراء التجربة العلمية وعالم اعتبـاري المقصـود بـه المعنى الحديث باللفظة الانكليزية Experimenatl Scientist أي العالم الذي يعتمد في استنتاجاته على ما يحصل من تجاربه — كما ورد هذا الاصطلاح في مقـالات ابن الهيثم — والاعتبار القيام بالتجارب ، الا أن معنى الاعتبار قديما هو أشمل من نتائج التجربة اذ ينبغي أن تطابق الاستنباطات النظرية مع **الواقع التطبيقي** بغية التأكد من صلاحية النتائج أو بلغة ابن الهيثم والعلماء المسلمين للتأكد من أن ذلك **موافق للحق** أي مطابقة النتائج للامور الطبيعية .

الاصبع : وهو وحدة قياس للطول تساوي حديثا ٢٫٠٥٥سم استعملها ابن الاثير حيث قال بلفظه « وينبغي أن تكون الاصبع التي يقدر بها خطا مستقيما مخطوطا في صفيحة النحاس » ·

الشعيرة التامة : وهي وحدة قياس للطول تزيد على السنتمتر قليلا كما استعملها ابن الهيثم حيث قال بلفظه « ثم يعتمد - أي المعتبر - مثقبا من مثاقب الخشب ويكون عرض رأسه بقدر طول شعيرة تامة » وذلك في معرض وصفه آلة الانعكاس لاثبات قانوني الانعكاس في الضوء ·

العرض : ورد معنى العرض بمعنى القطر حديثا حيث يقول ابن الهيثم في المرآة المستوية « فالمستوية جعلهـــا مستديرة عرضها - أي قطرها - بمقدار ثلاثة أصابع » ·

النظيران : وهو المقصود به فيزيائيا في الوقت الحاضر بالشعاعين الساقط والمنعكس كما ورد في بحوث ابن الهيثم البصرية ·

الخطان المتشابها الوضع : وهو معنى آخر للنظيرين الآنفي الذكر أي الشعاع الساقط والمنعكس ·

النقطتان المتعاكستان : اذا كانت (أ ، ب) نقطتان متعاكستين بالنسبة الى نقطة أخرى مثل (جـ) فالمقصود بهما بموجب رأي ابن الهيثم أنه اذا مر شعاع ضوئي من النقطة (أ) مارا بنقطة (جـ) الواقعة على سطح عاكس ثم انتقل الشعاع نفسه من النقطة (جـ) فانه سيمر بالنقطة الاخرى (ب) « كما تسمى نقطة (جـ) بنقطة الانعكاس » ·

سمت الشمس : ekliptik أي زاوية مدار الشمس مع خط الاستواء وبهذه المناسبة نقول ان الفرغاني هو أول من اكتشف ان سمت الشمس ينقص تدريجيا وقد حسبه حسابا دقيقا ·

أوج الشمس : « وهو أقصى حد في البعد بين الارض والشمس » ويعتبر العرب أول من راقبوا تغير أوج الشمس الذي قال عنه اليونانيون بأنه ذو طول واحد لا يتغير ·

النور : عبارة عما يبصر بنفسه ويبصر به غيره « وهو على رأي الامام أبو حامد الغزالي » ·

الاعداد المتحابة : يقال لعددين متحابين اذا كانت معدودات أحدهما تساوي العدد الاخر مثال ذلك العددان ٢٢٠ ، ٢٨٤ حيث معدودات ٢٢٠ هي : ١ ، ٢ ، ٤ ، ٥ ، ١٠ ، ١١ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٤٤ ، ٥٥ ، ١١٠ ، التي مجموعها يساوي ٢٨٤ ·

معدودات ٢٨٤ هي : ١ ، ٢ ، ٤ ، ٧١ ، ١٤٢ ومجموعها ٢٢٠ ·

العدد الكامل : وهو العدد الذي يساوي مجموع معدوداته تماما مثال ذلك العدد ٦ ومعدوداته ١ ، ٢ ، ٣ التي مجموعها يساوي ٦ وكذلك العدد ٢٨ فهو عدد كامل لان مجموع معدوداته ٢٨ وهي : ١ ، ٢ ، ٤ ، ٧ ، ١٤

الطبائع الاربعة : والمقصود بها قديما الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة كما ورد في رسائل اخوان الصفا ـ كيمياء ـ .

الاركان الاربعة : وهي الاستقصاط الاربع المذكورة سابقا ـ رسائل اخوان الصفا ـ .

الازمان الاربعة : وهي الربيع والصيف والخريف والشتاء ـ اخوان الصفا ـ .

الرياح الاربع : وهي الصبا والدبور والجنوب والشمال ـ اخوان الصفا ـ .

ملحوظة : من الزيجات العربية الشهيرة ما ذكره حجي خليفة هي زيج ابراهيم بن حبيب الفزاري ، وزيج ابن حماد الاندلسي ، وزيج السمح الغرناطي ، وزيج ابن الشاطر ، وزيج ابن يونس ، وزيج أبي حنيفة الدينوري ، وزيج أبي معشر المنجم ، وزيج جمال الدين ابن محفوظ المنجم وزيج الفرغ بك محمد بن شاهرخ ، وهو زيج معتبر على أربع مقالات الاولى في معرفة التواريخ والثانية في معرفة الاوقات والطالع والثالثة في معرفة سير الكواكب ومواقعها والرابعة في الاعمال النجومية ، والزيج الايلخاني لنصير الدين الطوسي اخذه عن ارصاد مراغ التي قام بها هولاكو التتري والزيج الصابي للبتاني وهو أصح الزيجات ويمكن الرجوع الى دائرة معارف لبطرس البستاني للاطلاع على بقية الزيجات .

المراجع

(١) شمس العرب تسطع على الغرب تاليف المستشرقة الالمانية زيغريد هونكه وترجمة بيشون كمال دسوقي

(٢) رسائل اخوان الصفا

(٣) المقايسات لابي حيان التوحيدي

(٤) دائرة المعارف لبطرس البستاني

(٥) كتاب فضائح الباطنية تاليف ابو حامد الغزالي تحقيق عبدالرحمن بدوي

(٦) مقالة الدكتور محمد علي حجاب عن (الثروة العلمية لابن هيثم) مجموعة ابحاث الجمعية المصرية للعلوم الرياضية والطبيعية الجزء الاول العدد الثالث ١٩٣٩

Introduction the history of science by (Sarton)

الغزالي

ابراهيم الخال

في عام ٢٦١ الهجري (٨٧٥م) ، توفي قطب الصوفية الكبير « أبو يزيد البسطامي » بعد أن خلف وراءه في عالم الفكر والشريعة الاسلامية دويا هائلا بسبب ما كان يتعرض له من شطح عند تجرده عن شخصيته خلال استغراقه في وجده وتعبده ، اذ كثيرا ما بات فقهاء عصره من أهـــل السنة يتميزون غيظا وهم يسمعونه يردد ولها في دجنة الليل البهيم وقد غاب عن وعيه بتأثير « شراب المحبة » : « سبحاني ، ما أعظم شأني ! » ·

على أن الذي زرعه أبو يزيد ، قد حصده بعد حوالي ربع قرن من وفاته ، رائد كبير من رواد الاوراد والاذكار الصوفية القدامى ، وذلك هــو (أبو منصور الحلاج) الذي افتى بوجوب قتله الفقهاء لقوله في معرض الشطح : « ما في الجبة الا الله » ، وقد نفذ فيه حكم الموت في بغـــداد عام ٣٠٩هـ (٩٢١م) · وكان الحلاج عندما روجع في أقواله قبل اعدامه قد قال بأن لسانه كان ينطق « عن الله » حين يكلم مريديه ـ ولم يقـــل بأن الله سبحانه هو الذي يتكلم ·

وبعد الحلاج ، بدت نظرة علماء الشريعة والكلام نحو الصوفية عابسة صارمة ، بل وعلى أشد ما يمكن أن تبدو من صرامة وعبوس ، فراح الفقهاء يكيلون لرجال التصوف شتى أشكال تهم الزندقة والمروق عن الشريعة والسنة ، وهو ما أدى الى أن يبقى هؤلاء موضع ريبة الطبقة الحاكمة التي كانت تنهج نهج رجال الشرع والفقه ، وقد بقي الحال على هذا المنوال مدة قرن وربع القرن بعد الحلاج ، كان الموت خلالها يترصد طرق غلاة الصوفية والشاطحين ·

بعد ذلك ، وخوفا على دنيا الروحانية الصوفية من التلاشي و « الفناء الاكبر » بسبب هذا الاضطهاد المركز ، ارتفعت أصوات المعتدلين من أعـلام الصوفية الكبار بضرورة اطراح (الغلو) جانبا ، ونبذ التطرف ، والتمسك بالاعتدال ، وذلك بالتأكيـــد على الترابط القسوي الموجود بـــين عالمي (الشريعة) و (الحقيقة) ـ بين السنة والتصوف ·

ولم تكن نزعة التوفيق والدعوة الى اجراء التسوية ، لمجرد التسوية والحفاظ على الكيان الصوفي في الواقع . انما كان ذلك أيضا بسبب تأثر كل من الجانبين المتخاصمين بالجانب الاخر . ذلك أن الكثير من كبار رجال الصوفية المعتدلين كانوا يرون في المؤمنين الاوائل من أصحاب النبي والتابعين الزاهدين الذين كانوا « يذكرون الله كثيرا » ، أمثلة رائعة لهم في الزهد والتجرد والانصراف الى ذكر الله ، في ذات الوقت الذي كان فيه هناك من علماء الشريعة من يرى في هؤلاء المعتدلين من المتصوفة ، صورا حية للتقوى والورع والحب والتآخي الذي ورد في الكثير من آيات كتاب الله العزيز . لذلك كان لابد من محاولات في سبيل هذه التسوية تبدو من كلا الجانبين .

ولقد بدأ الجانب الصوفي بمحاولة حل هذا الخلاف برسالة الشيخ الصوفي الذائع الصيت (عبد الكريم بن هوازن القشيري) المتوفي عام ٤٣٧هـ (١٠٤٥م) ، وهي المعروفة بـ « الرسالة القشيرية في علم التصوف » أما جانب الفقه والشرع ، فقد تمثلت محاولته باتجاه أبي حامد الغزالي نحو التصوف المتزن الذي أصبح بواسطته أكبر الموفقين بين (الطريقة) و (والحقيقة) وذلك بعد مدة ليست بالطويلة من وفاة القشيري .

ولم تكن محاولة السنة قد جاءت على شكل جواب رسالة بعينها كرسالة القشيري كما قد يتصور القارىء ، انما كانت في الواقع جوابا على جميع القضايا المختلف عليها بين سائر المذاهب والنزعات في ميادين الفقه والفلسفة والتصوف ، وهو جواب تجسم واقعيا في المدة التي استغرقتها حياة الغزالي الفكرية جميعها اعتبارا من يوم تفقهه الغاية أيام شكوكه وتجواله بين عالم الشك واليقين . عليه ، ولاجل فهم طبيعة هذا الجواب ، كان لابد لنا من القاء بعض الضوء على تطور الغزالي الفكري مبتدئين الموضوع ، كأمر لا مفر منه ، بابتداء سيرة علم الفكر الاسلامي العظيم .

وكانت رسالة القشيري بالاحرى ، تمثل الصعيد الفكري الذي اصطرع عليه التياران ، السني والصوفي خلال القرن الحادي عشر الميلادي (الخامس الهجري) ، وهو نفس الصعيد الذي ولدت في متاهاته شخصية الغزالي الشكوكية . لذلك حق للقارىء أن يحيط بشيء عن تلك الرسالة ليكون على بينة من طبيعة العصر وواقعه الفكري الذي تمخض بعد القشيري عن شخصية هذا المجتهد الكبير .

فرسالة القشيري كانت ترمي جملة وتفصيلا الى اقرار التوافق والانسجام بين الشريعة والتصوف . انها احتوت على صور مختلفة لافكار كبار الصوفية الاعلام ، وعلى نماذج مختارة من أقوالهم المأثورة وحكمهم ، ثم على مبادىء التصوف الرئيسية ، كل ذلك لغرض التنبيه على أن أقطاب الصوفية الحقيقيين يستنكرون ويشجبون معارضة الاسلام القائم ومناوأته ، وان على الصوفي الصادق الخليق بالاحترام أن يكون مسلما حقيقيا بالمعنى

المتعارف عليه عند أهل السنة . وكان مما جاء في هذه الرسالة ، خطاب القشيري الى أتباعه اذ يقول :

« اعلموا ان المحققين من هذه الطائفة انقرض اكثرهم ، ولم يبق في زماننا هذا من هذه الطائفة الا أثرهم . حصلت الفترة في هذه الطريقة ، لابل اندرست الطريقة بالحقيقة . مضى الشيوخ الذين كان بهم اهتداء ، وقل الشباب الذين كان لهم بسيرتهم وسنتهم اقتداء، وزال الورع وطوى بساطه، واشتد الطمع وقوى رباطه ، وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة ، فعدوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة ، ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام ، واستخفوا بأداء العبادات ، واستهانوا بالصوم والصلاة ، وركضوا في ميدان الغفلات .. ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الافعال حتى أشاروا الى أعلى الحقائق والاحوال ، وادعوا انهم تحرروا عن رق الاغلال ، وتحققوا بحقائق الوصال .. وانهم كوشفوا بأسرار الاحدية ، واختطفوا عنهم بالكلية ، وزالت عنهم أحكام البشرية » .

تلك هي طبيعة الصراع العقائدي الذي اتصف به العصر الذي انتج لنا الغزالي . وكان منطق الاحداث الفكرية لذلك العصر ، قد أجاب على هذه الرسالة القشيرية بشخصية الغزالي بكاملها : فقيها وفيلسوفا ومتصوفا ثم علما من أعلام الفكر الانساني الطامح الى المحبة والخير العام ، فمن هو الغزالي ؟

هو محمد بن محمد بن محمد بن أحمد ، أبو حامد الطوسي الغزالي ، ويسميه جدليو العصور الوسطى من المسيحيين في أوربا (Algazel, Abuhamet). وقد عرف بـ (أبي حامد) نسبة الى ولد له توفي وهو صغير السن . وقد لقب بـ (الغزالي) نسبة الى (غزالة) من ضواحي طوس ، وهناك من يرى بأن لقبه هو (الغزالي) نسبة لمهنة أبيه (الغزال) .

ولد أبو حامد بمدينة (طوس) التابعة لخراسان سنة ٤٥٠ هجرية (١٠٥٩م) ، وكان والده يغزل الصوف ويبيعه في دكانه بتلك المدينة ، ولما حضرته الوفاة وصى به وبأخيه أحمد ، الى صديق له متصوف من أهل الخير وقال له : « ان لي لتأسفا عظيما على تعلم الخط ، وأشتهي استدراك ما فاتني في ولدي هذين فعلمهما ولا عليك أن ينفذ في ذلك جميع ما أخلفه لهما » . فلما مات أقبل الصوفي على تعليمهما الى ان فنى ذلك النزر اليسير الذي كان خلفه لهما أبوهما ، وتعذر على الصوفي القيام بقوتهما فقال لهما : « اعلما اني قد أنفقت عليكما ما كان لكما ، وأنا رجل من أهل الفقر والتجريد ، ليس لي مال فأواسيكما به ، وأصلح ما أرى لكما ، أن تلجآ الى مدرسة كأنكما من طلبة العلم فيحصل لكما قوت يعينكما على وقتكما » ، ففعلا ذلك ، وكان هو السبب في سعادتهما وعلو درجتهما . وكان الغزالي يذكر ذلك ويقول : « طلبنا العلم لغير الله ، فأبى أن يكون الا لله » .

ولم يكن والد الغزالي من ذوي الجاه واليسار بين القوم . انما كان

واحدا من هؤلاء الناس الذين فاتهم التعليم والمركز الاجتماعي والغنى ، في ذات الوقت الذي انطبعوا فيه على حب الخير فطرة وسليقة ، فتراهم في كل زمان ومكان رهن اشارة رجال العلم الصالحين ، والنفر الذين نذروا أنفسهم لله والدين والجماعة ، لا يعصونهم في شيء ، بل وكثيرا ما سهروا بأنفسهم على راحتهم ، وضحوا بالكثير من أجلهم ·

كذلك كان والد الغزالي : فقيرا عزيز النفس عفيفها ، لا يأكــل ولا يطعم أولاده وزوجه الا من كسب يمينه وعرق جبينه في غزل الصـــوف · وكان يتردد على مجالس الوعظ ورجال الفقه والحكمة الذين كان يتوفر على خدمتهم ، ويجد في الاحسان اليهم ، وينفق على شؤون مجالسهم بقـــدر ما تسمح له حاله الضعيفة على ذلك · ولفرط تأثر هذا الوالد الصالح بمن كان يسهر على خدمتهم من هؤلاء الصالحين الطيبين ، فقد كان دائم الدعاء أن يكون أولاده على شاكلتهم ، وقد تحققت أمانيه بعد وفاته ، بل وقدر الله لابنه محمد أن يكون اماما في الفقهاء والحكماء ، وقطبا في السالكين والعـــارفين ·

فلقد تلقى الغزالي دروسه الاولى على يد صوفي كما سبقت الاشارة اليه قبل قليل · ثم تحول الى دراسة الفقه في بلده طوس على (أحمد بن محمد الراذكاني) · وقبل أن يبلغ سن العشرين ، شد الرحال لمواصـلة دراســـته في جرجان على الامام (أبي نصر الاسماعيلي) · ويرى بعض المؤرخين بأنه تزوج في هذه المدينة خلال أيام دراسته · ثم أنه بعــد أن أكمل دراسته واستوعب علوم أبي نصر ، عاد ثانية الى بلده طوس ·

وفي الطريق الى طوس ، هاجم اللصوص وقطاع الطرق القافلة التـــي كان فيها الغزالي ونهبوا امتعتها بما في ذلك جميع أمتعة الغزالي وكتبه · وفي ذلك يقول الفقيه (اسعد الميهني) : « سمعت الغزالي يقول « قطعت علينا الطريق · وأخذ العيارون جميع ما معي ومضوا ، فتبعتهم فالتفت الي مقدمهم وقال : ارجع ويحك والا هلكت · فقلت له أسألك بالذي ترجسو السلامة منه أن ترد علي تعليقتي فقط فما هي شيء تنتفعون به ، فقال لي وما هي تعليقتك ؟ فقلت كتب في تلك المخلاة ، هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها · فضحك وقال كيف تدعي أنك عرفت علمها وقد أخذناها منك فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم ؟ ثم أمر بعض أصحابه فسلم الي المخلاة » ·

ويقول الغزالي معلقا على كلام مقدم العيارين الساخر ، بأنه « كان مستنطقا أنطقه الله ليرشدني في أمري · فلما وافيت طوس أقبلت عـــلى الاشتغال ثلاث سنين حتى حفظت جميع ما علقته ، وصرت بحيث لو قطع علي الطريق لم أتجرد من علمي » · وقصـــة الغزالي مـــع العيـــارين ، من القصص التي كثيرا ما رواها عنه الوزير السلجوقي نظام الملك ·

وهكذا كان هذا الحادث درسا بليغا في حيـــاة الغزالي ، اضطره أن

يمضي ثلاث سنوات في طوس يحفظ عن ظهر قلب ما درسه من علوم ، وهي عادة بقيت ملازمة له طوال حياته اذ استمر يستظهر ما يراه مهمـــا مما يقرأ خوف ضياع كتبه أو ذهابها نهبا بأيدي اللصوص ٠

وكان رئيس المدرسة النظامية في نيسابور تلك الايام ، علم من أعلام الفكر البارزين ، هو امام الحرمين (ضياء الدين الجويني) الاشعري الذي عرف بتحرره الفكري بين العلماء ، اذ كان يخضع كل ما يعرض له من تقاليد موروثة واراء شائعة للنقد الفكري الجريء ، مبديا فيها اراءه بكل صراحة ، لا يبغي من وراء ذلك غير التوصل الى الحقيقة المجردة على ضوء المنطق والعقل ٠

ولقد توجه الغزالي الى نيسابور وتتلمذ عـلى هـذا العالم النابغة ، ودرس عليه الفقه والاصول والكلام والفلسفة والجدل والمنطق فبرز بذلك على اقرانه ، بل ارتفع وهو في تلك السن ، وقد كان في العشرينيات الاولى، الى طبقة استاذه ، بل وارتفع عليه طبقة اذ لم يكن الجويني على درجة من قصر النظر ، وهو النقادة الصريح ، بحيث يلقب هـــذا التلميذ النابه ب (البحر المغرق) !

وكان للجويني تأثير عظيم في تفكير الغزالي ٠ ذلك أنه لم يعد يدرس ويستظهر ما يدرس لمجرد اختزان المعلومات وحسب ، انما أصبح ناقـدا لما يدرس فراح يكتب ويؤلف بروح الناقد المفكر الذي لا يتقبل الاراء الا بعد اخضاعها لمنطق العقـــل ، متتبعا في ذلك خطى استاذه التي بدت له قصيرة ، فامعن في اطالتها ، ثم زاد عليها فيما هو ممعن في توسيع تلك الخطى ليرى نفسه وقد اذنت حياة الجويني بالانتهاء ، في بحر من الشك ، واسع الارجاء عميق ٠

ويشير الغزالي الى شكوكه هذه التي ابتدأت في هذه السنين المبكرة من عمره ، في كتابه (المنقذ من الضلال) الذي وضعه في أواخر أيام حياته فيقول :

« وقد كان التعطش الى ادراك حقائق الامور دأبي وديدني ، من أول أمري وريعان عمري ، غريزة وفطرة من الله وضعتا في جبلتي ، لا باختياري وحيلتي ، حتى انحلت عني رابطة التقليد ، وانكسرت علي العقائد الموروثة ، على قرب عهد سن الصبا ، اذ رأيت صبيان النصارى لا يكون لهم نشوء الا على التنصر ، وصبيان اليهود لا نشوء لهم الا عـــلى التهود ، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم الا على الاسلام ، وسمعت الحديث المروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث قال : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه » ، فتحرك باطني الى طلب حقيقـة الفطرة الاصلية ، وحقيقة العقائد العارضة بتقليد الوالدين والاستاذين ، والتمييز بين هذه التقليدات ، وأوائلها تلقينات ، وفي تمييز الحق منها عن الباطل اختلافات » ٠

بهذه الشكوكية العميقة غادر الغزالي مدينة نيسابور بعد وفاة استاذه الجويني فيها عام ٤٧٨هـ (١٠٨٥م) وكان آنذاك في السادسة والعشرين من العمر · ولقد اصطحب معه يوم خروجه عائلته المكونة من بناته الثلاث وزوجه ، ولم يذكر لنا التاريخ أن ابنه حامدا كان معه ، اذ يحتمل أن يكون قد توفي قبل ذلك التاريخ · ومن نيسابور ، توجه الغزالي الى (المعسكر) حيث كان يقيم الوزير السلجوقي نظام الملك الذي عرف برعايته لرجال العلم والتقوى ·

ولقد أقام أبو حامد مدة خمس سنين في (المعسكر) ، كان يحضر خلالها مجالس أئمة رجال الدين والعلماء في حضرة نظام الملك ، فكان يناظرهم ويجادلهم بمنطق رصين يثير الدهشة ، ثم ينتصر عليهم ويتفوق يوما بعد يوم ، ويصبح في قمة الهرم من تلك المجالس جميعها ، وهو ما أدى الى اقبال نظام الملك عليه ، واتخاذه له صفيا واستاذا وقد ذاع صيته ووصل الافاق العلمية البعيدة من العراق ، فطلب منه الوزير تولي رئاسة المدرسة النظامية في بغداد ، فلم يشأ أن يتأخر أو يتلبث ، بل شد الرحال وراح يغذي السير عنيفا وعنيقا نحو عاصمة الدنيا التي وصلها عام ٤٨٤هـ (١٠٩١م) ·

هي ذا بغداد ·· عاصمة العرب والاسلام التي بلغت قمة مجدها الفكري في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي (الخامس الهجري) · بل هي ذا عاصمة دنيا الفكر وقلعة الحرية الفكرية الكبرى في القرون الوسطى : القرون التي خيمت بظلامها على روما وأثينا اللتين كانتا تستشهدان آنذاك تحت ضربات الجهل المبيرة مما كان يتمثل في اضطهاد البابوات والكهانة المسيحية للحريات ·

لقد انتقل مشعل حرية الفكر من روما الى بغداد لتضيء دروب الفكر أمام الاحرار في هذا العالم ، فما الذي شهده الغزالي فيها عندما تربع على عرش الفكر في المدرسة النظامية وراح يتأمل في التيارات الفكرية المختلفة وهي تتصارع بحرية منقطعة النظير في ظلال أضواء ذلك المشعل ؟

كل شيء كان يجري بيسر ورخاء في حلقات الدرس والمناقشة والمناظرة ، فقد كان ذلك الصراع الفكري الهائل يجري بروحية (الجنتلمان) المتعارف عليها اليوم ، بعيدا عن القتل بالخوازيق والنيران المستعرات التي كانت تلتهم أحرار الفكر في أوربا في ذلك التاريخ ·

كانت هناك مذاهب فقهية مختلفة ، وكانت هناك فلسفات مختلفة ، وكانت هناك أيضا صوفية ، منها ما هي نقية خالصة لوجه الله تعالى ، ومنها ما هي مزيفة اتخذها البعض لكسب الصيت الحميد والفوز بعطف العامة ·

بل وكان هناك تعصب في بعض أوساط فقهاء السنة ضد هذه الصوفية · لكنه لم يكن تعصبا له علاقة بحرية الفكر بحال ، انما كان

الدافع الاول والاخير له سياسيا صرفا فلم تكن الصوفية وطرقها واضحة المعالم بالنسبة لهؤلاء الفقهاء ٠

لقد كان الطابع الثيوقراطي من مميزات الدولة العباسية ٠ وكان عماد هذه الثيوقراطيـة السنة التي كانت تمثل في نفس الوقت ، الدستـور السياسي الذي تقوم على أساسه حياة الدولة لذلك كان المفهوم لدى الطبقة الحاكمة ومن ورائها فقهاء أهل السنة ، بأن أي خطر يتهدد الفقه السني انما يتهدد كيان الدولة السياسي بالذات ٠ عليـه كان التفاف سـواد الشعب حول الصوفية ، واحاطة رجالها بالاجـلال والاحترام ، مما يقض مضاجع رجال الفقه والطبقـة الحاكمة الذين راحـوا ينظرون الى رجال التصوف كأعداء سياسيين يرمون الى هدم الدولة وسلطاتهـا وقوانينهـا المتمثلة في الشريعة الاسـلامية ، لذلك كان الشطـح الصـوفي والغـلو في التصوف أدلة صريحة بيد الحكام ورجال الشرع ، تدين هؤلاء الصوفية في أنهم يهدمون السنة ، ويعملون بالتالي على هدم الدولة القائمة بهذه السنة، وهو ما أباح لهم قتل الحـلاج والشلمغاني واضطهاد غـيرهم من رجال التصوف الكبار على أساس من « الدفاع عن النفس » وليس على أساس من « الهجوم » الذي كان يقوم القساوسة بمثله على أحرار الفكر في أوربا خلال الالف عام المشؤومة التي استغرقتها العصور الوسطى في الغرب ٠

وكان الغزالي يوم استلم وظيفته في المدرسة النظامية في بغداد يمثل عالما من شك قائما بذاته بعد أن اختزن التركة التي أورثها اياه استاذه الجويني ، امام الحرمين ٠ كان يشك بكل ما له علاقة بالفقه من تفرعات ومسائل ثانوية ، وسفاسف تافهة ، كاد يرفعها المتفعون من فقهاء ذلـك العصر الى مراتب المبادىء الرئيسية في الشريعة الاسلامية السمحاء التي لا تصدر في أحكامها الا عن المبدأ الاسـلامي الاكبر في التسـامح والتعـاطف والتآخي بين فئات المسلمين المختلفة التي تلتقي ببعضها أول ما تلتقي ، عند النطق بالشهادتين ٠ وكان يشك أيضا بهؤلاء الفلاسفة وفلسفاتهم التي لم يحط بها الاحاطة الكلية بعد ٠ وهو اذ كان يرى في الصوفية مذهبـا جليلا خالصا لوجه الله بعد أن تلقى أصولها ومبادئها في طوس بعد وفاة أبيه ، كان يرى ويلمس في الوقت نفسه مدى اختلاف الفقه والفلسفة مـع التصوف الى الدرجة التي كانت تضطر الصوفيين الى القيام بتسابيحهم وأذكارهم بعيدا عن العيون ٠ عليه ، ولاجل تنزيه هذا الصـدى الصوفي العميق الذي يتردد في نفسه ، من شوائب التهم التي ألصقتها به الفلسفة والفقه ، كان لابد له من سحق الفلسفة ك « كل » وازالتها من الميدان ، ثم تجريد السنة من شوائب التفرعات ، وما كان يعتقـد في أنه سفاسف لا تتعلق بجوهر الدين في شيء ، ليتمكن بعد ذلك من التوفيق بين الشريعة والتصوف ٠

هناك راح يجلس في صومعته بالمدرسة النظامية بعد انتهائه مـن

تدريس تلامذته ، لينكب على دراسة فلسفة ابن سينا والفارابي ، ويحيط بها احاطة عالم ، بل وفيلسوف راسخ القدم مكين • ولقد حلق الغزالي في آفاق الفلسفة الى المديات التى لم يصل اليها احد من الفلاسفة الذين تقدموا عليه أو عاصروه • بعد ذلك قبع في المدرسة النظامية يعد العدة للانقضاض على الفلسفة وسحقها ، وكانت الخطوة الاولى التي اتبعها في هذا السبيل ، هي وضعه كتابه « مقاصد الفلاسفة » الذى عرض فيه آراء الفلاسفة وشرحها شرح فيلسوف محايد خبير قبل التصدى لنقدها وسحقها في كتاب جديد•

وهو بعد ان فرغ من « مقاصد الفلاسفة » باشر فورا بوضع كتابه الذائع الصيت « تهافت الفلاسفة » الذي هد به اركان الفلسفة التي كانت قائمة في عصره ، وحاول ان يبقيها ركاما ، حجرا فوق حجر ، لولا ان هيأ الله لاعادة بناء كيانها بعد مدة من الزمان ، فيلسوف العرب الاكبر ، ابن رشد (١١٢٦ـ١١٩٨م) ،الذي كال له الصاع صاعين ، ووضع مكان كل آجرة هدمها الغزالي في محراب الفلسفة العربية الاسلامية ، آجرتين •

وكان الغزالي قد افتتح معركته مع الفلسفة في « تهافت الفلاسفة » بهجوم عام كاسح ، صوب خلاله نار افكاره عليها باسم الشرع وشعائر الدين اذ يقول :

« اما بعد فاني قد رأيت طائفة يعتقدون في انفسهم التمييز عن الاتراب والنظراء بمزيد من الفطنة والذكاء ، قد رفضوا وظائف الاسلام من العبادات واستحقروا شعائر الدين : من وظائف الصلوات ، والتوقي عن المحظورات، واستهانوا بتعبدات الشرع وحدوده ، ولم يقفوا عند توقيفاته وقيوده ،بل خلعوا بالكلية ربقة الدين ، بفنون من الظنون ، يتبعون فيها رهطا يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالاخرة هم كافرون، •••

وانما مصدر كفرهم سماعهم اسماء هائلة كسقراط وبقراط وأفلاطون وارسطو طاليس وامثالهم •• منكرون للشرائع والنحل ، وجاحدون لتفاصيل الاديان والملل ، ومعتقدون انها نواميس مؤلفة ، وحيل مزخرفة ••

فلما رأيت هذا العرق من الحماقة نابضا على هؤلاء الاغبياء ، انتدبت لتحرير هذا الكتاب ، ردا على الفلاسفة القدماء ، مبينا تهافت عقيدتهم ، وتناقض كلمتهم فيما يتعلق بالالهيات ، وكاشفا عن غوائل مذهبهم وعوراته التى هي على التحقيق مضاحك العقلاء وعبرة عند الاذكياء ، اعني مااختصوا به عن الجماهير والدهماء من فنون العقائد والاراء ، هذا من حكاية مذهبهم على وجهه . ليتبين هؤلاء الملاحدة تقليدا ، اتفاق كل مرموق من الاوائل والاواخر على الايمان بالله واليوم الاخر • وان الاختلافات راجعة الى تفاصيل خارجة عن هذين القطبين ، ـ يقصد الايمان بالله واليوم الآخر ـ اللذين لاجلهما بعث الانبياء المؤيدون بالمعجزات ، وانه لم يذهب الى انكارهما الا شرذمة يسيرة ، من ذوي العقول المنكوسة ، والآراء المعكوسة ، الذين لايؤبه

لهم ، ولا يعبأ بهم فيما بين النظار ، ولا يعدون الا من زمرة الشـــياطين الاشرار ، وغمار الاغبياء الاغرار ٠٠٠٠ الخ »

ولقد فند الغزالي آراء الفلاسفة في « التهافت » وبين تناقضاتهـم في عشرين مسألة هي :

(١) : ابطال مذهبهم في ازلية العالم ٠
(٢) : ابطال مذهبهم في أبدية العالم ٠
(٣) : بيان تلبيسهم في قولهم « ان الله صانع العالم ، وان العالم صنعه »٠
(٤) : في تعجيزهم عن اثبات الصانع ٠
(٥) : في تعجيزهم عن اقامة الدليل على استحالة الهين ٠
(٦) : في ابطال مذاهبهم في نفي الصفات ٠
(٧) : في ابطال قولهم « ان ذات الاول لاتنقسم بالجنس والفصل ٠ »
(٨) : في ابطال قولهم « ان الاول موجود بسيط بلا ماهية » ٠
(٩) : في تعجيزهم عن بيان ان الاول ليس بجسم ٠
(١٠): في بيان ان القول بالدهر ونفي الصانع لازم لهم ٠
(١١): في تعجيزهم عن القول بأن الاول يعلم غيره ٠
(١٢): في تعجيزهم عن القول بأنه يعلم ذاته ٠
(١٣): في ابطال قولهم « ان الاول لايعلم بالجزئيات »
(١٤): في قولهم « ان السماء حيوان متحرك بالارادة » ٠
(١٥): في ابطال ما ذكره من الغرض المحرك للسماء ٠
(١٦): في ابطال قولهم « ان نفوس السماوات تعلم جميع الجزئيات » ٠
(١٧): في ابطال قولهم باستحالة خرق العادات ٠
(١٨): في قولهم «ان نفس الانسان جوهر قائم بنفسه ليس بجسم ولاعرض»
(١٩): في قولهم باستحالة الفناء على النفوس البشرية ٠
(٢٠): في ابطال انكارهم لبعث الاجساد ، مع التلذذ والتالم في الجنة والنار، باللذات والآلام الجسمانية ٠

وفي المسائل الثلاث الخاصة بأزلية العالم ، وعلم الله بالجزئيـات ، وبعث الاجساد ، وهي التي تأتي تحت الارقام (١) و(١٣) و(٢٠) اعلاه ، اكد الغزالي على كفر الفلاسفة وضرورة قتلهم بسببها ، وهو رأي يتناقض على خط مستقيم مع مبدئه الذي كان يدعو له والذي لايتجاوز في معناه حدود التسامح وعدم التعصب في الرأي ، وكان ذلك اكبر ما وقع فيه الغزالي من أخطاء ، بل ولعله كان خطأه الوحيد !

وهكذا الغزالي : ساقته عقليته الجبارة وروحه الطامح الى التطلع نحو الحقيقة من اجل الحقيقة ذاتها ، الى الشك في كل شيء : في التقاليد والاراء الشائعة المتوارثة ٠ وفي عالم الحس ، وعالم الفلسفة ٠ وهو عندما سـدد ضربته الكبرى الى الفلسفة بـ « تهافت الفلاسفة » بسبب هذه الشكوك

لم يدر انه كان « يتفلسف » أيضا ، ولكن على خط معاكس لخطوط ارسطو وابن سينا والفارابي ٠

ومصدر الشك هو العقل والتفكير ٠ ولقد بقي الغزالي يتفحص العقائد والاسرار الخاصة بمختلف الفرق ليميز بين الواقعي منها والزائف على ضوء الفكر حتى بعد ان اتجه نحو التصوف ، وبعد ان «اناف السن على الخمسين» وبذلك نقول خلافا لغيرنا ممن درس سيرته ، بأنه كان رائـدا من رواد « العقلانية » (Rationalism) الكبار في نفس الوقت الذى كان فيه قطبا من أقطاب التصوف القائم على أساس الالهام في حالات الغيبوبة واللاشعور (Unconsciousness) وتلك صورة من صور « ازدواج الشخصية العالمة » — اذا صح هذا التعبير — التي تحاول الوصول الى اليقين عن طـريق العقلين ، الواعي والباطن ، وهي حال لم تتيسر لاحد من الفلاسفه غـير الغزالي ٠ اسمعه كيف يتكلم في معرض نقده وبحثه العقلي بعد أن اصبح كبيرا من اكابر الصوفية الملهمين :

[٠٠٠ ولم أزل في عنفوان شبابي ، منذ راهقت البلوغ قبل بلـوغ العشرين الى الآن ، وقد اناف السن على الخمسين ، اقتحم لجة هذا البحـر العميق ، وأخوض غمرته خوض الجسور ، لاخوض الجبـان الحـذور ، واتوغل في كل مظلمة ، واتهجم على كل مشكلة ، وأتقحم كل ورطة ،واتفحص عن عقيدة كل فرقة ، واستكشف اسرار مذهب كل طائفة ، « لأميز بين محق ومبطل » ومتسنن ومبتدع ، لا اغادر باطنيا ، الا وأحب أن أطلع على بطانته، ولا ظاهريا الا واريد ان اعلم حاصل ظهارته ، ولا فلسفيا الا وأقصـد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكلما الا واجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ، ولا صوفيا الا واحرص على العثور على سر صفوته ، ولا متعبدا الا وأترصد مايرجع اليه حاصل عبادته ، ولا زنديقا معطلا الا واتجسس وراءه للتنبه لاسباب جرأته في تعطيله وزندقته ٠] — أوليست هذه هي العقلانية القائمة على أساس العلة والسبب ؟ وانه لما يدهش اللب ، والحق يقال ، ان تكون هذه العقلانية من المميزات اللصيقة بقطب من أقطـاب الصوفية العظام الذين يستهينون بقدر العقل !

فالغزالي لم يتخلص من تأثير الفلسفة في تكوينه الديني كما كـان يتصور بعد وضعه « تهافت الفلاسفة » ٠ وفي ذلك يقول « ابو بكر العربي » قاضي اشبيلية المتوفي عام ١١٥١م ، «شيخنا ابو حامد دخل في بطن الفلسفة، ثم اراد ان يخرج منها فما قدر ٠ » ٠

ولم تستبد الشكوك بالغزالي يوما وتتركه في متاهة سحيقة من أمره كذلك اليوم الذي انتهى فيه من وضع « التهافت » ٠ ولابد من تنبيه القاريء هنا بأننا عندما نشير الى شكوك الغزالي لا نعني بأننا وضعناه في صفوف « الشكاك » ، ذوي الفلسفة الارتيابية الشكوكية (Scepticism) الذين يشكون بوجود الله سبحانه ٠ كلا ٠٠ ان شكوكية الغزالي كانت مركزة في « الحس »

و « العقل » كوسائل يمكن أن توصله الى اليقين والتقرب الى ذات الله العلية على الوجه الافضل دونما تشويش أو التواءات . فايمان الغزالي بالله أمر مفروغ منه . اما الوسائل التي كانت مستعملة للتوصل الى باب الله كما يريد ، فانها كانت في ذلك التاريخ من حياته موضع شكه الكبير .

هذا الشك ، وصدى الصوفية الاولى التي تعلمها أيام صباه ، ثم اختلاطه الواسع برجال التصوف منذ قدومه بغداد ، جعله يرى في التصوف مخرجا من أزمته النفسية فلم لا يفعل ؟

وفي كتابه « المنقذ من الضلال » ، يعرض علينا الغزالي كيف يؤدي الشك في « الحس » و « العقل » الى التصوف ، بأسلوب رائع اذ يقول بعد أن ينتهي من ذكر أسباب شكه في المحسوسات :

ثم « قالت المحسوسات : بم تأمن أن لا تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات ، وقد كنت واثقا بي ، فجاء حاكم العقل فكذبني ، ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقي ؟ فلعل وراء ادراك العقل حاكما آخر ، اذا تجلى ، كذب العقل في حكمه ، كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس في حكمه ؛ وعدم تجلي ذلك الادراك ، لا يدل على استحالته .

فتوقفت النفس في جواب ذلك قليلا ، وأيدت أشكالها بالمنام وقالت : أما تراك تعتقد في النوم أمورا ، وتتخيل أحوالا ، وتعتقد لها ثباتا واستقرارا ، ولا تشك في تلك الحالة فيها ، ثم تستيقظ فتعلم انه لم يكن لجميع متخيلاتك ومعتقداتك أصل وطائل ؟

فبم تأمن أن يكون جميع ما تعتقده في يقظتك ، بحس أو بعقل ، هو حق بالاضافة الى حالتك التي انت فيها ؟ لكن يمكن أن تطرأ عليك حال تكون نسبتها الى يقظتك ، كنسبة يقظتك الى منامك ، وتكون يقظتك نوما بالاضافة اليها . فاذا أوردت تلك الحالة ، تيقنت أن جميع ما توهمت بعقلك ، خيالات لا حاصل لها ، أو لعل تلك الحالة ما تدعيه الصوفية انها حالتهم ، اذ يزعمون انهم يشاهدون في أحوالهم التي لهم ، واذا غاصوا في انفسهم ، وغابوا عن حواسهم ، أحوالا لا توافق هذه المعقولات . ولعل تلك الحالة هي الموت ! » — وفي قول مأثور عن الامام علي كرم الله وجهه : ان الناس نيام ، فاذا ماتوا انتبهوا . . » .

نعم ان الخروج من الشك الى عالم اليقين لا يمكن أن يحدث الا بولوج طريق السالكين .... طريق الصوفية الذين اطرحوا كل هذه المعارف العقلية جانبا وتجردوا من الدنيا وتركوا نفوسهم وقلوبهم خالية من كل شيء الا من ذكره سبحانه الذي تتجلى حقيقته لهم يقينا كما تتجلى البروق المضيئة في حلك الليل البهيم ... بفضل من هذا التجرد والانصراف اليه وحده ... هكذا بدأ يفكر الغزالي ويعتقد .

ولكن الجاه الذي أصبح يحيط به من كل جانب في بغداد ، والمركز الاجتماعي الذي تبوأه عن يد واقتدار في عاصمة الخلافة ، ثم المركز العلمي

اللامع في المدرسة النظامية ، وغير هذا وذاك كثير ٠٠ هل يمكن له أن يتجرد عنها ويخلفها وراءه بعيدا عن نوازع نفسه بسهولة ليلج طريق السالكين ؟ انه سؤال لا نود أن يجيب عليه غير الغزالي بنفسه اذ قال وهو يصف الحال التي كان عليها وهو يقدم رجلا ويؤخر أخرى :

[« ثم اني لما فرغت من هذه العلوم ، أقبلت بهمتي على طريق الصوفية ٠٠٠ فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم ٠٠٠ وظهر لي أن أخص خواصهم ما لم يمكن الوصول اليه بالتعلم ، بل بالذوق والحال وتبدل الصفات ٠٠٠ وعلمت يقينا انهم أرباب الاحوال ، لا أصحاب الاقوال ٠٠٠ ولم يبق الا ما لا سبيل اليه بالسماع والتعلم ، بل بالذوق والسلوك ٠٠٠ وكان قد ظهر عندي انه لا مطمع لي في سعادة الآخرة الا بالتقوى ٠٠٠ وان ذلك لا يتم الا بالاعراض عن الجاه والمال ، والهرب عن الشواغل والعلائق ٠٠٠ ثم تفكرت في نيتي في التدريس ، فاذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى ، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت ٠٠٠ فلم أزل اتفكر فيه مدة ، وانا بعد على مقام الاختيار ، أصمم العزم على الخروج من بغداد ٠٠ اقدم فيه رجلا وأؤخر عنه اخرى ٠٠٠ فصارت شهوات الدنيا تجاذبني سلاسلها الى المقام ، ومنادي الايمان ينادي : الرحيل ! الرحيل ! فجميع ما انت فيه من العمل والعلم رياء وتخييل ٠٠٠ ثم يعود الشيطان ويقول : « هذه حالة عارضة واياك أن تطاوعها فانها سريعة الزوال ٠ وان أذعنت لها ، وتركت هذا الجاه العريض ، ربما ٠٠٠ لا يتيسر لك المعاودة ! »] ٠

ولقد استبد هذا القلق بالغزالي فسيطرت عليه الهموم لدرجة انها اعتقلت لسانه فكان يقضي ساعات الدرس بين تلاميذه في النظامية واجما لا ينطق بشيء ، ثم مرض مرضا شديدا كاد أن يودي بحياته بعد أن قطع الاطباء بشفائه الرجاء ، وفي ذلك كتب يقول :

[فلم ازل اتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ، ودواعي الآخرة قريبا من ستة أشهر ، أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ؛ وفي هذا الشهر « جاوز الامر حد الاختيار الى الاضطرار » ، اذ قفل الله علي لساني حتى اعتقل عن التدريس ٠٠٠ وحتى اورثت هذه العقلة في اللسان ، حزنا في القلب بطلت معه قوة الهضم ، ومراءة الطعام والشراب فكا بنلا ينساغ لي ثريد ، ولا تنهضم لي لقمة ؛ وتعدى الى ضعف القوى حتى قطع الاطباء طمعهم من العلاج] ٠

وأخيرا فان الغزالي عندما شعر بأن الامر قد « جاوز حد الاختيار الى الاضطرار ٠ » ، وانه هالك لا محالة بسبب قلقه وتردده ، قرر بصورة نهائية سلوك الطريق الصوفية فشمر عن ساعد الجد ، ونهض من فراش المرض ، وبادر الى التخلي عن الجاه العريض ، والمركز الاجتماعي والعلمي،وأناب عنه في التدريس في النظامية اخاه احمد ، ثم فرق أمواله في الفقراء والمحتاجين -

وهو حذرا من ان يقف في طريق مغادرته النظامية والعراق خليفة أو حاكم أو وزير ، أعلن بأنه ينوي الخروج الى مكة لحج بيت الله الحرام ، وقد كتب في ذلك قائلا :

« وأظهرت عزم الخروج الى مكة ، وانا أدبر في نفسي سفر الشام ... ففارقت بغداد ، وفرقت ما كان معي من المال ، ولم أدخر الا قدر الكفاف ، وقوت الاطفال . » . وهكذا مضت القافلة الصغيرة التي ضمت الغزالي وزوجه وبناته ، تطوي الفيافي والقفار ، الى ان ألقت عصى الترحال في الجامع الاموي بدمشق .

وها هو ذا الغزالي وقد بدأ يطبق عمليا ما قرأه في كتب ابي طالب المكي ، والحارث المحاسبي ، وما استوعبه من المأثور عن البسطامي والشبلي والجنيد وغيرهم من أعلام التصوف ، فكان يقضي اوقاته في الخلوة منصرفا بكليته الى الله ، وقد لبس الثياب الخشنة وراح يروض نفسه على التجرد عن الدنيا والانصراف عن ذكرها ، وكثيرا ما كان يرتاد البراري والقفار كي لا يشغله شاغل عن ذكر الله ، كما كان يقطع خلواته أحيانا ليقوم بواجب الوعظ بما يتفق والنزعة الصوفية في الجامع الاموي ، او لينصرف الى الكتابة والتأليف في احدى زواياه التي بقيت تعرف باسمه من بعده ، اذ اطلق عليها اسم « الزاوية الغزالية » .

ولقد أقام الغزالي في دمشق سنتين ، ثم رحل بعدها الى القدس حيث كان يعتكف في الصخرة . وكان الغزالي قد وضع كتابه الضخم « احياء علوم الدين » خلال اقامته في الشام والقدس . وقد روى الغزالي نفسه شيئا عن اسلوب حياته في هذين البلدين الكريمين فكتب يقول :

« ثم دخلت الشام ، وأقمت به قريبا من سنتين ، لا شغل لي الا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة ، اشتغالا بتزكية النفس ، وتهذيب الاخلاق ، وتصفية القلب لذكر الله تعالى كما كنت حصلته من علم الصوفية . فكنت اعتكف مدة في مسجد دمشق ، أصعد منارة المسجد طول النهار ، وأغلق بابها على نفسي . ثم رحلت منها الى بيت المقدس ، أدخل كل يوم الصخرة ، واغلق بابها على نفسي . »

ولقد بقي الغزالي على هذه الحال من الرياضة والمجاهدة والخلوة مدة عشر سنوات ، انصرف خلالها بعض الوقت الى التأليف والوعظ ، كما زار الاسكندرية ، وكاد أن يشد الرحال الى مراكش لزيارة الامير يوسف بن تاشفين لولا أن هذا الامير قد توفي تلك الاثناء . وكان الغزالي قد خرج برأي لامع حول الصوفية والتصوف بعد هذه المدة الطويلة من الرياضة والمجاهدة اذ كتب في هذا الموضوع كتابة الواصل الخبير يقول :

[وانكشف لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن احصاؤها واستعصاؤها ، والقدر الذي اذكره لينتفع به « اني علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة . وان سيرتهم أحسن السير ،

وطريقهم أصوب الطرق ، واخلاقهم أزكى الاخلاق • بل لو جمع عقل العقلاء ، وحكم الحكماء ، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ، ليغيروا شيئا من سيرهم واخلاقهم ، ويبدلوه بما هو خير منه ، لم يجدوا الى ذلك سبيلا • وان جميع حركاتهم وسكناتهم ، في ظاهرهم وباطنهم ، مقتبسة من نور مشكاة النبوة ؛ وليس وراء نور النبوة على وجه الارض نور يستضاء به »]

وكان بعض محبي الغزالي القدامى قد روى يوما انه كان هناك في مدينة الاسكندرية شخص يبغض الغزالي ويغتابه — الى درجة ربما قلت عن درجة اغتياب الدكتور عبدالدائم البقري له ! • وفي يوم من الايام ، شهد المغتاب القديم مناما رأى فيه الغزالي واقفا بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم والى جانبه بعض الصحابة ، وقد راح يشير اليه — الى المغتاب — ويقول : « يا رسول الله ، ان هذا يتكلم في ويؤذيني » ، فقال الرسول « هاتوا السياط » وأمر به ، فضرب بين يديه لاجل الغزالي • ثم ان ذلك الرجل نهض من النوم وآثار السياط بارزة على ظهره •

وانا لا أدعو الله أن ينهض الدكتور البقري من نومه يوما ليتحسس بأصابعه سياط النبي مطبوعة على ظهره بسبب الحملة الظالمة التي شنها على الغزالي في كتابه الرائع « اعترافات الغزالي » • فالواقع ان حياة الغزالي الفكرية لم تشهد من نقد أشد عنفا من هذا الذي ساقه الدكتور البقري • وكان الاحرى بالبقري أن يطلق على كتابه اسم « تهافت الغزالي » جريا مع « تهافت الفلاسفة » و « تهافت التهافت » • ولقد رأى البقري بأن شكوكية الغزالي كانت مصطنعة • وان اليقين الصوفي الذي توصل اليه انما كان صادرا عن فكرة « فكرة النور الذي يقذفه الله في القلب — وانه قرأ هذه الفكرة لدى الحارث بن اسد المحاسبي ، كما ورد ذلك في الجزء الاول من « احياء علوم الدين » • ثم يقول البقري أن الحقيقة التي استخلصها من دراسة الغزالي هي انه — أي الغزالي — كان « على استعداد لان يأخذ أية فكرة من الفكر ، شرعية أو فلسفية أو صوفية ، أو حتى سوفسطائية ••• متى أحس بشبه حاجة اليها ، ثم يؤيدها بالادلة ، ويؤكدها بالبراهين ، من أي نوع كانت ، وباي أسلوب أتى اليه » •

ثم يمضي « البقري » في حملته الظالمة على الغزالي فيهاجمه من ناحية صوفيته ويرى بأنه كان في تصوفه متصنعا أيضا ، وانه سلك طريق التصوف طلبا للصيت والجاه والشهرة وللتقرب من « نظام الملك » الذي كان يبالغ في احترام أدعياء العلم وفقراء الصوفية لاسباب تتعلق بمركزه بين الناس • لكن الذي نعرفه هو انه لم يكن هناك في بغداد من العلماء والصوفية من أهو أكبر منزلة لدى نظام الملك والخليفة من الغزالي الذي كان هو من هو في المدرسة النظامية ، ومن هو أكبر جاها منه ، وأبعد صيتا في العالم الاسلامي • ألم تكلفه السلطة الحاكمة نفسها ، بل والخليفة ذاته ، بوضع كتاب « تهافت الفلاسفة » لمقارعة الفلاسفة حجة بحجة ، ثم

لسحق الفلسفة دونما اهراق دماء ، بعد أن لمس الحاكمون في بعض مذاهبها ما يهدد دستور الامة بالهدم ؟ وهل يدل هذا التكليف الذي اتفق وموقف الغزالي من الفلسفة آنذاك ، على غير المنزلة الرفيعة التي كانت للغزالي دون غيره لدى دار الخلافة والسلاجقة ؟ فأي جاه أكبر من هذا الجاه ، ثم أي صيت أكبر من هذا الصيت ؟

ويرى الدكتور البقري بأن الغزالي كان مموها في الوسائل التي اتبعها في صوفيته مثلما كان يموه ويرائي في اظهار غايته من التصوف · انه يرى بأن استنابته أخيه للتدريس في النظامية دليل على تشبثه بزخارف الدنيا ، وذلك كي يحتفظ بالمنصب لنفسه بعد عودته الى العراق · وانه يرى بأن احتفاظه بشيء من المال لقوت اطفاله دليل على انه لم يعرض عن الاولاد والمال · وان الغزالي كان مرائيا عندما أعلن انه ينوي الخروج الى مكة في الوقت الذي كان يريد فيه السفر الى الشام · وانه لم يتقيد بشروط « الخلوة » لانه كان ينصرف خلال حياته الصوفية أحيانا الى تاليف كتاب « الاحياء » ، والى السهر على راحة أطفاله الذين صحبهم معه ، والى عقد حلقات الوعظ · واخيرا فان البقري يدلي برأيه الحاسم في الغزالي : [انه لم يصل الى ما يريد ، وانه يؤمن بأن كل ما فعله كان غير موصل له ، ويؤمن بأنه لم يحسن هذا الوصول ، ويؤمن بأنه غير صادق في هذه الاعترافات المرتجلة المخترعة ــ يقصد بذلك ما رواه الغزالي في « المنقذ » ــ كما نعتقد نحن بأنه اضطر اليها ، فساقها متناقضة متهافتة ، وبأنه أراد الدفاع عن قضية أركانها منهارة ومتداعية ، ففرض صلابة هذه الاركان ، ثم فرض صحة هذه القضية ، ومن ثم أعلن للناس هذا الفرض ، وطلب منهم تصديقه والايمان به ·]

وكان لابد من ايراد آراء الدكتور البقري هذه ليطلع القاريء على نموذج من النقد العلمي الواعي الاصيل مما قيل في صوفية الغزالي بصورة خاصة · وعلى الرغم من اعتقادنا باتسام حملة البقري على الغزالي بالظلم العظيم ، فاننا سوف لا نرد عليه هنا لعدم تيسر المجال ، انما سنتركه الى هول ليلة ليلاء ، من قبيل ليلة المغتاب الاسكندراني القديم ، الذي تذوق سياط النبي الكريم ، باذنه تعالى ·

والآن ، ما هو هذا التصوف الذي شغل بال الغزالي بعد أن وصل عنفوان حياته الفكرية بحيث اورثه المرض الذي اضطره الى التخلي عن كل ما كان يتمتع به من مركز وجاه ؟ لا بل من هو الصوفي ، وما هو نهج المتصوفة ؟

الذي وجدناه من خلال دراساتنا لهؤلاء المتعبدين وسلوكهم ، هو ان التصوف بصورة عامة ، أسلوب صارم من أساليب العبادة ، يعتقد اتباعه بأنه أفضل الاساليب التي تقرب العبد من الله بصورة مباشرة دونما حاجة الى وسيط من علوم كلامية وفقهية أو غير · انهم يرون بان محبة الله النابعة

من القلب ، هي الوسيلة الكبرى التي تؤدي الى فناء شخصية الفرد في الحقيقة المطلقة ، في الكائن الاعلى المتفرد بحقيقة الوجود . بل أن هناك من يرى في الشطح الصوفي بعض الدلائل التي تشير الى أن هؤلاء الشاطحين من الصوفية يعتقدون بالحلول والاتحاد .

والتصوف كمذهب وأسلوب للعبادة يقوم على خمسة أركان :

(١) الفقر (٢) الزهد (٣) التوكل (٤) رياضة النفس ومجاهدتها (اذلالها) (٥) الخلوة الصارمة المؤدية الى فناء الشخصية والتجليات والفيوضات الربانية .

وليس لدى الصوفيين على مختلف فرقهم تعريف ثابت النص للتصوف . ف « أبو منصور عبدالقاهر البغدادي المتوفي عام ٤٢٩هـ/١٠٣٧م ، وهو أحد كبار علماء مدينة نيسابور ممن ألفوا في التفرعات العقائدية والفرق الاسلامية ، كان قد جمع حسب الحروف الابجدية نقلا عن مؤلفات أقطاب الصوفية الثقات حوالي الف تعريف للصوفية وفكرة التصوف . ويقول شيخ الصوفية الكبير ، شهاب الدين ، عمر السهروردي (٥٣٩ ـ ٦٣٢هـ) أيضا ، « ان أقوال المشايخ في ماهية التصوف تزيد على الف قول » . والواقع ان هذه التعاريف كثيرة ومختلفة ، ولابد ان نذكر شيئا قليلا منها هنا على سبيل المثال . ف « رويم » مثلا ، عرف التصوف وقال بأنه « مبني على ثلاث خصال : التمسك بالفقر والافتقار ، والتحقق بالبذل والايثار ، وترك التعرض والاختيار » . وقال الجنيد : « التصوف أن تكون مع الله بلا علاقة . » وقال معروف الكرخي : « التصوف هو الاخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق ، فمن لم يتحقق بالفقر ، لم يتحقق بالتصوف » . ويقول شهاب الدين السهروردي : « التصوف غير الفقر ، مع مزيد أوصاف واضافات لا يكون بدونها الرجل صوفيا ، وان كان زاهدا وفقيرا . » . ومن تعاريف الجنيد للتصوف أيضا قوله : ان « التصوف هو أن يميتك الحق عنك ، ويحييك به » . وقال « رويم » أيضا : « التصوف هو استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريد . » . وقال « عمرو بن عثمان المكي » : « التصوف أن يكون العبد في كل وقت مشغولا بما هو أولى بالوقت . » .

فاذا كان التصوف كذلك ، فمن هو الصوفي ؟

يقول الامام جعفر الصادق رضي الله عنه ان الصوفية هم هؤلاء الذين « وجدوا أرياح العناية القديمة بهم ، فالتجأوا الى السجود شكرا ، وقالوا آمنا برب العالمين . » . ويقول أبو سعيد الخراز ، الصوفية هم « أهل الخالصة الذين هم المرادون ، اجتباهم مولاهم ، وأكمل لهم النعمة ، وهيأ لهم الكرامة فاسقط عنهم حركات الطلب ، فصارت حركاتهم في العمل والخدمة على الالفة والذكر والتنعم بمناجاته والانفراد بقربه . » . وقال الجنيد يصف الصوفية : « ما اخذنا التصوف عن القيل

والقال ، ولكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألـــوف والمستحسنات ٠ » ويعتقد ابو سعيد الخراز أيضا بأن الصوفي الحقيقي هو الذي يتفق في باطنه مع ظاهره ، وفي ذلك يقول : « كل باطن يخالفه ظاهر فهو باطل » ٠ ويعتقد الجنيد أيضا بأن الصوفي الحقيقي هو من لا يجافي أحاديث الرسول ، فيقول : « ان علمنا هذا مشتبك بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم » ٠ ويقول ذو النون المصري : « الصوفي من لا يتعبه طلب ، ولا يزعجه ســلب ٠٠٠ والصوفية هم الذين آثروا الله تعالى على كل شيء فآثرهم الله على كل شيء » وقال سهل بن عبدالله : « الصوفي من صفا من الكدر ، وامتلأ من الفكر ، وانقطع الى الله من البشر ، واستوى عنده الذهب والمدر ٠ » ويقول الجنيد أيضا : « الصوفي كالأرض ، يطرح عليها كل قبيح ، ولا يخرج منها الاكل مليح ٠٠ هو كالأرض يطؤها البر والفاجر ، وكالسحاب يظل كل شيء ، وكالقطر يسقي كل شيء ٠ » ٠ ويقول السهروردي : « الصوفي هو الـذي يكون دائم التصفية ، لا يزال يصفي الأوقات عن شوب الأكــدار بتصفية القلب عن شوب النفس ، يعينه على كــل هذه التصفية دوام افتقاره الى مولاه ٠ » ٠

ولكن كيف يصبح الانسان صوفيا ؟ يكون ذلك بالتزام مبادىء التصوف الخمسة آنفة الذكر دونما شك ٠ فما هي طبيعة هذه المبادىء ؟ فالفقــر والزهد ، لها جذور طاعنة في اسلوب حياة بعض الصحابة والتابعين في صدر الاسلام ، وهو ما ليس لنا المجال في التوسع به هنا بحال ، لكن تأثر زهاد المسلمين في القرن الثاني الهجري ببعض النزعات الزهدية الخارجية المتطرفة، ثم بالأفلوطينية الحديثة ، خلق جوا من الزهد المتطرف بين ظهراني العالم الأسلامي ، فبدأ هؤلاء الذين تربطهم روابط هذا التطرف فيما بينهم يتكتلون في جماعات تعيش في منازل خاصة ، وصوامع منعزلة ، بعيدا عن جلبة الدنيا وضجيجها وفق مثلهم النفسية العليا ، ويشتركون معا في اداء الشعائر التي تفرضها هذه المثل ٠ وقد بدأ ذلك كما يقول « أكناس كولتسيهر » ، حوالي عام ١٥٠هـ/ ٧٧٠م ٠

والفقر في عرف الصوفية ، هو ان تتجرد من كل شيء اطلاقا ســوى ما يستر بدنك ، وان لا تدخر لغدك أي شيء مهما كان تافها وطفيفا ٠ وقد سئل « الشبلي » عن حقيقة الفقر فقال : « هو أن لا يستغنى بشيء دون الحق ٠ » ٠ وقال أبو الحسين النوري : « صفر الفقير ، هي السكون عند العدم ، والبذل والأيثار عند الوجود ٠ » ٠ اما الزهد ، فقد كان « معروف الكرخي » أحسن من عبر عنه من مشايخ الصوفية اذ أشار اليه في معرض تعريفه للتصوف فقال بأنه « اليأس مما في أيدي الخلائق ٠ » ٠ فالفقــر والزهد في مذهب الصوفية ، هو التجرد عن ضروريات الحياة كليا ، ونبذ طيباتها ومباهجها ، أي أن كل من يندمج في زمرتهم فهو فقير ٠ وفضلا عن ذلك ، فانهم لا يكتفون بعدم المبالاة بآلام الجوع وكافة صنوف الحرمـــان

الجسدي ، بل انهم لا يكترثون بكل ما يتعلق بالجسد ، فما ينتابه من عوارض وأسقام لا تحملهم على العمل لعلاجها والبرء منها بالطب والتداوي ، كما لا يبالون بما يصدره عليهم الناس من أحكام ، وما يرون فيهم من آراء ٠

ولتعميق جذور حب الفقر والزهد في نفوسهم ، فان هؤلاء الصوفية يمضون اكثر اوقاتهم في « الذكر » كوسيلة لتصفية نفوسهم من زخرف الدنيا وطيباتها ٠ والاكثار من « الأذكار » ، كما يرى الكثير من مشايخ الصوفية ، ذو أصل مكين في كتاب الله العزيز حيث جاء في سورة الأحزاب قوله تعالى : « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا » لكن تأثيرا الافلاطونية الحديثة وغيرها ، بالأضافة الى التطرف في الزهد ، قد جعل لهذه الأذكار مرتبة « الفرائض » الحتمية التي تتضاءل الى جانبها الفرائض الدينية الرسمية الأخرى ، بحيث تصبح هذه واجبا ثانويا سيان اداؤه أو اغفاله ٠ ولقد بقيت هذه « الأذكار » منذ القديم حتى اليوم ، الهيكل الأساسي في بناء الطرق الصوفية ٠

لكنه اذا كان الفقر والزهد من أركان المذهب الصوفي فمن أين يعيش هؤلاء السالكون في الصوفية ؟ ان الجواب على هذا يتمثل في ركن الصوفية الثالث الذي هو « التوكل » ٠

و « التوكل » في عرف الصوفي هو « الثقة بالله » ٠ ويرى كبار رجال الصوفية الأعلام أيضا بأن للتوكل أيضا ، أساسا في الأحاديث النبوية الشريفة ، وهم بذلك يشيرون الى حديث الرسول الكريم القائل : « لو توكلتم على الله حق توكله ، لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصا وتروح بطانا ، ولزالت بدعائكم الجبال » ٠ وهذه الثقة العميقة بالله ، والمشبوبة بحب الله الخالص لوجهه تعالى ، قد دفعت بهم الى أقصى درجات الطمأنينة النفسية القانعة ٠ انهم لا يبالون بشيء ، ويهملون الدنيا اهمالا مطلقا ، وينبذون كل تصرف ذاتي يحملهم على الاهتمام بمصالحهم الخاصة ، بل ويتركون أنفسهم لعناية الله وقضائه ، ويجعلونها بين يديه لا ارادة لها ولا حركة ٠ انهم يرون في الكد والسعي لكسب القوت فقدانا ل « التوكل » ونقصا في الثقة بالله ، فهم يلجأون لله مباشرة في قضاء حوائجهم دون الاستعانة بوسيط ٠ ويقول الغزالي ، أنهم يرون أن من الفضائل التي يمتازون بها انهم لا يذكرون الغد في عداد أيامهم » فهم لا يكترثون للمستقبل بالمرة ٠ انهم يرون بأن الذي يضع ثقته في الله انما هو ابن الوقت ٠ ويروي الشيخ عبدالقادر الكيلاني انهم يرون ان المرء « اذا كان له تدبير في المستقبل ، وتطلع لغير ما هو فيه من الوقت ، وأمل فيما يستأنفه ، لا يجيء منه شيء ٠ » ٠ كذلك فانهم يرون « ان من توكل على الله لا يبالي بمدح الناس أو ذمهم ٠ » ٠

والتوكل اذا كان المتوكل متزوجا وله عيال ، يمتد الى العائلة والاطفال أيضا ٠ ففي مثل هذه الحالة يكون « المتوكل قد توكل على الله ووضع ثقته

فيه بما يتعلق بشؤون عياله ورزقهم أيضا » • وفي ذلك يقول الغزالي : « انه لا فرق بين توكل المعيل وبين عياله ، فانه ان ساعده العيال على الصبر على الجوع مرة ، وعلى الاعتداد بالموت والصبر على الجوع رزقا وغنيمة ، فله أن يتوكل بحقهم • فان كان لا يطيق ذلك ، ويضطرب عليه قلبه ، وتتشوش عليه عباداته ، لم يجز له التوكل » •

وتأتي « رياضة النفس » ومجاهدتها واذلالها سوية في منهاج حياة الصوفي السلوكية مع التوكل • انهم يروضونها بالجوع والعطش وحر الهاجرة وبرد الشتاء • بل وان هنالك منهم من يتعمد اثارة سخرية الناس حوله امعانا منهم في اذلال النفس البشرية كي لايبقى لها بعد تلك السخرية والاهانة التي تتلقاها من الناس والمجتمع ، من مطمع أو رجاء في شيء من مباهج هذه الدنيا وزخرفها • ومن هؤلاء الصوفية ، الفرقة المعروفة ب « الملامتية » الذين يهتمون كثيرا بأثارة سخرية الناس وكل ما يجر عليهم المذمة والقول القبيح ، فهم لا يكترثون اطلاقا بمظاهر الحياة الخارجية المحترمة ، يحاولون بذلك التمسك بأحد مبادىء سلوكهم الذي يدعو الى « استهانة الأحتقار » • انهم يعتقدون بأن في استمرار الناس على احتقارهم ، ترويضا للنفس واذلالها بحيث تصل الى الدرجة التي لا تشعر عندها بمعنى للمبالاة بشيء •

ويروي الغزالي لنا في « احياء علوم الدين » صورا من اذلال النفس ورياضتها كطريقة للتعبد والوصول • من ذلك انه روى بأن أبا يزيد البسطامي قد رفض التحدث عن « أشد مجاهداته لنفسه في الله » ، عندما سئل عنها • لكنه تحدث عن مجاهداته « البسيطة » لنفسه في بدء تصوفه فقال : « دعوت نفسي الى الله يوما فجمحت علي ، فعزمت عليها أن لا أشرب الماء سنة ، ولا أذوق النوم سنة ، فوفت لي بذلك • » • كذلك يروي الغزالي بأن يحيي بن معاذ قد بقي يراقب أبا يزيد البسطامي أيضا ، من بعد صلاة العشاء الى طلوع الفجر ، وكان البسطامي قد أمضى الليل « مستوفزا على صدور قدميه ، رافعا أخمصه مع عقبيه عن الأرض ، ضاربا بذقنه على صدره ، شاخصا بعينيه لا يطرف » • كل ذلك رياضة للنفس من أجل الوصول •

وروى الغزالي أيضا في « احيائه » ، بأن أحد أقارب أبي يزيد من ذوي المكانة الاجتماعية المرموقة قد طلب من أبي يزيد أن يدله على الطريق الصحيح ليصبح في عداد الصوفية المقربين . فكان أن أشار عليه البسطامي بأن يزيل الحجاب الذي بينه وبين الله قبل كل شيء . وأفهمه بأن هذا الحجاب انما هو « النفس » وان ازالتها لا يمكن أن تتم الا بترويضها واذلالها • ولاجل اذلال هذه النفس قال له أبو يزيد : « اذهب الساعة الى المزين ، فاحلق رأسك ولحيتك ، وانزع هذا اللباس واتزر بعباءة ، وعلق في عنقك مخلاة مملوءة جوزا ، واجمع الصبيان حولك ، وقل لهم كل من صفعني صفعة ،

أعطيته جوزة ، وادخل السوق ، وطف الأسواق كلها عند الشهود ، وعند من يعرفك وأنت على ذلك • » •

وفي اذلال النفس أيضا ، يقول جلال الدين الرومي : « اترك عشيرتك وجماعتك وكن موضع احتقار الناس ، واطرح جانبا ثوب مجدك ، ولا تأبه لعلوصيتك ، ودع الغير يتجنبك وينفر منك ويهينك • » •

ومن الأمور التي تلازم رياضة النفس واذلالها ، « الخلوة » • والخلوة هي الخطوة الاخيرة في التطلع الى ذات الحقيقة المطلقة المتمثلة بالكائن الأعلى سبحانه ، أو بالأحرى هي الخطوة الأخيرة في طريق السالكين للحصول على ادراك معنى « عين اليقين » • فالانسان لا يتيسر له أن يسمو الى الأدراك المباشر لـ « عين اليقين » دون أن يركز فيوضاته الباطنية ، ومواهبه اللدنية ، في حقيقة الذات الآلهية المتفردة بالوجود ، وعند هذه المرحلة ينعدم اعتماد السالك على السنن والتعاليم الدينية ، اذ نجد العلوم الآلهية العالية المراتب، كما يؤكد الصوفية ، تشرق على نفس المتأمل دون أدنى وساطة ، وذلك هو ما يحدث عند الاعتكاف الطويل والخلوة •

، واذن ، فتركيز الصوفي فيوضاته الباطنية ومواهبه اللدنية ، في حقيقة الذات الالهية هو الذي يسمو به الى الأدراك المباشر لـ « عين اليقين » لا دراسة العلوم والمصنفات الشرعية التي وضعها غير المتصوفة • بل وحتى المواظبة على تلاوة القرآن الكريم لا توصل ، في اعتقاد بعض الصوفية ، الى الفتوح التي تظهر للأولياء ! وفي ذلك يقول الغزالي :

« حتى أني ، في الوقت الذي صدقت فيه رغبتي لسلوك هذا الطريق، شاورت متبوعا مقدما من الصوفية في المواظبة على تلاوة القرآن ، فمنعني وقال : السبيل أن تقطع علائقك من الدنيا بالكلية بحيث لا يلتفت قلبك الى أهل وولد ، ومال ووطن ، وعلم وولاية ، بل تصير الى حالة يستوي عندك وجودها وعدمها • ثم « تخلو » بنفسك في زاوية ، تقتصر من العبادة على الفرائض والرواتب ، وتجلس فارغ القلب ، مجموع الهم ، مقبلا بذكرك على الله تعالى ••• ولا اختيار بعده لك الا في الاستدامة لدفع الوساوس الصارفة ، ثم ينقطع اختيارك ، فلا يبقى لك الا الانتظار لما يظهر من فتوح ظهر مثله للأولياء ، وهو بعض ما يظهر للأنبياء : قد يكون أمرا كالبرق الخاطف ، لا يثبت ثم يعود ، وقد يتأخر • فان عاد فقد يثبت ويكون مختطفا • وان يثبت امتد ثباته ، وقد لا يطول ، وقد يتظاهر أمثاله على التلاحق ، وقد لا يقتصر على فن واحد • ومنازل أولياء الله فيه لا تحصى ، لتفاوت خلقهم واخلاقهم • » •

واختلاف الصيغ الدينية في رأي رجال التصوف ، وكذلك اختلاف الاحكام الشرعية ، يفقد كل معنى وقيمة في نفس ذلك الذي يسعى للفناء في الذات الالهية • فكل شيء من هذه الصيغ والأحكام في نظر الصوفي ، انما هو حجاب يخفي الجوهر • ولا يستطيع أن ينزع هذ الحجاب الا من

يدرك كنه الحقيقة حينما يصل الى العلم بالذات الأزلية الحقة ٠

والشريعة الاسلامية نفسها ، يمكن أن تحتفظ ، في نظر الصوفية ، بقيمتها كوسيلة من وسائل الزهد ٠ لكن هناك من المتصوفين المتطرفين من يذهب في تصوفه الى انكار العقائد الكلامية وما تقول به من ضرورة العلم بالله عن طريق النظر الفلسفي ٠ والعلم الصحيح عند هؤلاء الصوفية ، ليس تفقها ٠ لان العلم الصحيح كما يعتقدون ، هو غير هذا الذي يستمد من الكتب عن طريق الدرس ٠٠ وفي ذلك يقول جلال الدين الرومي : « فلتدرك بقلبك علم النبي ، بلا كتاب ولا معلم » ٠ ان مثل هؤلاء الصوفية يرون أنفسهم في دهشة وحيرة عند وجودهم في مجلس العلماء وطلاب الحديث ، ويقولون عن هؤلاء : « انهم يشوشون علينا أوقاتنا » ٠

يقول محي الدين بن عربي : « ان من يؤمن بالنيا بايمانه على البراهين والاستدلالات لا يمكن أن يوثق بايمانه ، لان هذا الايمان مستمد من الفكر والنظر ، ولهذا فهو ايمان يتأثر بالاعتراضات » ٠ وكان بن عربي قد وجه الى العالم الفقيه فخرالدين الرازي رسالة بين له فيها بأن علمه — علم الرازي — ليس كاملا ، لأن العلم الكامل لا يكتسب الا عن طريق الله مباشرة ٠ كذلك كان ابو يزيد البسطامي يخاطب العلماء قائلا : « أخذتم علمكم عن علماء الرسوم ميتا عن ميت ، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت » ٠

فالطريقة الصوفية لا تدفع بالمرء الى دقائق المجادلات ، او تحمله على اجتياز مسالكها الملتوية المسببة للدوار ، كما يرون ٠ أو تدفعه الى المسير في أخاديد الاستدلالات وخوانق القياسات ٠ فاليقين عند الصوفية ، لاينال باستنباطات المتكلمين البارعة ، وانما باغتراف المعرفة من أعماق القلب ٠ وان الوصول الى هذه المعرفة يتم عن طريق واحد ، هو التأمل الباطني ٠ فالصوفية كما يقول « القشيري » ، هم من أهل الوصال ، والناس أهل الاستدلال ٠

فاذا استبعد المرء كل هذه العلوم البعيدة عن القلب والتأمل الباطني ، وتجرد من كافة الصفات التي يوجدها ما يثيره العالم الخارجي في نفسه من انفعالات ، ثم محق كل أثر لارادته وعاطفته ، فانه يكون والحالة هذه قد دخل مرحلة الحالة النفسية التي يسميها المتصوفة بـ « الجمع » ، وبذلك يدخل مرحلة السكر الروحي حيث يكون قد ثمل من شراب جمال الذات الالهية القدسي المسكر الذي يسميه الصوفية « شراب المحبة » ٠ والمحبة كما يقول الغزالي ، هي « محو الارادات واحتراق جميع الصفات والحاجات » لدى الصوفي ٠ ويجتهد المتصوفة في الوصول الى النشوة التي تمثل انجذابهم لله وسكرهم بمحبته ، عن طريق التأمل واقامة « الذكر » وما يصاحبه من حركات ٠

على ان الغاية التي يرمي اليها الصوفية من وراء السكر بشراب المحبة تبدو على جانب كبير من الخطورة • ذلك ان هذا السكر الروحي ، هو الـذي يؤدي الى فناء معنى الوجود الشخصي في حقيقة الكائن الالهي الشاملة لكل شيء • فحدود الشخصية عند المتصوفة ، هو الحجاب الذي يخفي الله عن الانسان • وقد ورد في « سر الأسرار » لعبد القادر الكيلاني ، شعار يتمسك به الصوفية مما يتعلق بهذه الشخصية الحاجبة ، وهو القول الموجه للانسان ، والقائل : « وجودك ذنب لا يقاس به ذنب » ـ وهي عبارة تعني ضرورة التجاء المرء الى التأمل الباطني ، واحتمال آلام التجرد من الارادة وزخرف الحياة ، للحصول على النشوة والسكر الروحي الذي يلاشي شخصيته المكونة مـن « الأنا » وثنائيتها أمام حقيقة الكائن الأعظم • وفي هذه المرحلة من الحيـاة الصوفية ـ مرحلة السكر بشراب المحبة ـ يبـدو مذهب افلوطين في الفيض ونظريته في وحدة الوجود بارزة للعيان •

فالسكر بشراب الحب الالهي يتلوه اشراق وبركة صادران من جمـال الذات الالهية • وعندما ينغمر الصوفي بروحه في هذا الاشراق وهذه البركة ، يتخلص من حدود كيانه المادي لتفنى شخصيته في بحور فيض الجمال الصادر عن الواحد الاحد المتفرد بحقيقة كل الوجود. يقول جلال الدين الرومي في رباعياته

« لم تكن روحانا في الأصل سوى روح واحدة • كـذا كان ظهوري وظهورك • فمن الخطل الكلام عني وعنك ، فقد بطل فيما بيننا كلمة أنـا وأنت • » • ويقول جلال الدين أيضا :

« لست أنا ولست أنت ، كما انك لست أنا ، فاني أنا وأنت في وقت واحد ، كما أنك أنت وأنا معا • »

وينعدم الفوق والتحت واليمين والشمال ، بل وينعدم المكان والزمان أيضا عند هؤلاء السكارى الواصلين : « فمكاني بلا مكان ، وأثري بلا أثر » ـ هكذا يقول جلال الدين •

وقد يبدو في هذا الكلام شيء من الاعتدال اذا قيس بمـا يسمى ب « الشطح » الصوفي • والشطح هو كلام الصوفي الـذي يفهم من ظاهـره « الاتحاد » أو « الحلول » أو الارتفاع الى منزلة الكائن الأعلى سبحانه ، أو منزلة القرآن •

فمن الشطحات المعروفة عن ابي يزيد البسطامي مثلا ، انه كان يردد خلال ساعات سكره الروحي العميق عند فناء شخصيته قوله : « سبحاني ، ما أعظم شأني » • وان أبا منصور الحلاج كان يقول في حالات مثل هـذه : « أنا الحق » ، و « ما في الجبة الا الله » •

وكان محي الدين بن عربي قد قال في بعض نظمه : « انا القرآن والسبع المثاني • » • أما تلميذه التلمساني ، فقد نسب اليه القول : « القرآن كلـه شرك ، وانما التوحيد في كلامنا » ـ يعني كلام المتصوفين •

وكان أمثال هذا الكلام ، وهذا الشطح ، مدعاة غضب علماء السنة على رجال التصوف الذين كان ظاهر أقوالهم يشير الى أنهم أصبحوا خطرا عـلى

الدولة وكيانها الرسمي المتمثل في الدين . لذلك كانت تهم الكفر والزندقة تكال اليهم في كثير من الأحيان ، وقد قتل بعض المتصوفين أمثال الحلاج والشلمغاني بهذه التهم . ولقد دافع الجنيد دفاعا حارا عن البسطامي والحلاج من بعد ، ونفى عنهم تهمة الكفر والزندقة والاتحاد والحلول وقال « حاشا أن نعتقد في أبي يزيد انه يقول ذلك الا على معنى الحكاية عن الله تعالى ، وهكذا ينبغي أن يعتقد في قول الحلاج . » . لكن الجنيد يكشف لنا مدى بغض السنة للصوفية في أيامه اذ يقول : « لا يصل امرؤ الى مرتبة الحقيقة ، ما لم يعامله ألف صديق له كأنه زنديق » .

وتتلخص خصومة رجال الشرع والسنة للصوفية اعتبارا من أيام البسطامي فما دون ، في أن هؤلاء كانوا يرون في التصوف ديانة خاصة غريبة عن الاسلام ، وانها مستوردة من أصول أجنبية . فعلماء الشرع والكلام كانوا على اطلاع وبينة من فلسفة افلوطين ونظريته القائلة ان باستطاعة الانسان أن يدرك الوجود العقلي عن طريق التأمل الباطني وليس عن طريق المنطق والقياس . كذلك فانهم كانوا مطلعين على فكرته في وحدة الوجود ، وعلى فكرة « الجوهر الذاتي » الهندية التي كان يؤمن بها في سماهم الجاحظ ب « رهبان الزنادقة » من الهنود وغيرهم . وكان الجاحظ كما نعلم ، من معاصري ابي يزيد البسطامي . فحالة « الفناء » أو « المحو » التي يقول المتصوفة « بأن المرء لا يسمع ، أو يرى خلالها ، وقد بلغ درجة اليقين ، غير الله ، وانك في حال مثل هذه ، اذا عرفت نفسك ، فأنت هو وانت متحد به ، وليس سواه بموجود » ، كان يعتبرها علماء السنة زندقة مستوردة وانها شرك بالله تعالى .

ومن وجه الاختلاف والخصومة أيضا هو رفض المتصوفة الأخذ بالعلوم العقلية وقولهم بضرورة الحصول على العلم مباشرة من الله ، اذ يرى علماء الشريعة أن ذلك كفر وغرور حيث يضع الواحد منهم نفسه موضع الملائكة وفي ذلك يقول تقي الدين بن تيمية ، أكبر خصوم الصوفية ، ان الصوفي يدعي « أنه يأخذ من حيث يأخذ الملك الذي يأتي الرسول .. » .

وفكرة الاتحاد ووحدة الوجود الصوفية ، والعلم بوحدانية الله قد أدت ببعض الصوفية الى الاعتقاد بأنهم « ليسوا مسيحيين ، ولا يهودا ، ولا مسلمين » ، وقد ترتب على هذا الاعتقاد أن ظهرت بعض الأفكار الصوفية التي تقول بضرورة الأتحاد والأخاء بين بني البشر ، وتشير الى ان الشرائع والأديان تسعى لأثارة التفرقة فيما بينهم ، ويذكر ابن تيمية في رسائله ، ان بعض المتصوفة يكتمون حقدا صحيحا على الأنبياء ، وخاصة محمد (ص) ، لأنه « أظهر الفرق ودعا اليه وعاقب من لم يقل به .. » . وبغض النظر عن أقوال ابن تيمية ، فان قصيدة محي‌الدين بن عربي النونية ، كانت تمثل صورة للتآخي بين الأديان : لقد صار قلبي قابلا كل صورة .. الخ .

ومن وجوه الاختلاف أيضا ، هو اعتقاد المتصوفة بأن المذهب الصوفي انما هو التمسك بالاسلام الصحيح للقرآن تأويلا مجازيا خاصا بهم يختلف

عن تفسير رجال الشرع ، وهم يتفقون في ذلك مع الفكرة القائلة في أن النبي (ص) قد أفضى لوصيه الامام علي كرم الله وجهه ، بالمعنى الباطني لآيات كتاب الله العزيز • فالامام علي عندهم اذن ، هو امام التصوف الاسلامي ،في حين ان علماء السنة يرفضون الأخذ بفكرة « المعنى الباطني » ويعتقدون بأن النبي (ص) لم يخف شيئا عن سائر ابناء الامة ، كما لم يفض لأحد بعلم باطني • ولقد ظهرت تفاسير صوفية مختلفة لكتاب الله الكريم على ضوء فكرة « المعنى الباطني » كان أكبرها شهرة وانتشارا تفسير محي‌الدين بن عربي الذي جاء في وقت متأخر على الغزالي ، كما برزت هناك بين الفرق الصوفية، الفرقة المعروفة بـ « البكتاشية » التي تقدس الأمام علي الى درجة عظيمة على أساس من هذه الفكرة •

لكن فضل التصوف على العالم الأسلامي قد جاء في الأخير وتحقق على يد الغزالي الذي أخرج التصوف نفسه من العزلة التي أحاط نفسه بها ، وأعاده الى الحياة الدينية المألوفة لدى المسلمين • فلقد حول الغزالي التصوف عن وجهته المتطرفة النازعة الى الهدم ، واتجه به الى ناحية الاصلاح مستخدما الأفكار الصوفية كوسائل لاعادة الحيوية الى التعاليم الدينية الهامة التي أضعفها الجدل الطويل بين الفقهاء والعلماء بسبب أشياء ثانوية وطفيفة لا تتعلق بجوهر الدين في شيء •

لقد هاجم الغزالي بعد تصوفه ، البحوث المعقدة ، والخصومات التي لا داعي لها في الاختلافات التعبدية بين المذاهب ، واعتبر ذلك من الامور التي تفسد الروح الدينية الحقة ، ودعا الى وجوب تنمية الحس الديني في نفس المسلم بتطهير القلوب ، والاعراض عن اساليب المشاحنات الجدلية والكلامية مما يستخدمه أهل العقائد والفقه • لقد قال بأن التقرب من الله يجري عن طريق القلب الذي هو سر من أسرار الله • وان الحياة الدينية التي عاشها المسلمون أيام الاسلام الأولى كانت معتمدة في كيانها على القلوب الطاهرة الخاشعة بعيدا عن دوامة الفقه والكلام الذى أورث العالم الاسلامي آلام الأختلاف على مسائل تافهة • عليه فان وحدة المسلمين يجب أن تعود متماسكة قوية كما كانت عليه أيام الرسول ، وانه يجب عدم تكفير أي مسلم من أهل الصلاة والقبلة بسبب الأختلاف في الرأي حول أمور تعبدية ثانوية • ولقد أضفى الغزالي على التصوف طابعه البهي الذي يمكن أن يقال عنه بأنه طابع الدعوة الى التآلف والتسامح بين جميع مذاهب المسلمين • ولقد وضع لهذا الغرض كتابا سماه « فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة » أوضح فيه بأن الأخلاص لله يقتضي المسلمين الأتفاق على الاركان الرئيسية للدين • وان الخلاف حول الأمور الثانوية مما يتعلق بالتفرعات الاعتقادية والتعبدية ، حتى اذا كان في ذلك انكار الخلافة التي يقرها أهل السنة ، وما يترتب على هذا الانكار من الاتجاه نحو الشيعة ، لا يمكن أن يعد أساسا للتكفير • ولقد أوصى الغزالي المسلم بأخيه المسلم خيرا بحكمة بالغة ستبقى كوكبا هاديا في آفاق الدنيا الاسلامية على مر العصور والأزمان اذ قال : « الوصية أن تكف

لسانك عن أهل القبلة ما امكنك ، ما داموا قائلين لا اله الا الله محمد رسول الله غير مناقضين لها ٠ » ٠

وهكذا الغزالي : التقى بالقشيري بعد حوالي نصف قرن من الزمان وجلس معه في محراب فكري واحد ائتلفت فيه قلوب المسلمين الذين فرقتهم عنعنات رجال الفقه والكلام شيعا وأحزابا ٠

وهو بعد أن أمضى عشر سنوات حافلة برياضة النفس والعبادة الخالصة لوجه الله ، اتجه لزيارة بيت الله الحرام ، ثم عاد راجعا الى العراق حيث طلب منه الأمير السلجوقي التوجه الى نيسابور للتدريس في المدرسة النظامية فيها ٠ وبعد أن أمضى مدة ليست بالطويلة في التدريس هناك ، عاد الى بلده الأصلي طوس ، وأسس الى جانب داره فيها مدرسة لمريديه ، وتكية لرجال الصوفية ، ثم استمر يقضي النهار في الدرس ، ويطوي الليل بالأذكار الصوفية المرنة بالنشيد الديني وايقاع الدفوف ، الى أن طوته يد الأجل ذات ليلة أشرفت على نهايتها بعد أن تعطلت الدفوف ، واستسلم الواصلون للنوم بعد طول ذكر وطول وجد وانشاد ٠ وكان ذلك في عام ٥٠٥ للهجرة ، الموافق لعام ١١١١ للميلاد ، اذ كان نصيبه من هذه الحياة العابرة ثلاثا وخمسين سنة ، رجعت نفسه بعدها الى بارئها المتفرد بحقيقة الوجود مطمئنة ، راضية مرضية ، بعد أن أخرجه سبحانه ، برحمته الواسعة ، من ظلمات الشك ، الى حيث البراهين الساطعة وانوار اليقين ٠

من مراجع البحث

الغزالي : احياء علوم الدين
الغزالي : مقاصد الفلاسفة
الغزالي : تهافت الفلاسفة
الغزالي : المنقذ من الضلال
الغزالي : ميزان العمل
السبكي : طبقات الشافعية
العطار : تذكرة الأولياء
الكيلاني : الغنية
الكيلاني : سر الأسرار
السهروردي : عوارف المعارف
ابن تيمية : الرسائل
القشيري : الرسالة القشيرية
جلال الدين الرومي : مثنوي ومعنوي - [في كولتسيهر]
جلال الدين الرومي : الرباعيات [في كولتسيهر]
الجاحظ : الحيوان
عبدالدائم البقري : اعترافات الغزالي
كولتسيهر محاضرات في الاسلام

المظاهر النفسية عند المصدور

الدكتور فيصل دبدوب

يقول الدكتور فرانز الكسندر « ان المريض اصبح الآن موضع اهتمام الطب على أنه انسان كامل بما فيه من هموم ومخاوف وآمال ويأس ، لا على انه مجموعة من الاعضاء » ، وقد صدق الدكتور ف ، الكسندر فالاطباء المجددون اليوم يحرصون على معرفة طبيعة المريض ولا يقتصرون على معرفة طبيعة المرض .

وقد كشفت الابحاث الجديدة أن معرفة هموم المريض وانواع قلقه لا تقل قيمة عن التحليل الكيميائي او الفحوص بالاشعة في العلاج ، لذلك اخذت معظم كليات الغرب تفرض على طلبتها دروسا واسعة في بحث اصول المرض وعلاقته بالحالة النفسية والعقلية . وقد صاغوا لهذا الاسلوب في الطب اسما يونانيا مركبا من لفظين فقالوا (الطب السيكوسوماتي) أي (الطب العقلي الجسمي) .

لا شك بأن صحة الجسم لا تتم الا بالتوازن ، وان مرضه يحدث من اختلال التوازن ، فليست الصحة اذن الا ان كل عضو متوازن في ذاته ومتوازن مع غيره من الاعضاء في انتاجه واستهلاكه ومقدار هذا الانتاج وهذا الاستهلاك ، كما لا يكون الجسم صحيحا الا بتوازنه مع غذائه فاذا قل الغذاء كانت المخمصة ومنها فقر الدم والسل ، واذا كثر الغذاء كانت التخمة فتسببت في حدوث امراضها ومن امراض التخمة الداء السكري وحصوات المجاري البولية وتصلب الشرايين وما الى ذلك . ولاعادة هذا التوازن تدخلت النظم الاقتصادية تعاون الطب عن طريق الاشتراكية حيث لا افراط ولا تفريط فالجسم كالمجتمع لا يزال بخير ما توازن في طعامه وقدرته على الاستهلاك اضافة الى توازنه مع الطبيعة والبيئة التي حوله ، فالاساس هو التوازن على ان يتم بين الجسم والعقل والنفس هذه الحلقات الثلاث المتداخلة بعضها ببعض بشكل لا انفصام له . فالخلل الذي يصيب احد اعضاء الجسم يسري أثره على العقل والنفس ، فاذا اردنا معرفة سلامة الجسم يجب ان نفحصه فحصا دقيقا سريريا ومختبريا وشعاعيا وان نفحص القوى العقلية للتأكد من سلامتها وكذلك الحالة النفسية . فقوى الجسم والعقل والنفس لا تنتظم الا اذا انتظمت وتوازنت كل منها على حده وتوازنت

قواها بعضها مع البعض الاخر ايضا ، والمشاهد ان حفظ التوازن هذا لا يتم الا في القليل النادر وبتوفيق من الله عجيب لذا كان أقلنا اختلافا في توازن قواه الثلاث هو اكثرنا توازنا فنطلق عليه « الرجل الكامل » .

ان المصاب بالسل الرئوي مثلا - بناء على ما تقدم - اذا توصلنا الى تشخيص آفته الدرنية بالوسائل الطبية المعروفة فليس هذا كافيا لانقاذه من دائه بل علينا ان نتأكد من سلامة اجهزته الاخرى ، الهضم والدوران وغيرهما ، فالانسان غير الآلة يصيبها العطب او يصيب أحد اجزائها فنستبدله بجديد ذلك لان الانسان جسم وعقل ونفس كما قلنا ، فهو كائن حي معقد التركيب لا يمكن مقارنته بالآلة . فبالاضافة لما نشاهده من تعاون وتساند بين اجهزة البدن المختلفة هناك التعاون التام في الاحوال الطبيعية بين النفس والعقل والجسم ان اختل احدها اثر على الآخر . فان اصيب بالسل احد افراد مجتمعنا اثر مرضه على فكره ونفسه اضافة الى تأثيره على افراد أسرته وعلى المجتمع بأسره وكذلك اذا اختل العقل حدثت ردود فعل في الجسم والنفس معا وهكذا .

لقد لوحظ منذ القديم كثرة اصابة المسلولين بامراض نفسية كالنورستانيا (الخور)(Neurosthenia) والسيكونيوروزس(Psychonenrosis). كما لوحظ بأن الاصابات بالسل بين المصابين بالشيزوفرينيا (الفصام) (Schizophrenia) ليست بالقليلة .

ان دراسة حياة المصاب بالتدرن دراسة طبية اجتماعية نفسية - باعتباره عضوا من اعضاء هذا المجتمع الذي نعيش فيه - من الامور المهمة ذات العلاقة الواسعة بنجاح المداواة لتلاشي الداء واختفائه وعودة الصحة واستردادها . وان هذه الدراسة تضع امام الطبيب مع الفحوص الاخرى النتائج التامة الكاملة التي يتوقف عليها علاج المريض وشفائه .

ان السل من الامراض المدرجة في قائمة الامراض العضوية التي تؤثر على الحالة النفسية ولو ان عوامل المرض الجرثومية معروفة ، فمن المعروف ان المسلول تتجلى فيه من الظواهر النفسية ما لا يشاهد عند المرضى الاخرين الذين اصيبوا بامراض اخرى لا درنية . فنفسية المسلول لها ظواهرها الخاصة وان تفاوتت وتمايزت بين مريض وآخر . فقد لاحظت في مدى سدس قرن من الزمن أمضيته في علاج هذا الداء من الظواهر النفسية ما يستحق الدرس والتدوين منها : ان بعض المرضى يذكرون حين استجوابهم بأن اعراض السل ظهرت عندهم فجأة وبشكل واضح صريح على أثر صدمة نفسية عنيفة ، وانا لا انكر ما يقولون بل أؤيدهم فيما ذهبوا اليه من أن الصدمة النفسية كشفت الغطاء عن آفتهم السلية المستترة. ثم ان الاجهاد الفكري او الجسمي او هما معا وكذلك نقص التغذية والعوز المؤديان الى القلق الدائم والتفكير المستمر لتأمين ضروريات الحياة للمريض ولعائلته ان كان له عائلة . والخوف بأنواعه ، كالخوف من العجز ومن

الشيخوخة والخوف من الفقر والخوف من المرض والخوف من الخوف والخوف من الموت والتشاؤم من المستقبل المجهول ، ان كل ذلك يساعد على يقظة العصيات السلية الهاجعة وتطور السل الكامن .

لا جرم ان الطبيب عندما يخبر مريضه بانه مسلول يصاب المريض بصدمة غالب الاحيان وان هذه الصدمة النفسية تؤثر على سير المرض وعلى فعل المداواة فتزيد من أثر المرض وتضعف أثر الدواء . وهذه الصدمة النفسية ليست في حقيقة الامر الا نتيجة لما يترتب على حدوث هذا المرض من مشاكل اقتصادية واجتماعية . فالمريض بحاجة ماسة الى المال للمعالجة والاعالة ، كي يعالج نفسه ويعيل اهله . اما ان لزم الامر ان يترك بيته ليدخل المصح او المستشفى فحينذاك تظهر المشاكل الاقتصادية والاجتماعية معا بشكل واضح . اما ان كانت مداواة المريض خارج المستشفى او المصح فانه يلمس انذاك ويشعر في وقت واحد بأن المجتمع ينبذه ويتجنبه فينكمش على نفسه ويجتر آلامه ويحقد على المجتمع بأسره وعلى السلطات المسؤولة التي لم تتكفل بعلاجه واعالة اسرته وعلى الاصحاء الذين ينظرون اليه شزرا ويبتعدون عنه ابتعادهم عن الافعى او المجذوم ، فيرى بأنهم ينبذونه فلا يقتربون منه ويهملونه ولا يكافحون علته بجمعيات يؤسسونها لمكافحة السل او بمساعدات فردية ينتشلونه بها من هوة المرض والفاقة . فيود معظمهم في قرارة انفسهم ان لو استطاعوا ان يصيبوا بمرضهم كل سليم وذلك استجابة لعقيدة يؤمنون بصحتها مفادها ان المجتمع بأسره المسؤول الاول عن مرضهم وان المساواة في الداء هي الجزاء الاوفى لمجتمع لا يقر بالمساواة.

ان نفسية المسلول الذي ترعاه السلطات الحكومية والجمعيات الاهلية هو واهله هي غير نفسية المسلول الذي لا ترعاه سلطة او تنتشله جمعية . فالذي ينتشل من براثن الداء وهوة الفاقة هو وأسرته لا يفكر الا بالشفاء ولا يرد في مخيلته فكرة ايذاء الغير الا ما قل وندر ، فلا يحقد على فرد ولا يحمل ضغينة على سلطة او مجتمع بل يتعاون مع طبيبه للقضاء على الداء كي يعود الى الحياة العملية ثانية ويدعو الله آناء الليل واطراف النهار أن يأخذ بيد كل مسلول وان يهدي العلماء الى اكتشاف عقار جديد يخففون به ويلات الانسانية . فاذا شفي من مرضه وعاد الى احضان مجتمعه تعاون مع الافراد والجماعات لتخليص اخوانه من بين فكي هذا الداء الوبيل .

والآخر الذي لا يرحمه فرد ولا تسعفه جمعية ولا ترعاه هو وعائلته سلطة ، يلعن الارض والسماء وينفث سموم مكروبه في كل مكان فكأنه يعمل بما قال شمشوم الجبار « علي وعلى اعدائي يا رب » يبصق هنا ويبصق هناك وفي كل بصقة ملايين بل مليارات العصيات السلية ويحاول ان يلوث بالمكروب كل ما تقع عليه يده وحيثما انتشر الرذاذ الخارج من فمه . فهو اناني لا يفكر الا بنفسه وحتى عائلته ، ربما لا تخطر له على بال — من كثرة ما فكر في امرها وليس من منقذ ولا مجيب — ، عصبي المزاج ، سريع

الانفعال ، يفور لاتفه الاسباب كالبركان فيصب جام غضبه على طبيبه او الممرضة التي تعتني به او على زوجته واولاده واقرب الناس اليه • وتشتد هذه الظواهر وتتكرر كلما اشتد المرض وتكررت هجماته وقرب المريض من اجله المحتوم رويدا رويدا •

في السل ايها القاريء العزيز تضطرم القوى الجنسية عند الشبان والكهول وتفور فكم من مسلول تسور جدران المستشفى وهرب ليقضي لبانته ويروي شهوته فيعود نادما منهوك القوى وقد يعترف وربما لا يعترف بما اقترف من خطأ بحق نفسه وحق المجتمع – باعتباره احد اعضاء هذا المجتمع – ويعود سير آفته الدرنية سيرته الاولى هذا وقد اعترف لي بعض المرضى بانهم انهمكوا في اتيان العادة السرية بصورة مستمرة قبل الاصابة وبعدها ولا اغالي اذا قلت بأنه كانت العادة السرية عند هوءلاء من بين الاسباب المهمة الموءهلة لحدوث السل ، حيث ان الاستمناء باليد اذا تكرر باستمرار ادى الى فقر الدم والانهاك العصبي النفساني وفقر الدم يجهز فراش السل غالب الاحيان هذا واذا تسامى المصاب بالتدرن فأقلع عن تعاطي العادة السرية او المقارفة الجنسية ولم يحم حولها قطعا وكانت لديه المواهب الموءهلة للنبوغ نبغ • وفي تاريخ عظماء التاريخ العدد الوافي والسجل الحافل باخبار من نبغ من المسلولين واليك اسماء بعضهم على سبيل المثال لا على سبيل الحصر : شساتوبريان ، موزارت ، غوتيه ، فولتير ، ملتن وبلزاك وغيرهم •

وختاما اقول بأن المسلول على الاغلب يتسم برقة الشعور ورهافة الحس مع ميل الى الكآبة والنزق ، فهو سريع الغضب سريع الرضى ، وسريع الضحك سريع البكاء ، يحب الانفراد آنا ويحشر نفسه في المجتمعات في آن آخر • والمسلول المزمن يميل الى الشغب غالبا فلا عجب اذا علمت بأن منهم من تنقل في جميع مستشفيات السل في العراق لا اختيارا بل اضطرارا بسبب الشغب •

ويشاهد من بين المرضى بالتدرن من يتسم بالماليخوليا (Melancholia) فترى افكاره سوداوية ونظرته للحياة تشاوءمية وربما مر على باله في بعض الاحيان التفكير بالانتحار وقد سمعنا وقرأنا في الصحف والمجلات ذكر من ماتوا من المسلولين بعد ان انتحروا بأساليب انتحارية مختلفة ان هنا في الشرق أم هناك في الغرب •

فيا خدام الانسانية من باحثين اجتماعيين واطباء ، ارحموا المسلول واعطفوا عليه فهو من اكثر الناس حاجة للرحمة والعطف خصوصا بعد ان كشفت لكم هذه الاضواء بعض الجوانب الغامضة من نفسيته تلك النفسية الخاصة بمن ابتلاه الله بهذا الداء فالمسلول نسيج وحده وعالم خاص قائم بذاته •

المطولات أو

شعر الملاحم

- ٤ -

جمال الدين الآلوسي

مطولتا – دنيا – للشاعر أيوب عباس :

قال ابن رشيق صاحب العمدة « كانت القبيلة اذا نبغ فيها الشاعر أتت القبائل فهنأتها وصنعت الاطعمة واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعون في الاعراس ويتباشر الرجال والولدان لانه حماية لاعراضهم وذب عن احسابهم وتخليد لمآثرهم واشادة بذكرهم · يشيد بالخامل فيرفعه ويثلب الرفيع فيضعفه » والشاعر أيوب عباس شاعر أوتي وسائل الشعر ، ولو نجم شعره في قبيلة هذيل أو آل بكر أو آل سلمى لاحتفلت به القبيلة ولجاءت اليه القبائل مهنئة ولاجتمع النساء يلعبن بالمزاهر اشادة بشاعريته ، ولو ظهر ديوانه في بلد عربي غير أرضنا لقرضته الصحافة ولاشاد به الكتاب والنقاد ولنوهت به دور النشر والاعلام ولكنه (طرأ) على حد قوله وفاجأ الناس في بغداد بديوانه الذي احتوى مطولتين هما ملحمتان لحياته التي أضناها المرض وشفها السقام وأشقاها الحنين وبرح بها الشوق ، وديوانه سداه ولحمته مطولتان الاولى يائية من البحر الطويل وأخرى همزية من بحر الخفيف · وأبيات القصيدتين (٢٢١٥) بيتا عدا بعض المقطعات ويلتزم الوزن والقافية في شعره الذي يفيض تياره من ينبوع لا ينضب ويزخر بأحاسيس تشع بالحرارة وتتسم باليقظة الوجدانية ، وبتفاعل مع أحداث حياته وما عناه في طور من أطوار عمره ويرسم صورا حية تجلو واقعه وتصور حياته البائسة عبر عنها ببراعة واجادة ، أما الالواح التي عرضها في مطولته الاولى فانها تزخر بالمشاعر الجياشة الحزينة وقد كانت في الواقع متنفسا للشاعر الذي أضنته الوحدة وصوحت أوراقه الاسقام ،

يتنغم بها ترانيم عذبة يداعب في تضاعيفها أمانيه ويبكي آماله يصف حاله وهو على فراش مرض وبيل في المصح ، اليأس ينتابه والامال تخدعه وقد استحالت نفسه شمعة يحرقها الضنى حتى حولت جسمه هيكلا عظميا على حد قوله :

فاني بين اليأس طورا ينوشني
وجهدي والآمال تخدع ذاتيا
أبعد اقترابي من أماني والهوى
وقطعي أهوال الدجى والمواميا
أولي عن الدرب الذي قد قطعته
وأقعي جوادي بعد شوطي فاتيا
خرجت وأوراق الخريف شبيهة
بوجهي وشخصي مثل طيف خياليا
ونفسي استحالت شمعة باحتراقها
وللهيكل العظمي صارت عظاميا
وغادرت لذاتي ولازمت محبسي
وقطعت اوتاري وحطمت كاسيا
أراني بعقلي أسعد الناس كلهم
وبالعقل اشقى العالمين أرانيا
فهل منقذي من حيرتي اليوم منقذ
لا — لا كنت — لا كنت ناجيا

وأعرب عن سأمه وحيرته ووحدته ومتاعبه ، تبرم من الليل وتطلع الى الصبح فلما أضحى نادى المساء ، ضجر من الزمن ليله ونهاره وصار بين متاعبه وبين زمانه ساهما تصاعد أنفاسه بالحسرة والزفرة ، واللوعة والأسى يعصر نفسه :

واني وان أصبحت بين متاعبي
وبين زماني ساكن الطبع هاديا
لأدخل في ليل من الصبح سائما
واسرب في صبحي من الليل قاليا
أقول وقد أرخى الظلام سدوله
صباحي جئني أين أنت صباحيا ؟
فان جاء ناديت المساء كأنه
هو الدهر جئني أين أنت مسائيا

ثم تعاوده الآمال وتتفتح نفسه للحياة وما فيها من جمال واشراق زاخر بالبهجة مزدان بالرواء خافق الروح طلق المحيا فيأنس وينغمس مع الطبيعة المزدانة بالورد والأنفاس الفاغية :

صفاء على وجه السماء ورونق
ومنظر حسن يطلع الحسن صافيا
كأني بأزهار البنفسج قطرت
مع النرجس الضاحي فكانت سمائيا
تأملتها حتى استفزت تشوقني
كأني اليها جاذب قد دعانيا
وأحببت لو اني فرزت من الاذى
ومن محبسي أقضي اليها نهاريا
سماء هي المرآة لكن تقصرت
على الافق اذ صار الاطار المحاذيا
كأني بهذا اليوم روح وجنة
من الحسن مطبوعا عليه فؤاديا
وقد أسلمت عيني الى القلب حسنه
ومنه سرى في مهجتي ودمائيا
وأحسسته يستشعر الانس والمنى
ويصقل آرائي ويوحي ارتياحيا
يهذب من ذوقي ويرهف مسمعي
ويجلو عيوني تستشف المجاليا
ويشعرني بالحب والمرح الذي
به سمعت أذني وما أن بداليا
فيا لجمال يرقص القلب مصعدا
الى روحه روحي مزيجا عنائيا

يطغي الشوق فيحاول أن يخرجه من أحلامه ويقطع عليه لذته ونشوته ويروح معللا نفسه لفقدها أمانيها فيخاطبها :

وقلت لنفسي انها اللذة التي
وان اترعت في خمرة الأنس طاسيا
تصير اذا ما نلتها بعد برهة
الى مثل بنيان هوى متداعيا
هباء وما خير الهباء اذا بدا
شعاع بدا او غاب غاب هبائيا
قصيرة عمر لم تعش غير لحظة
حياة فقاعات تعيش ثوانيا
ولكنني ان اسق يومي بائسا
فان غدي سعد يدوم دواميا

فلا خير في سعد قصير موقت
اذا لم يكن سعداً على الدهر باقيا
الا هكذا عللت نفسي وبعده
الى محبسي القيت بالنفس ساليا
بدأت تجاريبي وفي القلب حسرة
يخففها مستقبلي واكتشافيا
على ان عقلي قال لي متهكماً
تكلفني ما لم يكن في اختصاصيا

ويضنيه التفكير ويهديه ان هو كلف نفسه فوق طاقتها فسوف يضيع اتزانها وتضل في متاهات لا نهاية لخفاياها فالعلم محدود لم يتوصل الى ادراك كنه الحياة ولا معرفة حقيقة الفضاء وخير له ان يحيا كما تحيا الطير سعيدة لم تفكر في الكائنات .

واقنعني عقلي واكبرت رأيه
واصبحت استهدي به في ظلاميا
فأبصرت حولي الطير تحيا سعيدة
ولم تفتكر في الكائنات افتكاريا
على طائر القيت عن سر عيشه
سؤالي فأعطاني جواب سؤاليا
فقال هي الدنيا طلاب لجرعة
من الماء تطفي في الغليل احتراقيا
وحب به أرمي الطوى واذوده
وأنثى اغنيها على الغصن شاديا
وما السعد الا ان انام مع الدجى
واستودع الاسحار سر غنائيا

ويسترسل مع عواطفه يرسلها في شعر رائق عذب يسطر خلجات قلبه وهموم نفسه تارة تدغدغها الاماني واخرى تثقلها الاحزان المبرحة والمرض الذي يعانيه معروفة نتائجه مسبقا ، يتساءل ما سر الحياة ، ما غاياتها ، هل سلوكه من كسبه ام هو مسير لا مخير يسير الى غاية لابد أنه مدركها أراد أم أبى .

وسيرت لا خيرت في السير مجبرا
فليس سلوكي في يدي واختياريا
ألبي بنفسي دافعاً لا أطيقه
سواء ابائي عنده ورضائيا
مقاومتي لم تجدني وشفاعتي
وليس اعتدالي نافعاً او حياديا

ومهما يكـن منهـا فأني سـائر
على الدرب لا أخشى مصـير اقتحاميا
ارى لـذتي الـكبرى من الالـم الـذي
صهرت بـه روحي فكـان غذائيـا

نظم افكاره في الحياة وكنهها وحقيقة امرها والجبر والاختيار والالم والسعادة والشقاء والحزن وأعرب عن آرائه في مبدأ الناس واندفاعهم وراء اللـذة الحسية ، اما لذاذاته فتختلف عن لذاذاتهم انهـا عقلية معنوية في موكب المعرفة سر سعادته وفي نعيم الآخرين والتخفيف عن مصائبهم بهجته ونعيمه ، يظل فؤاده باكيا اذا ما رأى طفلا من الجوع باكيا ويحزنه في البرد يشهد باكيا كئيب المحيا حاسر الرأس حافيا .. يناجي قلبه الذي عذبه واجهده وحمله ما لا يطيق ،

ويا قلـب قـد عذبتني وجهـدتني
ايا قلب حسـبي محنتي وعذابيـا
تحملني مـا لا اطيـق احتمـاله
فحسبي بلائي فيـك حسبي بلائيـا

تؤرقنـي يا قلب انْ أنّ صـاحبي
فهـل صـاحبي يهتم بي كاهتماميا
وابكي اذا ابصرت جـاري باكيـا
ولم يبك جـاري مـرة لبكائيا
واطلـب خـير الاقـرباء جميعهـم
فهـل ذكـرتني مـرة اقربائيـا
وارجـو لاصحابي السـعادة والغنى
واسـأل عـن اخبارهم في غيابيـا
فيـا ليت شـعري والصحاب كثيرة
اترجـو سعاداتي الصـحاب رجائيـا
ويا رب وفقنـي لخـدمة اسـرتي
وضاعف لهـم ودي واجـزل عطائيا
أسـر اذا سـروا وأسى اذا أسـوا
وفي عـزهم عـزى وكل هنـائيا

ويمضي في ابتهالات لله ان يوفقه لخدمة اسرته واخوانه وابناء مجتمعه وتتجلى عواطفه في مناجاة امه وحزنه لبلواها وتوجعه لعلتها وحزنه الذي ليس معه صبر حين فاضت روحها .

فقـدنا حنـان الام والحب من لنا
سوى أمنـا تروى القلوب الظواميـا

فيا رحمة الله العلي تتابعي
على روح امي واقرئيها سلاميا

ويصف وحدته ومرضه وما مر به من اعراض نفسية وما مني من خيبة آماله وتجافي اصدقائه في محنته ويبكي شبابه الذابل ويندب امانيه الذاوية ويعجب كيف انه فطن مؤخرا فذكر صحته وراح يتحسسها وقد كان آيسا من تحسنها أو عودتها حتى كاد ينساها .

ومن عجب ان اذكر اليوم صحتي
وقد فارقتني باكي العين رائيا
وكنت بها احيا فلم ما ذكرتها
ولم تجر في فكري ولا في لسانيا
الا انها حاجات نفس كثيرة
تعبي قوى روحي وتحتل ساحيا
اذا ما انقضت حاجات نفس تهافتت
على النفس حاجات فياويل حاجيا
على العيش الا حاجة بعد حاجة
تثير اهتمامي او تطيل انشغاليا
والقت حياتي بعد عشرين حجة
وخمس بأكناف المصح المراسيا
اطعت نظاما في المصحة مكرها
وادمجت استهدي بضوء نظاميا

وتحدث عن حياته في المصح وقسوتها وانها تجري رتيبة لا تبدل فيها ليلا ونهارا صيفا وشتاء ، ولا يسمع من رفاقه غير (عزيز) تعافى بعد تسعة أشهر ومات (حميد) بعد شهرين لاقيا من السقم والآلام ما كان لاقيا واحتضر عود (محمد) وقد كان قبل المصحة ذاويا ، ولا غير سؤال الطبيب عن الصحة والحال سؤاله المعهود والجواب المعهود وانه بخير وعلى الله الاتكال .

حرارة جسمي يا طبيب شديدة
احس انحلالا اشتكي من معاليا
تقلدت اشتهائي للطعام وانني
يدور برأسي ان مشيت دواريا
وتمتزج الالوان اذ يزحف الدجى
ويجعلها لونا من الظل كابيا
وتسرب الاشكال في الظل حالكا
وفي الليل يبدي صمته واللاليا

مساء يريك الموت في كل جانب
وفي كل شيء ينشر الحزن باكيا
ولكنه موت وحزن تجليا
بكل معاني الضحك والبشر ضاحيا
وكل حياة تشعر النفس بالمنى
كأني بها قد جددت من نشاطيا

ويجلس ابان الافول بشرفة يلحظ روعة المساء ويرقب الشمس صفراء تنشر (عصفرا) فتكسو الذراري رونقا زاهيا وتكسو الاعاليا وتسحب اذيال ثوبها وتسقل والاضواء ترقى النجاد والذراريا والظلال تزحف فوقها فتخيل الغيم احمر قانيا وتتناثر الالوان وتتنوع فتبدو تارة ازهر رائقا وابيض مغبرا وابيض صافيا وأزرق كاشفا واخضر مسودا وأحمر زاهيا .

ومن صور قد شكل الغيم فذة
لها مهدت عيني طريق اتصاليا
فكم مثلت في مسرح الافق ماردا
واسراب حملان وذئبا وبازيا
وكم فارس يهوي الى الارض ساقطا
وصقر على العصفور ينقض هاويا
ولكنها في سرعة قد تحولت
فلم يبق شكل مثل ما كان باديا

واما المطولة الثانية فهي قصيدة همزية بلغت (٧٧٠) بيتا وهي ملحمة تختلف عن الملاحم المتعارفة من حروب وابطال ومعارك وقتال وخذلان وانتصار وآلهة وانصاف آلهة ينصرون بطلا ويخذلون آخر ويعلون كفة ويهوون بكفة ، وانما هي تصارع عواطف تفيض من نبع وجدانه وتزخر باقباس الحب وأحاسيس الوجد وتلهب بالشوق لمحبوب لا يرتجى من حبه وصالا ولا جزاء ،

أنت يا من حررت شعري وأحلا   مي وعبدت مهجتي استيراءا
أنت يا من قيدت قلبي وأطلقت خيالي ومقولي والبداءا
أنا في وصفك انبهرت فقصرت ونفسي فيه تذوب خواءا
فأتي عنك قاصرا في مداه   وجديدا لا يعجب القدماءا
يتغنى به الشباب اغاني الا   مل العذب والحياة جواءا
يتغنى به المحبون سخطا   ورضاء على الهوى وقلاءا
أنت كالزهر والشذا والر   ياحين ومثل الندى وزدت نقاءا
وجمال النساء فيك تجلى   كله وانتمى اليك انتماءا

وهي في نظره وان مثلت النساء في المفاتن والجمال الا انها في صفاتها

سمو المعنى ورفعة الاخلاق اجمعها تجسدت في اخلاقها واين هن من قدرها وهن ارض وهي سماء ،

كنت صبحا يفيض بالنور في الكون ... وكـــن الاصـــيل والامســـاء!
انما بالضـياء يأتي صـبـاح ... والـــدجى يغمر الانام مساء!
انمـــا الصبح والمســاء جميل ... غير ان الحسنين ليسا سواء!
فجمـــال الصباح ينشر نورا ... وحيـــاة وهمـــة ومضـــاء!
وجمـــال المساء يأتي بليـــل ... وسـبات وينشـــر الظلمـــاء!
أنت كالطيب طيبـــة وحنـــانا ... أنت كالروض منظـرا وجشـــاء!
انـــت كالبـــدر في ســـناك ... وفي لطفك كالماء رقـة وصـــفاء!
شف عن طيبـــة الفؤاد محيـــا ... جمع الحسن كلـــه وضـــاء!
أين ضـوء في البـــدر وهو جاد ... من حيـــاة تشع فيـك ضـيـاء!
ومحيا نــد الصباح ووجـــه ... شـــرب الحسن والسـنا والذكاء!
ولعوب عـــذراء في الحـــب والاحـــلا
م ذابـــت صــبابة عـــذراء!

ويمضي في أوصافها وتعداد محاسنها وابراز مفاتنها ويقربها بالتمثيل والتشبيه ويرفعها على الاشباه والنظائر في المفاتن والصفات فجبينها كحاجب الشمس في الماء تروى بغيمة بيضاء وشعرها كنسيم الصباح هب رخاء ينشر العطر والندى • أتراها استعارت صفرته من الاصيل أم من وهج الشمس أهو شعر انثى أم تاج بلقيس زان هامتها ؟•

وعيون سر الحياة مع الحسن جميعا قد احتـوته احتواء!
لجـــة المـــاء أشبهت وهـــي تبـدي
ظاهـــرا مـــن جمالهـــا ابـــداء!
انهـــا وحدها الطريق الى القلب اليه ادت ومنـــه اداء!
أنت يا قـــرة العيـــون ويا مـــن
تمنـــح الانفس الحيـــارى الهـــداء!
أنت يا جنة المحبين حقـــا ... كنت في الحسن جنـــة غلبـــاء!
ابـــدا حســـناك الطـــريف جـــديد
وتليـــد مـــا ان يخـــاف العفـــاء!
انـــا افرغت كـــل قلبـــي لأوعـــي
حبهـــا في شـــغافه ايعـــاء!
وتحليـــت في عواطـــف حبيهـــا
وأنأيت غـــيرها اجفـــاء!
أنـــا ألغيـــت كـــل رأي وفكـــر
منحيـــا ســـاحة النهـــى انحـــاء!

والمطولة تمضي على هذا النسق يتنقل فيها الشاعر من اوصاف حسية الى أوصاف معنوية ، هي نغمة كالنسيم تهمس في الاذن تحي الامل الحلو

وتبعث المنى ، هي لفظة تسكر المسامع وعاشقها الولهان بين حسن وموسيقية الحرف يغني فناء الصوفي في محرابه يناجي محبوبه الاسمى بعد أن استشرى حبه وطغى على مشاعره فملك عليه حواسه ، ولولا اضطرار الشاعر الى استعمال بعض الكلمات (المهجورة) لغرابتها وعدم صلاحها للشعر نزولا عند ضرورة القافية لولا ذلك لكانت ملحمة في الحب ناجحة وكم كان بودي لو تعددت قوافي القصيدة وميدانه في التنقل رحب يتخير القوافي ذات الجرس الموسيقي مع التزام للبحر الواحد ، ووضوح المعنى بدلا من الحاجة الى التفسير لتنسجم الكلمة مع المعنى .

وللشاعر أيوب عباس مطولة اجراها على لسان (عراقي) تناولت قيام الجمهورية العراقية التي طلعت كشمس نصبنا بقيامها رأس جسر للعروبة واتخذناها منطلقا الى الحرية والى حياة اسعد ينال الفرد منها كل خير - الجمهورية التي اخوت عروش الظلم وقضت على الاستعمار وعملائه ومدت يدها صادقة للقاء مع المكافحين الاحرار رواد العروبة الحادين لركبها والمجاهدين في سبيل وحدتها -

بجمهورية طلعت كشمس
نصبنا للعروبة رأس جسر
الى حرية والى حياة
يصيب الفرد منها كل خير
وانسانية ويعيش فيها
وكل الناس مثل اخ وصهر
وجمهورية الابطال أخوت
عروش الظلم فأنكفأت كقدر
فكان نتاجها اعجاز نخل
واطلالا وعينا بعد اثر
وفاجأت العروبة فاستقرت
على اسس موطدة وجدر
تناولت الحياة وكل شيء
بتهذيب وتشذيب ونجر
سياستها حياد مستمر
بتصنيع وسعي مستمر
وتقسيم الاراضي باعتدال
وعدل بين فلاح ومثري
يغذ الى الجزائر منه جيش
قوي أو فلسطين و (شحر)
ونحن مع العروبة كف بأس
على (اسرائيل) نلقيها ببحر
يخطف طيرهم من كل وكر
عليه انقض نسر اثر نسر
وليس لها مصير غير هذا
وليس من المنية من مفر

سنحفظها ونحرسها بشعب
وجيش في اقتحام الهول مجر
تمر به العواصف وهو طود
فأحلى عنده اي لا تمري
بنيناها يداً بدم وشمع
واشلاء الضحايا كل شهر
سنعلي للبناء وسوف نعلي
ونعلي للبناء المشمخر
سنمضي للعلا قدما فابني
باثري مآثر ، وأنا باثر
كمثل السيل مندفعين جمعا
ومثل الريح تهصر كل هصر
وكالبارود والنار انفجارا
تطهر كل وجر كل وكر
تحطم ما تحطم من سدود
وتيجان وترفع كل حجر
ومنها :
لنا التأريخ في ماض اغر وثيق العهد بالآتي الاغر
(فللرازي) و (السكندي) طب وعلم جنب فلسفة (المعري)

وبعد ان يعدد الامجاد العربية علمية وفلسفة وفنية يقول :

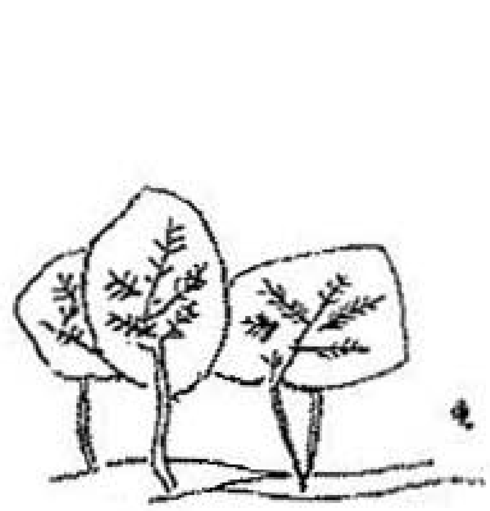
ببوتقة العروبة كل فكر
اذبه معالجا في حذق صهر
فتعلو اذ تلقح من جديد
حضارة يعرب شمسا وتثري
نؤدي مثل أجداد كبار
بكل امانة وبدون جبر
ويوم الجيش يوم لا يضاهي
وكل الناس في عيد ونفر
تجيء مواكب وتروح اخرى
قد ازدلفت فتحسن بيوم حشر
أطلت فالسرور بكل قلب
مطل والدعاء بكل ثغر
وبشر في الوجوه وأي بشر
ونبر في الشفاه واي نبر
زمازم من هتاف أو دعاء كقصف أو كهدر أو كزار

أنا المطرب في دوحي

محمد هارون الحلو

القاهرة

أخذت ارشف منه نشوة الـــراح   فما لقلبي به في خلده صـــاح ؟!
أيسكر الروح ينبوع ، وما ظمئت   لغير نبع الهـوى أعطاف متيـاح ؟
هو الربيع ربيعي ، لا تحـــدثني   عن باسمات ، واظـلال ، وادواح
فما ضحى الحب الا من براعمــــه   وما استكن لقلب غير صـــداح
بكرت ، والروض ريان ، ازاهـــره   تضيء ، والورد في أكمامه صـــاح
والمخمل في حدق زهر تفـــوقه   الى القلوب ســهاما ذات أرمـــاح
نســمت ريا أفاويق الهوى ، فمتى   نســمتها أنت ، يا قدسية الراح ؟
أنا المطرب في دوحي ، وبلبلتـــي   بـين المروج على شــكو ، وافصاح



روبرت فروست

الشاعر المبدع

الدكتور صالح مهدي شريدة

كثيرا ما يخطأ بالحكم عن روبرت فروست ، فشخصية هذا الشاعر ومهنته يعطيان انطباعا مضللا ، لم يكن فروست في الواقع رجلا اعتياديالكونه خلاقا مبدعا خارقا . فكونه خلاقا وفنانا ورجلا خارقا يسبغ عليه شخصية عملاقة ، غير عادية ارتفعت بحياته احيانا الى منزلة رفيعة من الاحساس وقد امتلك المقدرة على جعل الاخرين يشاركونه حماسه .

وكونه شاعرا لم يمنعه من ان يكون رجلا عمليا اسهم في الحياة العامة فاشتغل فلاحا وعاملا في طاحونة ومعلما في المدارس الريفية .

لقد بدأت حياة « فروست » بمتناقضات غريبة فهو يعود الى اسرة من سكان انكلترا الجديدة (New England) استوطنت المنطقة منذ عام ١٦٣٢ ولكنه ولد في كاليفورنيا ويختلف عن معظم الشعراء الامريكان كونه قد عرف كشاعر بادىء الامر ليس في وطنه ولكن في خارجه فطبع أول الامر كتابين له في انكلترا ولم يدخل قط مباراة شعرية في حياته اذ لم يكن يؤمن بالمنافسات الشعرية ، ومع هذا فقد وهبت له جائزة بليتزر Pulitzer Prize اربع مرات لاحسن نظم شعري سنوي ، ولقد كان معروفا عنه أنه قد كتب شعره المرسل الحواري باسلوب كلامي جاف اللهجة ، الا ان منظوماته الغنائية اشتهرت بموسيقاها الرقيقة المحكمة السبك . لقد اختار جزءا من بلده ليكون مقاطعته الخاصة وان عناوين بعض كتبه نفسها تبدو محلية كأمثال «شمال بوستن North Boston و «نيو هامبشاير New Hampshire و « جبل انترفال Mountain Interval ومع انها تبدو محلية كان فيها كثير من الشمول والاستيعاب .

يرجع اجداد فروست الى اصل اسكتلندي واشتغلت والدته في عمل التدريس وهي تنحدر من اسرة اسكتلندية اتخذت التجارة مهنة اما والده وليم برسكوت فروست (Prescott) فقد جبل على نفسية متمردة غير مستقرة وكانت عائلته تأمل فيه ان يصبح محاميا ولكنه فضل التعليم كمهنة ثم اشتغل محررا ثم سياسيا . كان الوالد من المؤيدين للثوار الجنوبيين اثناء الحرب الاهلية الامريكية وقد اصبح احد الابطال الذين دافعوا عن حقوق

الولايات المتحدة ، ولما رزق بولد في آذار من عام ١٨٧٥ سماه على اسم احد عظماء العسكريين الجنوبيين والبحاثين فدعى بروبرت لي فروست ٠

كانت مدينة سان فرنسيسكو التي قضى فيها فروست فترة شبابه مدينة صاخبة ذات حياة عنيفة ، اذ كانت مرتعا للسكان الغربيين بمسدساتهم كما كانت مرتعا للسكان الشرقيين ٠ وبالرغم من ان الاب فروست قد استأنس بحياة المدينة الفوضوية وبالحياة الصحفية الفوضوية في مجتمع صاخب ، الا ان صحته لم تستطع المقاومة ، فساءت واصيب بمرض السل ، غادر على اثره الحياة تاركا روبرت في سن العاشرة من عمره فأخذته والدته الى مقاطعة نيو انكلند موطن اسلافه ونشأ الولد اليتيم على حياة الاعتماد على النفس وبدأت والدته تعلمه وتقرأ له ٠ واول قصة قرأها بنفسه كانت « الرؤساء الاسكتلنديون Scottish Chiefs والقصة التي طالعها هي « ايام توم براون المدرسية Tom Brown's School Days وكانت سنه حينئذ اربع عشرة سنة ، لعل سنا كهذه متأخرة في الابتداء بقراءة الكتب ٠ وقد شرع في التوجه نحو الشعر موجها اعجابه بموسيقية شعر « بو Poe الحادة ، كما اعجب بشعر « امرسن Emerson وبصورة تلقائيا بدأ يقرض الشعر ٠ وعندما بلغ الخامسة عشرة شاهد اول شعر يطبع له في احدى المجلات المدرسية وهو مكون من قصيدة غنائية من نوع « بالاد Ballad طويلة حول الليل وعندما بلغ التاسعة عشرة نظم اول قصيدة درت عليه مالا اذ قبلت ان تنشرها مجلة « اندبندنت The Independent وهي مجلة قومية ذات انتشار واسع وقد استلم عليها خمسة عشر دولارا ٠

كانت امه فخورا به ، ولكن كان بقية افراد عائلته في ذعر ، فكان جده يعتقد بانه لا يمكن لاحد ان يعيش من نظم الشعر ٠٠ فالنجاح في اعتقاده يتطلب وقتا طويلا والظاهر ان جده كان على حق اذ ان اول كتاب له وهو « رغبة الفتى The Boy's Will لم ينتشر الا بعد عشرين عاما ٠ ولكنه قد برهن به على انه شاعر حقا ٠

تخرج فروست في مدرسة لورنس الثانوية ولم يكن من الاوائل اذ كان تسلسله السابع عشر ولقد تعرف على فتاة على جانب كبير من الجمال تدعى « الينور مريم وايت » وتزوجها بعد ثلاث سنوات من معرفته بها وبعد سنتين من زواجه حاول روبرت أن يجلب السرور الى نفس اسرته للمرة الاخرى فعزم ان يتم تعليمه فدخل جامعة هارفارد وكان حينئذ في الثانية والعشرين واستمر في الدراسة فيها حتى الرابعة والعشرين ٠ وقد احب دراسة الفلسفة وانجذب نحو الآداب الكلاسيكية واعجبته اللغة اللاتينية والاغريقية ولكنه كما قال هو نفسه « لم يكن ذلك ما اردت دراسته » ٠

لقد خاب امل جده فيه ولكن وهب حفيده العديم الطموح مزرعة بالقرب من « دربي » ملجأ له ولكنه قد برهن عكس ماكان ينتظر منه على نشاط ملحوظ فبدأ يفلح الارض وهو في سن الخامسة والعشرين فدل على كفاءة في

العمل • وبالرغم من انه لم يكسب عيشه كليا من الفلاحة التي زاولها لمدة خمس او ست سنوات ، وتحول اخيرا الى مزاولة التعليم الذى كرس له جزءا من وقته غير ان رأسه كانت تملؤه القصائد الشعرية وكانت زوجته تغمرها الرغبة في ان يدون افكاره •

لقد مضت عشر سنوات بعد ذلك بلغ الشاعر عندها الخامسة والثلاثين فباع املاكه في « نيو هامبشاير » فاستطاع بذلك وبما ادخره من التعليم في اكاديمية بنكرتون في قرية « مديرى » ان يبحر مستصحبا اهله الى انكلترا وذلك عام ١٩١٤ ، حيث كان العيش خارج امريكا سهلا ولقد نزل في « بيكونسفيلد » وهي مدينة صغيرة تقع في مقاطعة «بكنكهامشاير» الزراعية• وبالرغم من ان انكلترا كانت حينئذ في حماسة النهضة الادبية وان « الشعر الجورجي » كان مركز الحركة فان فروست وعائلته لم يتأثروا بما يجرى حولهم • فهم لم يغادروا محل سكناهم الا لزيارة نادرة الى لندن ولم يلتقوا بأحدا لمدة تقارب العام ولقد حاولوا مزاولة فلاحة الارض مدة اخرى وفي منطقة « كلوسترشاير » حيث جاور الشاعر الدراماتيكي « لاسيل ابركومبتون » والشاعر « ولفريد ولسن جبسن » •

وفي احدى الامسيات من عام ١٩١٣ جلس فروست بالقرب من النار المكشوفة وهو يقلب القصائد التي نظمها والتي لم ينشر منها في المجلات الا القليل كان بيديه نتاج عشرين عاما • فبدأ يحدث نفسه : « لقد تبادر الى خاطري انه ربما يود احد ان ينشر قسما من هذه القصائد في كتاب لم يحدث لي قط من قبل ان فكرت بان مثل ذلك يمكن عمله » • ولقد تذكر فروست على اثرها ان ناشر مؤسسة « هنلي » هو « ديفد نوط » ولكن هذا كان قد توفي غير ان زوجته قد استمرت في عمل النشر فتوجه اليها ، وهي بدورها بدأت تقرأ انتاج الشاعر المغمور فقررت نشره بكتاب • لقد كان الامر بمثل هذه البساطة من دون وساطة او تأثير الاصدقاء ، من دون دعاية ومن دون ربح شيء سوى الشعر • ولكن على المؤلفين الذين ينقصهم الصبر لنشر انتاجهم ان يتذكروا بان فروست قد انتظر مدة تزيد على العشرين عاما منذ نشر اول قصيدة له في مجلة مدرسية حتى طبع اول كتاب له وعندما ظهر كان الشاعر في الثامنة والثلاثين •

وقد كان الكتاب الاول لروبرت فروست بعنوان « امنية الفتى A Boy's Will وان العنوان لم يحتو طابع « لونك فيلو Longfellow حسب وانما يدين اليه بالشيء الكثير فقد نظم هذا الشاعر في قصيدته «صباي الضائع » قائلا :

ان امنية الفتى هي امنية الريح
وان افكار الفتى هي افكار طويلة ، طويلة للغاية

لقد اعجب النقاد اعجابا كبيرا بالطابع الغنائي الاصيل لدى فروست وبالفاظه السهلة وملاحظته الحادة ، واكثر من ذلك كله فقد اعجبوا بطريقته

في تحويل الافكار المنسية عادة الى تعابير لا تنسى . ولكن اذا كان النقـــاد متحمسين نحو « امنية الفتى » فقد كانوا مغرمين بكتابه الثاني « شـــمال بوستن North of Boston فقد امتدح النقاد كتابه الثاني هذاالاسباب عدة . لقد كتب « ولفريد ولسن » قائلا : « لقد حول فروست كلام الرجال والنساء الى شعر .. ان القصص التي لاتتعدى كونها مجرد حكايات قصيرة تصبح لها اهمية عالمية بسبب حيويتها المحلية وتعبيرها الصادق للطـــابع المحلي .

وعلق ناقد آخر في مجلة « نيشن The Nation بان مجموعة الاشعار هذه تمتاز بمعلوماتها الاصيلة وللملاحظة الخلابة واكثر من ذلك كله للمتعة الغنية لجميع نواحي الحياة العملية . وقد وجه الاهتمام كذلك الى اللغـــة البسيطة والخلو من المحسنات اللفظية التى امتازت بها هذه المجموعة التي هي عبارة عن تحويل للغة بعناية فائقة الى كلام موزون مألوف .

وسواء في حواره او في شعره الغنائي فأن قصائده تمتاز بانها تحـــوى لغة اناس في حياتهم الاعتيادية ، وفي الواقع كان فروست يعرف كيف يعبر عن افكار جمة بعبارات قصيرة تماما مثل ما كان يفعل كثير من الرجـــال والنساء الذين كان يقرض اليهم في « نيو انكلند » او في اى مكان آخروالذين كانوا يعرفون كيف يعبرون عن خواطرهم بكلمات مقتضبة تحمل حقائق اكثر مما تحملها مجلدات يكتبها المتحذلقون عندما يعبرون عن خواطرهم .

وفي بداية عام ١٩١٥ وبعد مضي سبعة اشهر على انفجار الحرب العالمية الاولى عاد روبرت فروست الى امريكا . لقد عاد ليجد امامه الشهرة بصورة مفاجئة غير متوقعة . وكان كتاباه يباعان في كل مكان من الولايات المتحدة . ان الرجل الذى غادر امريكا وهو خال من الشهرة عاد اليها وقد اصبح قائد العهد الجديد للشعر الامريكي .

وحالما شعر فروست بانه ربما كان يكسب الان الشعر وحده قدم على عمل فريد من نوعه ، اذ انه اشترى مزرعة على سفح تل في نيوهامبشايـــر وعاش هناك لمدة خمس سنوات . وبعد اقل من سنتين من عودته من انكلترا دعي لينضم الى اللجنة الاستشارية لمجلة شهرية تدعى « الفنون الســـبعة The Sevn Arts » ثم استدعي لتدريس الشعر في جامعة هارفارد تلك الكلية التي لم يرغب هو نفسه التخرج فيها . لقد عبر النـــاقد « كورهام منسون Gorham Munson عام ١٩٢٧ قائلا « حقا انه قلما كان يصد ، لقد كانت جميع ابواب الادب في امريكا مفتوحة على مصراعيها امامه . »

لقد بلغ فروست حينئذ الاربعين وخلال العشرين عاما القادمة من سنة ١٩١٦ حتى ١٩٣٦ كرس هذا الشاعر معظم حياته في مختلف معاهد التعليم . وبالرغم من انه كان يشغل منصب استاذ فقد كان محفزا اكثر منه مدرسا . لقد كانت مهمته لا ان يعلم بل ليحفز ، ويحث فهو اشبه بالاشعاع الشعري وقد انجز مهمته في هذا الحقل على اتم وجه واكمله وكونه لم ينقطـــع عـــن

الابداع والخلق اصبح القوة الناقدة وكونه لم يحاول اقناع احد اصبح القوة المؤثرة ·

وفي عام ١٩٣٨ انتقل فروست الى بوسطن وبعد ثلاث سنوات استطاع ان يتملك مسكنا في كمبرج ولكنه لم يسكنه اذ انه اصبح في حوزته خمس حقول في فيرمونت · كان يزاول العمل فيها بعض فترات متقطعة ·

ان كتبه التي اعقبت مؤلفه « شمال بوسطن North of Boston امتازت بقدرته النامية على جعل الشعر ينطق ويغني ويقال انه كلما تقدم الشعراء في العمر فقدوا دافعهم الغنائي غير ان العكس يصح بالنسبة الى هذا الشاعر ، فان منظوماته الاخيرة امتازت بقوتها الغنائية البارزة · فنجد قصيدته المسماة « الشجرة الشاهدة A Witness Tree التي ظهرت عندما كان فروست في سن السابعة والستين ، بطراوة وحيوية اية قصيدة كتبها وهو في عهد فتوته · لقد منح روبرت جائزة بلتزر Pulitzer Prize اربع مرات لاحسن مؤلفات شعرية سنوية · وقد كان الشاعر الوحيد الذي فاز بمثل هذا القدر من الجائزة المذكورة التي نالها لاول مرة عام ١٩٢٤ على كتابه « همبشاير الجديدة New Hampshire وعام ١٩٣١ المؤلفة مجموعة قصائد Collected Poems وعام ١٩٣٧ لكتابه « مجال ابعد مدى Further Range وعام ١٩٤٣ لمؤلفه « الشجرة الشاهدة A Witness Tree اما جوائز الشرف التي نالها فقد توالت متجمعة له بصورة متتالية · لقد كان على ملاك كلية « امبرست Amherst من عام ١٩١٦ حتى عام ١٩٣٨ واصبح شاعر جامعة مشيكن من عام ١٩٢١ حتى عام ١٩٢٣ ، وللمرة الثانية اصبح يحاضر في جامعة هارفارد عام ١٩٣٦ ·

لقد نال كذلك درجات علمية فخرية من جامعة « كولومبيا » و « يل » و « هارفارد » ومن كليات وجامعات اخرى · وكان من الشعراء القلائل الذين حازوا على « المدالية الذهبية Golden Medal من المعهد الوطني للفنون والآداب ·

ان هذه الجوائز والالقاب العلمية والمناصب الرفيعة لم تؤثر في انتاج الرجل ونفسيته · فقد بقي لديه طابع للقوة الرزين وقدرة المجادلة العميقة لم تتزعزعا سواء في شعره او في شخصيته ·

لقد عبر فروست عن طبيعته هذه في اواخر اسطر قصيدة له في اول كتاب نشره قائلا :

لن يجدوني متغيرا عما كانوا يعرفونه عني
انني اعتقد بحقيقة ما هو اكثر تأكيدا من كل شيء

لقد كان للحقيقة في الواقع المركز الرئيسي في تفكير وشعور هذا الشاعر · فانه ما انقاد مطلقا الى الحلول البسيطة او انخدع بالشعارات - ولم ينجرف الى الاساليب الوقتية في الشعر او الى السياسة لقد اكد اعتقاده مرات ومرات ، فقد نوه بشيء من ذلك في قصيدته « الكوخ الاسود The Black Cottage

لماذا اهجر اعتقادى
لمجرد انه لم يعد حقا ،
اني اتعلق به لمدة طويلة
وعندئذ مما لاشك فيه
سيتحول الى حقيقة ثابتة
لانه هـكذا يمضى قدما ٠
ان معظم التبدل الذى نعتقد
باننا نشاهده في الحياة
يرجع الى الحقائق التي هي
طبق الاهـواء او ضـدها ٠
وبينما انا جالس هنا غالبا ما اتمنى
بأن اصبح ملك ارض صحـراوية
اني استطيع ان اكرس نفسي
واغنيهـا الى الحقائق التي
لم تنفك بارجاعها الينـا
واعادتها من حيث اتت

ولكن البحث المتواصل عن الحقيقة لدى فروست لم يعن بانه كـان فيلسوفا متعنتا اذ هو عكس ذلك ، فقد كان كل ما تناوله خفيف الروح كما كان اكيدا انه خفيف الطبع حتى عندما كان يتناول موضوع مأساة ٠

ان شعره اصبح يتقدم بطابعه المألوف القريب من النفس . لقد كان يشع عنده الروح التي امتزجت معها الحكمة وسرعة الخاطر ٠ انه عـرف الانسانية على حقيقتها ٠ لقد درسها في الحقول الصخرية كما درسها في معاهد الاداب والعلوم ٠ لقد كان يستحسن المهارة في كل فن ومهنة ، مفضلا الخبرة الحقيقية على التقهقر الى عالم خيالي براق ٠

ان نبضات شعر فروسـت موقتة بدقات قلب عالم العمل اليومـي فالشعر والعمل والحاجة كلها مترابطة لديه اذ هو نفسه يقول :

لكن من الذى يذعن الى انفصالها
ان هدفي في الحياة هو ان اوحد
مشاغلي بعملي
لان عيني تنظـران اليهما
كشيء واحـد
فالحب والحاجة ليسا الا شيئا واحدا
والعمل ليس الا لعب
لاجل المخاطر الزائلة

لقد كان روبرت يقيس ويقوم الاشياء والاشخاص ولكنه قلما كـان

يجرح او يقضي على شيء • انه في جوهره رجلا جديا • لقد اعتبره بعض النقاد انسانا اخلاقيا مصلحا ، ولكن لم يحاول قط ان يفرض اى شيء قسرا أو يحاول الحط من قيمة انسان • لقد تقبل العالم على علاته ومتناقضاته دون ان يجرفه او يقضى عليه •

لقد تناول فروست في شعره كل شيء تقريبا • فقد نظم عن الاشياء المالوفة كأكوام الخشب وعن الاشياء غير المالوفة كالحصى في عصور ما قبل التاريخ كما نظم عن الاشياء الطبيعية كالطيور المغردة وعن الاشياءالميكانيكية كالثورة الصناعية ولكن كان الموضوع الرئيسى الذى يسيطر على شعره هو « الانسانية » • لقد كان شعره يعج بالحيوية والحياة لانه كان يتناول الناس الاحياء في حياتهم اليومية • لقد كتب شعراء غيره «عن» الناس ، ولكن اشعار فروست كانت هي الناس انفسهم ، في اعمالهم وتجوالهم ، في احاديثهم وقصصهم المفعمة بكلامهم الطبيعي المالوف • ان شعرا كهذا لايمكن ان يكون مصطنعا ولا تظاهريا • انه شعر المحادثة المألوف ، انه لغة الاشياء كما هو لغة الافكار •

ان الفلسفة الخصبة الناضجة والاحساس بالتفاهم العالمي الشامل يبدو في كل ما كتبه فروست حتى في اوائل ما نظمه فمثلا قصيدته « باقة الازهار The Tuft of Flowers التي نشرت في اول كتاب له تعبر بوضوح عن الروح الكلية للمساهمة والمشاركة الانسانية ففي رأى الشاعر حتى اولئك الذين يتصورون بانهم يعملون ، بانفراد منفصلين عن الاخرين ، لهم دون ان يدركوا رابط عام يربطهم مع الاخرين :

لقد قلت له من كل قلبي :
« ان الناس يعملون معا »
سواء كانوا يشتغلون منفردين :
او يعملون مع غيرهم مندمجين •

ففي قصيدته « باقة الازهار » نجد في تحليق الفراشة وهمس «الحصاد» غير المنظور منتهى التقارب والتمازج :

غمرنا انا والفراشة ضوء من عل
انه ، على اى حال ، رسالة من الفجر ،
وهذا مما جعلني اصغي الى :
الطيور المتيقظة من حولي ،
واشعر بان روحا قد ارتبطت بروحي ،
وهكذا عدت لا اعمل منفردا ،
من الان فصاعدا •

وفي قصيدته الهاتف The Telephone نجد الاخيلة الرومنسية الحديثة مصوغة بتعبير جميل يتمزج فيه وصف الحبيبة مع وصف الطبيعة،

وكأن كل منهما متمما للآخر بشكل منسجم رائع • فهناك « الزهرة » ،التي تبدو وكأن الحبيبة تنطق منها ، وهناك « النحلة » التي تحاول امتصاص الزهرة ، فيبدي حرصه على ذلك بابعادها ، وربما اراد ان يشير عن رغبته وعزمه عن ابعاد كل شيء يحاول مس حبيبته :

« الهاتف »(1)

عندما وصلت الى اقصى مسافة ،
تستطيع ان تحملني اليها قدماي
من هنا وفي يوم كهذا ،
لقد كانت ساعة
ساد فيها صمت تام
عندما اسندت رأسي نحو زهرة ،
وسمعتك تتكلمين ،
لا تقولي انني لم اسمعك ،
لانني قد سمعتك تتفوهين
وتتكلمين من تلك الزهرة ،
التي هي على حافة النافذة ،
هل تتذكرين ماذا قلت
اخبريني قبل كل شيء
ماذا تصورت
بانك قد سمعت
وعندما وجدت الزهــرة
وابعدت عنهــا النحله
اسندت رأسي اليها ،
ممسكا اياها من ساقها
لقد اصغيت وافتكرت
بأنني قد سمعت الكلمة
ماذا كانت تلك الكلمــة
هل كنت ناديتني باسمي
أو هل نطقت بشيء
انني قد سمعت شخصا يقول تعال
سمعت ذلك بينما كنت انحني ،
ربما تصورت هكذا
ولكن في صمت مع نفسي ،
حسنا ، ليذا قدمت •

(1) The Telephone

ونجد فروست في قصيدته « حب وسؤال » "Love and a Question" يتناول ما يشبه الشعر القصصي ، والقصيدة بالرغم من قصرها تروي لنا قصة تصلح ان يكتب عنها رواية او كتاب · انها تتناول موضوعا انسانيا تتنازع فيه الاحاسيس الانسانية المتضاربة : فهناك الرجل الذى انقطعت به السبل في مكان ناء منعزل يحاول ان يجد ملجأ يحميه من قساوة الليل ووحشته ، فيأوى الى بيت عبر الطريق ، كان هو المكان الوحيد الذى ينقذه مما يحتمل ان يقاسيه ، ولكن كان في ذلك البيت حدث غريب : اذ كان يسكنه رجل في ليلة عرسه ، غير ان الظروف شاءت ان يكون الانسجام مفقودا بينه وبين زوجته وهي في حلة عرسها ، فتضاربت في نفس العريس الاحاسيس المتباينة فهل يساعد ذلك الرجل ويدعه يأوى الى بيته ، لانه في مكان ناء منعزل « خلا من كل ضوء نافذة » ويوشك العريس ان يعطف على هذا الرجل الضال ، ولكنه تساوره الشكوك وتخالجه الريبة لانه لا يعرف عن ذلك الغريب أي شيء وهو يخشى ان يدمر حياته الزوجية ، وهي في اول ربيعها ، وهو غير متأكد من اخلاص زوجته ، والانسجام مفقود بينهما :

« حب وسؤال »(١)

طرق رجل غريب الباب مساء ،
وتكلم مع العريس برقة ،
وكان يحمل بيده عصاة
ملونة : خضراء بيضاء
موجها عنايته الى كل اثقاله ،
وكان يسأل بعينيه ،
أكثر مما يفعل بشفتيه ،
لمأوى خلال الليل
ثم استدار وتطلع نحو الطريق البعيد :
الذي خلا من كل ضوء نافذة
وخرج العريس الى السدفة ،
وهو يقول : « دعنا نتطلع الى السماء »
وعلى لسانه سؤال :
أي ليل سيكون ؟
ونحن غريبان عن بعضنا ·
وقد اتسخت الساحة

---

(1) Love and a Question

بأوراق شجرة زهر العسل
وكانت ثمرات زهر العسل
ذات لون ازرق
نعم انه الخريف ، وكان الشتاء في اجواء الرياح ،
ايها الغريب ، كم تمنيت
لو كنت ادري !
وكانت العروس تجلس في ظلام
في الداخل وحدهـا ،
وهي منحنية نحو النار المكشوفة
وقد توردت وجنتـاها
من جـراء الفحم الملتهب
وافكار رغبات قلبهـا
وتطلع العريس نحو الطريق الشاق
ومع هذا لم ير في الداخل سواها ،
وتمنى لو يكون قلبها ، في صندوق ذهبي
ومدبس في دبوس فضي
وتصور العروس بانه عطاء ضئيل
ان يهب كمية من الخبز او كيسا من النقود
فدعاء صميم الى فقراء الله
او لعنة للموسرين
ولكن هل يجب ان يدعى رجل اولا
لكي يدمر حـب اثنين
بانزاله الويل في البيت العرسي
كم تمنى العروس لو كان يدري ٠

وفي قصيدته « لنذهب نجلب المـاء » "Going for Water" نجـد رومنسية الشاعر تبدو مرة اخرى ، ولكنها تختلف عن الرومنسية التقليدية، اذ يحاول الشاعر فيها مزج الانسان مع الطبيعة بشكل منسـجم بديع ، فوصف « الجدول » كان مختلط بوصف الجماعة الذين كانوا يبحثون عنه ، ووصف « الحقول » كان ممتزجا بوجود الجماعة نفسهم الذين شعروا بان الحقول ملك لهم والذين لم يكتفوا بذلك وحسب وانما ارادوا « اللقاء مـع القمر » الذي بدوره اتحد مع الكائنات لاخرى ، منبلجا خلف الاشـجار ٠ فروح الانسجام الشامل بين الانسان والاشياء وبين الكائنات بعضها مـع

بعض ، وهي الظاهرة البارزة في فلسفة فروست تبدو واضحة . فحتى التمتع بالطبيعة لم يشأ ان يجعله فرديا محضا ، وبهذا وصف الجماعة بانهم متمتعون معا وبانسجام بمظاهر الطبيعة يستمعون الى جداولها وخرير شلالها .

« لنذهب نجلب الماء »(١)

لقد جف البئر الذي بجنب الباب ،
ولهذا ذهبنا ومعنا ادلاؤنا ،
عبر الحقول التي خلف البيوت ،
لكي نبحث عن الجدول
لعله لم يزل يجري .
لم نكن كسالى بحيث نجد عذرا للذهاب ،
لان مساء الخريف كان جميلا ،
بالرغم من برودته
لان الحقول كانت ملكا لنا ،
وبجانب الجدول كانت غاباتنا .
لقد ركضنا كأننا نريد اللقاء مع القمر ،
الذي انبلج ببطء خلف الاشجار ،
وقد خلت الاغصان الجرداء من الاوراق
وخلت من الطيور وخلت من النسيم
ولكن حالما توقفنا داخل الغابة
التي تشبه العفاريت وهي تحجبنا عن البدر
وكنا على استعداد لنجري كرة اخرى ،
ونحن ضاحكون عندما عثرت علينا بسرعة .
ولقد القى كل منا يده الساكنة على الآخر ،
لكي نصغي دون ان نجرأ على النظر ،
واجتمعنا بين الاحراش لأجل العمل ،
لقد سمعنا وادركنا باننا قد سمعنا الجدول
وكانت نغمة كأنها صادرة من مكان واحد
وخرير الشلال الرقيق
الذي جعل قطرات الماء
تطوف على البركة في الحال
اشبه بالبدر ومن ثم تتحول
بعدها الى نصل ذهبي

1 Going for Water

وفي قصيدة « المرعى The Pasture » يبدو الشاعر بنفس الروح التي جبل عليها ، تلك الروح التي تحاول ان لاتنظر الى مظاهر الطبيعة بمعزل عن الانسان ، فالطبيعة دائما مع الانسان والانسان دائما مع الطبيعة يتمتع بمناظرها — فبالرغم من انه كان قاصدا الينبوع الا انه تبهره بعض جوانب الطبيعة ، فيقف هنا وهناك ليستمتع بها ، فهنيهة يقف يتطلع الى الماء النقي واخرى الى اوراق الشجر ، وكانه اراد ان يساهم في تنظيمها ،وهي تحتاج الى ذلك احيانا ، وتحتاج الى من يرعاها بنفس الوقت الذى يتمتع فيه بها فهو مثلا يزيل « عن الينبوع اوراق الشجر » ليظهر الينبوع بجلاء فيزيد تمتعه به ، ولعله يستطيع ان يغترف شيئا من مائه . وهو فوق كل شيء لايريد ان تكون مثل هذه المتعة له وحده ، بل يدعو من يحب الى مرافقته في ذلك . ان كل شيء في الطبيعة يسحره ويجلب نظره حتى «العجل الصغير» الذى يصفه وهو في اروع اوضاعه ، اى عند وقوفه جنب امه وهي تلحسه وتعنى به بحكم طبيعة غريزة الحيوان ، وهو بعد كل ذلك يلح في الرجاء بأن تأتي من يحب « أيضا معه » .

« المرعى »(١)

انى ذاهب لتنقية ينبوع المرعى ،
وسأقف هنيهة لازيل اوراق الشجر .
(وربما توقفت لاتطلع للماء النقي)
وسوف لا امضي بعيدا
وستأتين أنت ايضا معي .
انى ذاهب لابحث عن العجل الصغير
الذي يقف بجنب امه ، ما أصغره !
انه يتمايل عندما تلحسه بلسانها
وسوف لا امضي بعيدا
وستأتين انت ايضا معي .

✠

"BIBLIOGRAPHY"

1. Greenberg, A. Robert and Hepburn, G. James "Robert Frost". (Holt, Rinehart and Winston, New York, 1963)

(1) The Pasture

2. Untermeyer, Louis, "Robert Frost's Poems", (The Pocket Library, New York, N.Y., 1956)
3. Cook, Reginald 'The Dimensions of Robert Frost" (Rinehart, New York, 1958)
4. Nichie, George "Human Values in the Poetry of Robert Frost" (Duke University, Durham, 1960)
5. Thornton, Richard (ed) "Recognition of Robert Frost", (Holt, New York, 1937)
6. Sergeant, Elizabeth, "Robert Frost: The Trial by Existence" (Holt, Rinchard, Winston, New York 1960)
7. Frost, Robert, "A Boy's Will" (Holt, New York—1915)
8. ——— "The Poems of Robert Frost" (Modern Library, 1946)
9. ——— "Collected Poems" (Holt, New York, 1939)
10. ——— Selected Poems" (Cape, London, 1946)
11. ——— "A Witness Tree" (Holt, New York, 1942)
12. ——— "Complete Poems" (Holt, New York, 1940)
13. ——— "West-running Brook" (Holt, New York, 1928)
14. ——— "A Further Range" (Holt, New York, 1934)
15. ——— "North of Boston" (Nutt, London, 1914)
16. Frost, Robert, "Mountain Interval", (Holt, New York, 1916)
17. ——— "New Hampshire" A poem with Notes and Grace Notes", (Holt, New York, 1923)
18. ——— "West-running Brook", (Holt, New York, 1928)
19. ——— "A Further Range", (Holt, New York, 1936)
20. ——— "A Masque of Reason", (Holt, New York, 1936)
21. ——— "Steeple Bush", (Holt, New York, 1947)
22. Cox Sidney, "Robert Frost: Original "Ordinary Man", (Holt, New York, 1929)
23. Mertins, Louis and Esther, "The Intervals of Robert Frost" (Yale University, New Haven, 1960)
24. Thompson, Laurance, "Fire and Ice: The Trial by Existence" (Holt, Rinehart, Winston, New York, 1960)
25. ——— "Robert Frost", University of Minnesota Pamphlet on American Writers, No. 2 (Minneapois University of Minnesota, 1959)

في ذكرى دانتي

عبد الاله ابو عياش

ان المحن التي يعيشها الفنان والالآم التي يقاسيها الاديب والمآسي التي يراها الفيلسوف هي الطاقات المولدة لكل معجزة يأتي بها أحد هؤلاء ·

وما براعة الفنان في التعبير عن أعماقه وذاته الا من احساساته الصادقة التي أرهقتها الاحداث وكلما كانت معاناة الفنان شديدة كلما ظهرت ردود أفعالها انعكاسا أكثر صدقا لما ينفعل في نفسه سواء بلوحة تنطق بالخلود أو بمقطوعة موسيقية تعيش أبد الدهر أو بسطور تسطع أنوارها على مر العصور ·

ودانتي اليجيري هو أحد أولئك العظام الذين استطاعوا بمشاعرهم الرقيقة واحساساتهم المرهفة أن يعكسوا صور العذاب والالم والظلم والجور والنفي والتشرد التي تحملوها خلال حياتهم ·

مولد الشاعر العظيم :

في فلورنسا وعلى ضفة نهر الارنو الجميل في الشمال الغربي من ايطاليا ولد شاعر ايطاليا الاكبر دانتي في أواخر مايس (أيار) سنة ١٢٦٥ في وقت كان ظلام العصور الوسطى ما زال يمد جحافله فوق أوربا بالرغم من ظهور خيوط بيضاء وسط ذلك الظلام · كانت الكنيسة هي المسيطرة وكل شيء يعطى بالمال حتى قطعة من الجنة تشترى بصك غفران · وايطاليا ممزقة الى امارات ودويلات حتى أن النزاع كان يشتد داخل الامارة أو الدولة بين الاسر ذاتها · والناس كما هم في كل العصور يحابون القوي ويتخلون عن الضعيف ، يلعقون بألسنتهم الاقدام من أجل مصالحهم الشخصية وأهوائهم الذاتية ·

وسط تلك الظروف ولد دانتي باحساساته ومقدراته الطبيعية المرهفة ومشاعره الرقيقة ونظراته المثالية · ولقد تجمعت تلك الآلام التي انسكبت في قلب الشاعر وهو يتأمل مجتمعه بتناقضاته وغرائبه ليخلق في النهاية معجزته الشعرية (كوميديا دانتي) أو (الكوميديا الالهية) ·

حيـــاته :

ولد دانتي من اسرة يعتقد أنها تنحدر من أصل روماني نبيل ويعتقد بأن أحـد أجـداده اشترك في الحملات الصليبية التي اجتـاحت العـالم الاسـلامي · كان والده يعمل مرابيا ولقـــد أثر ذلك في نفسية دانتي · وتوفيت أمه وهو ما زال صغيرا وتزوج والده من امرأة ثانية · ويبدو أن دانتي لم يتلق العناية الضرورية من والده بعد موت والدته ·

عرف دانتي معنى الحب فأحب بياترتيشي ابنة أحد أثرياء فلورنسا ولكنه أخفق في الوصول الى قلبها والزواج منها وترك ذلك في نفسه اثارا دامية · وصدم دانتي بشدة حين علم بموت بياترتيشي وهي ما زالت في مقتبل عمرها ·· وبكى دانتي لموتها بمرارة اذ كان لها في قلبه منزلة كبيرة واعتبرها ملكه وحده بعد موتها ·

ومع ذلك تزوج دانتي من امرأة أنجبت له ثلاثة أطفال كان من بينهم فتاة أسماها (بيا ترتيشي) ·

دراســـته :

انكب دانتي على الدراسة حيث كانت لديه رغبـة شـديدة بالمعرفة ولهذا فقد قرأ في الفلسفة والطب والكيمياء والقانون والرسم والموسيقى وغيرها · وتأثر دانتي بآراء أرسطو وتوماس الاكويني وقرأ للشعراء فاتخذ من الشاعر اللاتيني اوفيديوس صديقا له · وعرف فرجيليو وقرأ له حتى بلغ تعلقه به حـد الاعجاب الشـديد فاتخذه دانتي مرشـدا له في رحلته الالهية · وكان حبه لفرجيليو كبيرا فكان يناديه بالاب والسيد والحكيم[1] وظهر فرجيليو لدانتي في بداية رحلته عندما أراد الصعود الى قمة الجبـل حيث الفضيلة والصفاء والامل والنور الالهي · ولكن وحشا كاسرا يمثل العنف والقسوة منعه من اجتياز الجبل للوصول الى قمته ·

الاضطهاد والنفي :

تعرض دانتي للاضطهاد الشـديد من مجتمعه الفلورنسي وممن هم حوله ولقد كان اصدقاؤه قليلين · كان يقضي أوقاته مختليا الى نفسه ومع ذلك لم ينفصل عن المجتمع · كان فارسا شجاعا ومقاتلا جريئا اشترك بعدة اشتباكات عندما تعرضت فلورنسا للاخطار ·

ولقد كانت صراحة دانتي هي سبب كـل ما تعرض له من اضطهاد فعندما طلب البابا (بونيفا تشو الثامن) من فلورنسا ان تقدم مائة فارس للخدمة العسكرية وقف دانتي بوجه المطامع البابوية ودعا الاخرين للوقوف ضد البابا ومطامعه ولكنهم تخلوا عنه وأخذ دانتي يواجه الاضطهاد وحكم عليه بالنفي وبدفع غرامات نقدية ثم حكم عليه بالموت وباحراقه حيا ·

خلق الكوميـديا :

رحل دانتي عن فلورنسا ونفسه مثقلة بالهموم وجراح قلبه تتسع يوما بعد يوم • وتنقل بين الامارات والدويلات وعبر الى فرنسا ويقال أنه وصل اكسفورد • وقد أعطته تلك السفرات دروسا وتجارب أضيفت الى حقيبة تجاربه • وكانت بمثابة الخميرة التي تفتحت عنها عبقريته بخلق الكوميـديا •

ويبدو أن اخفاقه في حب بياتريتش كان بمثابة الصدمة الاولى التي ضربت أوتار احساسيه المرهفة الرقيقـة فأذكت في نفسـه ملكة الشعر الخالد • ومع ذلك فقد كانت بياتريتشى هي التي فجرت ينابيع شعره وقادته نحو الفضيلة والصفاء والامل •

يقول ميشيل باربي في كتابه (حياة دانتي) : « ولقـد أقنعـه ذلك بالتـدريج ان بياتريتشى يجب أن تكون ـ وكانت فعلا ـ هي التي قادت أفكاره وتأملاته نحو الكمال المثالي الذي هو هدف كل عقل نبيل »(٢) •

ويقول أيضا : « ويعتبر دانتي الحب مصدر كل عمل نبيل وهـدف سام »(٣) •

ويذكر الدكتور حسن عثمان في كتـابه ـ الكوميديا الالهية ـ عن دانتي : « ويعتبر ـ أي دانتي ـ المرأة نصف آلهـة تقوده الى الفضيلة والى الله ، وهي التي أذلت كبرياءه وقادته الى الخطيئة »(٤) •

ولقد كان ما تعرض له دانتي من المصائب من نفي وتشريد وفقدان الصديق وانقلاب الخلان والبعد عن الوطن والاضطهاد والمطاردة ومواجهته الموت وأيام المحن واحساسه بالجوع ونفاذ نقوده وحنينه الى مسقط رأسه على ضفة الارنو اضافة الى آلام الحب والصبابة بمثابة الشبكة التي تجمعت بها عبقريته الشعرية فخلقت (الكوميديا) •

موته :

وكانت نهاية مطافه أن استقر في رافنا حيث استقبله أميرها (نوفلو) وعاش دانتي في رافنا بين عدد من أصدقائه وجاء اليه أبناؤه : بيترو الذي أصبح محاميـا وجاكوبو الذي درس على والده وبياتريتشى التي أصبحت راهبة • وفي أيلول من عام ١٣٢١ توفي شاعر ايطاليا العظيم وأعلن أميـرها الحداد العام في البلاد •

تخليـد الشـاعر :

وبعد نصف قرن أدركت فلورنسا قيمة الجوهرة التي افتقدتها وما ارتكبته بحق ابنها البار من الجحود والنكران • وأصبح اسم دانتي على كل لســان وأرادت فلورنسا أن تعيد ابنها اليها ورفضت رافنا وتطور الامر وتدخل البـابا ليو العـاشر فوافقت رافنا ونقلت رفاة دانتي الى فلورنسا ونقش على قبره : « انها الاهواء الحزبية هي التي حكمت عليه بالنفي الدائم وليست فلورنسا »(٥) •

وشيدت فلورنسا لدانتي قبرا وضعت عليه تمثال الشاعر والى يمينه تمثال سيدة ترمز لايطاليا ، والى يساره تمثال لسيدة أخرى تمثل فلورنسا وهي منحنية الى أسفل التابوت باكية جحودها ونكرانها للشاعر العظيم ·

عبقرية دانتي :

بالرغم من أن كثيرا من الفلاسفة والكتاب قد كتبوا عن عالم ما بعد الحياة وبالرغم من الجدل الذي قام في البلدان المختلفة عن تأثر دانتي بغيره وخاصة في البلدان العربية ومحاولات المقارنة بينه وبين أبي العلاء أو تأثره بابن العربي أو بابن رشد ، الا أن الشيء الذي لا يشك فيه الباحثون هو أن دانتي كتب الكوميديا باسلوب جديد · فلقد كانت الكوميديا فنا جديدا في محتواها ومضمونها وترتيبها ·

ولقـــد كان دانتي وما زال محور دراســـات الآلاف من البـاحثين والكتاب · وان مدى اهتمام الباحثين به يظهر في هذه الكلمات التي وردت في كتـاب الدكتور حسن عثمان (الكوميديا الالهيـة) : « وعنـدما أراد ديلاردفيسكي أن يضم بعض المؤلفات والمراجع الدانتية الى مكتبة جامعة كورنيـل بالولايات المتحدة توقـع أن ما سيجمعه عن دانتي حوالي ٤٠٠ كتاب ، وعندما بحث عن تلك المؤلفات والكتب أدهشه أن يجد ما يزيد على ٧ آلاف مرجع عن دانتي » ·

كلمـــة :

ان ما أردته من هذه المقالة الموجزة عن حياة دانتي أن أوضح بعض ملامح الصورة لحيـاة شـاعر عبقري استطاع أن يستقطب اهتمام آلاف الباحثين مع ادراكي أن الناس فريقان · الاول يكتفي من الصورة بملامحها بمجرد نظرة عابرة اليها والثاني يأبى الا أن يغوص في الاعماق باحثا وراء التفاصيل ·· وعذري للفريق الاخر ان من اراد الكتابة عن دانتي لا تكفيه صفحات المجلة كلها ·

Whitfield—J. Dante and Virgil-London-1949. p. 14

(١) المعروف ان فرجيليو لم يصحب دانتي الى الجنة لانه لم يعمد على اعتبار انه ولد قبـــل مولد المسيح ··

The Knowledge Magazin. No. 61. 1964. p. 3.

(2) Barbi—Michele—Life & Dante—California—1960 p. 6.

(3) Barbi—Michele—Life & Dante—California—1960 p. 8.

(٤) عثمان ـ حسن ـ الكوميديا الالهية ـ القاهرة ـ ١٩٥٥ ص٣٥

(٥) حسن عثمان ـ حسن ـ نفس المصدر ـ ص٣٤

المراجـــع :

(1) Barbi—Michele—Life of Dante—California—1960.

(2) Whitfield—J.—Dante and Virgil—London—1949.

(٣) عثمان ـ حسن ـ الكوميديا الالهية ـ القاهرة ـ سنة ١٩٥٥

مآثر البتاني
في الرياضيات والفلك

محي هلال السرحان

آراء بعض الباحثين والمؤرخين في البتاني :

« من الفلكيين العشرين المبرزين الذين انجبتهم الانسانية عند خلق الله الخلق حتى الآن » (لالاند)

« من أكبر علماء الفلك عند العرب » (نيللينو)

« من اعظم علماء عصره وانبغ علماء العرب في الفلك والرياضيات » (سارتون)

« من اقدر علماء الرصد » (كاجوري)

« من علماء الفلك والرياضيات المشهورين » (هاليه)

« على حين يبهرنا بعد قليل احد الاسماء العظام في علم الفلك العربي وهو ابو عبدالله محمد بن جابر بن سنان البتاني ... ويعد عمله العظيم احد الاعمال المحصورة العدد .. » (ألدو ميبلي)

« كان له من الشأن بين العرب ماللبطليموس بين الاغريق » (لوبون)

« وكان معلم اوروبا في هذا الميدان اثنين من اقدم الفلكيين المسلمين وهما الفرغاني والبتاني واللذين تمتعا بشهرة ذائعة تحت اسمي الفراجانوس Alfraganius والباتيجينوس Albategnius » (ي. هل)

« ادخل حساب المثلثات العربي الى انجلترا » (ديورانت)

« ان علماء الرياضيات لم يتوصلوا الى اكتشاف الظل الا بعد البتاني بخمسمائة عام ويعزى هذا الاكتشاف الى ريجيو مونتانوس ، لكن كوبر نيكوس الذى عاش بعده بمائة عام لم يكن عنده علم بذلك » (م. تشارلس)

« ومن عباقرة الفلكيين المسلمين ابن جابر البتاني ... وهو في قمة من نبغوا في علم المثلثات » (م. م. شاريف)

« ومن الجيل الثاني يبرز احد مشاهير علماء الشرق وربما كان العالم - الذى اعجب به الباحثون اللاتين في القرون الوسطى واغدقوا الثناء عليه اكثر من غيره هو البتاني » (كارا دى فو)

« واول الخطوات التي اتخذت في هذا العلم - المثلثات - يرجع تاريخها الى البتاني » (حيدر بامات)

« احد المهرة برصد الكواكب والمتقدمين في علم الفلسفة وهيئة الافلاك وحساب النجوم وصناعة الاحكام » (القاضى صاعد)

« احد المشهورين برصد الكواكب والمتقدمين في علم الهندسة وهيئة الافلاك وحساب النجوم وصناعة الاحكام » (القفطى)

« البتاني من عباقرة العالم الذين وضعوا نظريات هامة واضافوا بحوثا مبتكرة في الفلك والجبر والمثلثات » (قدرى حافظ طوقان)

« كان في علمه اسمى مكانة من بطليموس » (محمد مسعود)

« بطليموس العرب » (بعض الباحثين)

« وهو بلا جدال اعظم فلكي في قومه وعصره بل هو من اعظم فلكيي الاسلام » (فيليب حتي)

« ومن العلماء الذين خلدت اسماؤهم ... البتاني اعظم علماء عصره واحد اعلام الفلك عند العرب » (امام ابراهيم احمد)

« وكان اوحد عصره في فنه » (جرجي زيدان)

ملخص ترجمة حياته

ولد ابو عبدالله محمد بن جابر بن سنان الحراني الصابيء المعروف بالبتاني قبل سنة (٢٤٤هـ ٨٥٨م) في بتان من نواحي حران وهو من اسرة تدين بدين الصابئة ولهذا عرف بالصابيء مع انه كان مسلما . سكن الرقه على الفرات حيث نزلت اسر حرانية كثيرة ... قضى فيها بقية عمره بين الدراسة والرصد والتأليف .. ورد الى بغداد مع بني الزيات من اهل الرقة في ظلامات كانت لهم فلما رجع مات في طريقه بقصر الجص سنة (٣١٧هـ ٩٢٩م)

مؤلفاته :

للبتاني مؤلفات قليلة ولكنها عظيمة الاهمية في علمي الفلك والرياضيات وهى : -

١ - كتاب معرفة مطالع البروج فيما بين ارباع الفلك

٢ - رسالة في تحقيق اقدار الاتصالات

٣ - شرح المقالات الاربع لبطليموس (ولم يذكره ابن النديم في الفهرست)

٤ ـ ثلاث رسائل في التنجيم ذكرها (نيللينو) وقال عنها انها نسبت خطأ الى البتاني ٠

٥ ـ كتاب (الزيج[1] الصابيء) وهو اعظم تصانيفه ٠٠ ولم يصل الينا غيره ولكنه ذو اهمية بالغة في علم الفلك والرياضيات ٠

كتاب الزيج الصابيء

جمع البتاني في زيجه الذي عرف (بالزيج[1] الصابيء) نتائج ارصاده الدقيقة المبنية على الملاحظة والتجربة الطويلة ولذا كان من اصح الازياج وأدقها حتى قيل ان هذا الزيج اصح من ازياج بطليموس ٠٠ قال (نيللينو):

« وقد كان له اثر لا في علم الفلك عند العرب بل فيه وفي حساب المثلثات الكري عامة في اوروبا خلال العصور الوسطى واول عصر النهضة ٠٠ »

وقد اعترف « بول » بان الزيج الصابيء من انفس الكتب ٠٠

وقال عنه (لوبون) : « احتوى كتاب الزيج الصابيء على معارف زمنه الفلكية كما احتوى كتاب بطليموس »

ولاجله احتل البتاني مكانة بين العلماء عامة و « اعجب به الباحثون اللاتين في القرون الوسطى واغدقوا عليه الثناء اكثر من غيره » كما يقول (كارا دي فو)

وقال (م٠ م٠ شاريف) : « ومن عباقرة الفلكيين المسلمين ابن جابر البتاني ويعترف البحاثة الغربيون بانه اصلح كثيرا من ابحاث بطليموس الفلكية » ٠

ونظرا لاهميته العظيمة واثره الكبير فقد توافر عليه مترجمون كثيرون لنقله الى اللغات الاجنبية منذ سنة ١١٤٣م اذ ترجم الى اللاتينية فياسبانيا، واهتم به الغربيون كثيرا منذ ذلك الوقت فنشروه لديهم منذ وقت مبكر ايضا فقد نشر المتن من غير الجداول في نورمبرغ عام ١٥٣٧م وفيبولونيا عام ١٦٤٥م ٠

---

(١) الزيج : مأخوذة من كلمة (زيك) الفارسية ومعناها السدى الذي ينسج فيه لحمة النسيج وقد أطلقت على الجداول لان خطوطها الرأسية تشبه خيوط السدى ٠ قال ابن خلدون في شرح الازياج : « ومن فروعه ـ أي علم الهيئة ـ علم الازياج وهي صناعة حسابية على قوانين عددية فيما يخص كل كوكب من طريق حركته وما أدى اليه برهان الهيئة في وضعه من سرعة وبطء واستقامة ورجوع وغير ذلك يعرف به مواضع الكواكب في افلاكها لاى وقت فرض من قبل حسبان حركاتها على تلك القوانين المستخرجة من كتب الهيئة ٠ ولهذه الصناعة قوانين كالمقدمات والاصول لها في معرفة الشهور والايام والتواريخ الماضية واصول متقررة من معرفة الاوج والحضيض والميول واصناف الحركات واستخراج بعضها من بعض يضعونها في جداول مرتبة تسهيلا على المتعلمين وتسمى الازياج ٠٠ » انظر المقدمة (طبعة دار الكشاف) جـ ٢ ص ٤٨٨ ـ ٤٨٩ ٠

وأمر (الفونس العاشر) صاحب قشستاله (١٢٥٢م ــ ١٢٨٢م) بترجمته من العربية الى الاسبانية رأسا • ولهذه الترجمة مخطوط غير كامل في باريس ، وقد طبعت الترجمة عدة طبعات مصححة مع تعليقات على بعض بحوثها سنة ١٦٤٦م

ولكثرة الترجمات لم يصل النص الاصلي لازياجه التى لم تعرفها اوربا الا من خلال ترجمتها المحرفه كما يقول (لوبون)

وقد طبعه العلامة (نيللينو) في رومه سنة ١٨٩٩م عن نسخة محفوظة في مكتبة الاسكوريال بالاندلس ، وهناك نسخة من هذا الزيج في مكتبة الفاتيكان ••

مآثر البتاني في الرياضيات

واليك الان اهم اعماله في الرياضيات :

١ ــ اول من عمل الجداول الرياضية لنظير المماس ومن المحتمل انه عرف قانون تناسب الجيوب كما يقول طوقان •

٢ ــ اعطى حلولا رائعة بوساطة المسقط التقريبي لمسائل في حساب المثلثات الكري ، ومعنى ذلك انه قد عرف معادلات المثلثات الكرية الاساسية وقد عرف هذه الحلول (ريجيو مونتانوس) المشهور ١٤٧٦م وسار على منهاجها كما يقول (نيللينو)

٣ ــ تمكن من إكتشاف قوانين ومعادلات مهمة تستعمل في حسابات المثلثات الكروية حتى قال (كارادى فو) بعد شرح تلك المعادلات والقوانين :

« وهذا مما يجعلنا متقدمين بمسافة شاسعة عن المرحلة التي وصل اليها الاغريق ويفتح لنا في الواقع ابواب العلم الرياضى الحديث على مصاريعها » •

٤ ــ ادخل الجيب في حساب المثلثات واستعمله بدلا من وتر مضاعف القوس واوجد اصطلاح جيب تمام •

٥ ــ استخدم الخطوط المماسة للاقواس وادخلها في حساب الارباع الشمسية وسماها (الظل الممدود) وهو معروف (بخط المماس) كما يقول الاستاذ طوقان •

٦ ــ حل بعض العمليات الهندسية بطريقة الجبر كايجاد قيم الزوايا وغير ذلك •

٧ ــ ادرك علاقتين او ثلاثا رئيسة من علاقات النسب المثلثية ••

٨ ــ نشر وبسط اوائل علم النسب المثلثية كما نستعملها اليوم وقد مر بنا استعماله الجيب بدلا من وتر مضاعف القوس وغير ذلك قال (كارادي فو) :

« ولكن القسم الاكبر من شهرته يعود بدون شك الى اكتشافه او على الاقل نشره وتبسيطه اوائل علم النسب المثلثية كما نستعملها اليوم »

وقال (م. م. شاريف) : « وفي قمة من نبغوا في هذا العلم البتاني الذي اكتشف غالبية النسب المثلثية الاساسية كما نستخدمها في وقتنا الحاضر وهو اول من حسب قيمة الزاوية (هـ ∅) من المعادلة :

$$\frac{\text{حا هـ}}{\text{جتا هـ}} = \text{ظا هـ}$$

وهو الذي كون المعادلة :

جتا ا = جتا ب جتا حـ + حا حـ جتا ا للمثلث الكرى

مآثره في علم الفلك

اما مآثره في علم الفلك فلا تقل اهمية عن مآثره في الرياضيات واليك بعضا منها :

١ ـ حدد في كثير من الدقة ميل الدائرة الكسوفية او ميل دائرة فلك البروج بـ (٢٣ درجة) و (٣٥ دقيقة) وقد قام الفلكي المشهور (لالاند) بحساب ذلك الميل بعد ما يقارب الألف سنة من وفاة البتاني فوجد انه (٢٣ درجة) و (٣٥ دقيقة) و (٤١ ثانية) وبذلك تتضح لنا قصارى الدقة في زمن لم تكن توجد فيه آلات فلكية دقيقة

٢ ـ اول من كشف السمت والنظير وحدد نقطتيهما من السماء

٣ ـ دقق في حساب طول السنة الشمسية فتوصل الى نتيجة تختلف عن الطول الحقيقي بمقدار دقيقتين و (٢٢) ثانية . وقد حددكذلك طول السنة في الاقاليم الاستوائية وطول الفصول الاربعة كما يقول (م. م. شاريف)

٤ ـ حدد المدار الحقيقي والمتوسط والاوج للشمس اي بحث فيمعدل دائرة الفلك الذي تجرى فيه الشمس مع ايضاح حقيقته .

٥ ـ هدم مذهب بطليموس القائل « بثبات الاوج الشمسي مقيما الدليل على تبعيته لحركة المبادرة الاعتدالية واستنتج من ذلك ان معادلة الزمن تتغير تغيرا بطيئا على مر الاجيال وضبط تقدير بطليموس لحركة المبادرة الاعتدالية »

٦ ـ برهن نظريا « واثبت على عكس ما ذهب اليه بطليموس تغير القطر الزاوي الظاهري للشمس واحتمال حدوث الكسوف الحلقي »

٧ ـ « ضبط جملة من حركات القمر والكواكب السيارة »

٨ ـ « استنبط نظرية جديدة تشف عن شيء كثير من الحذق وسعة الحيلة لبيان الاحوال التي يرى بها القمر عند ولادته » .

٩ ـ حدد طول السنة النجومية وهي المدة التي تقطعها الشمس حتى عودتها الى مكانها بين النجوم ·

١٠ ـ « له رصود جليلة للكسوف والخسوف اعتمد عليها (دنثورن) سنة ١٧٤٩م في تحديد تسارع القمر في حركته خلال قرن من الزمان »

١١ ـ عين بارصاده الدقيقة وجداوله المتقنة عددا من الثوابت الفلكية الى درجة كبيرة من الدقة وقد ضمن كتاب الزيج الصابىء جميع ارصاد الكواكب الثابتة لسنة (٢٩٩هـ ٩١١م) وهي مرجع فلكي يرجع اليه في معرفة احوال الكواكب ومواقعها والوانها وابعادها ومداراتهاوافلاكها وغير ذلك ···

وبعد : فهذا عالم من علمائنا اقتدى به الغرب ففازوا ونهضوا فهلا اقتدينا بعمله العظيم ودأبه المتواصل الذى ابتدأ به كما يقول ابن النديم في سنة ٢٦٤هـ وانتهى منه في سنة ٣٠٦هـ اي مدة (٤٢ سنة) ··! وهى مدة طويلة جدا في عمر الرجال ··!

من مصادر البحث

١ ـ ألدو ميلي : العلم عند العرب واثره في تطور العلم العالمي :ترجمة الدكتور عبدالحليم النجار والدكتور محمد يوسف موسى (دار العلم ط١ ١٩٦٢) ص١٥٥ ـ ١٥٦ و١٦٨ ·

٢ ـ السنيور كرلو نيللينو : علم الفلك تاريخه عند العرب في القرون الوسطى (رومه ١٩١١)

٣ ـ البارون كارادي فو : الفلك والرياضيات مقال من كتاب تراث الاسلام لجمهره من المستشرقين باشراف السر توماس ارنولد تعريب جرجيس فتح الله المحامي (المطبعة العصرية الموصل ١٩٥٤) جـ١ ص٢٢٧ و٢٤٢ ـ ٢٤٤

٤ ـ غوستاف لوبون : حضارة العرب ترجمة عادل زعيتر ط٣ (القاهرة دار احياء الكتب ١٩٥٦) ص٤٥٧

٥ ـ ى· هل : الحضارة العربية ترجمة الدكتور ابراهيم احمد العدوي سلسلة الالف كتاب رقم ٨٨ نشرته مكتبة الانجلو المصرية ص١١٠ ـ ١١١

٦ ـ م· م· شاريف : الفكر الاسلامي ترجمة الدكتور احمد شلبي (القاهرة ـ دار الطباعة الحديثة ١٩٦٢) ص٧٧ ـ ٧٨ وص٨٤

٧ ـ جمهرة من المستشرقين : دائرة المعارف الاسلامية تعريببجماعة من المصريين مادة : (بتاني) ط١ (١٩٣٧ القاهرة) مجلد٣ ص٣٣٦ ـ٣٣٨

٨ ـ الدكتور امام ابراهيم أحمد : تاريخ الفلك عندالعرب: سلسلةالمكتبة

الثقافية التي تصدرها وزارة الثقافة والارشاد القومي بالجمهورية العربية المتحدة رقم ٢٥

٩ ــ اسماعيل مظهر : سير ملهمة من الشرق والغرب القسم الاول الخاص بالمؤلف (مطبعة مصر ١٩٦١) ص٢١

١٠ ــ ابن النديم : الفهرسست (مطبعة الاستقامة بالقاهرة) ٤٠٣ ــ ٤٠٤

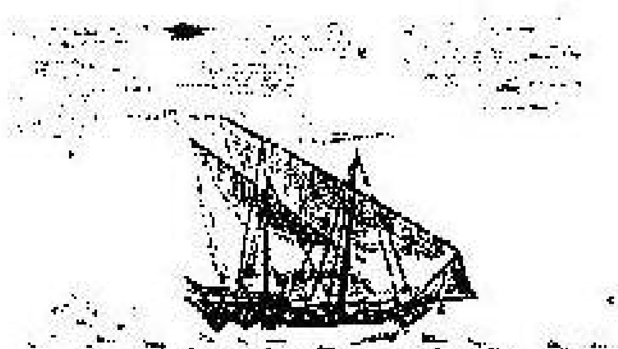
١١ ــ قدري حافظ طوقان : تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك (القاهرة مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ١٩٥٤) ط٢ ص ٢٠٩ ــ ٢١٦

١٢ ــ قدري حافظ طوقان : العلوم عند العرب سلسلة الالف كتاب رقم ٤ (مكتبة مصر) ١٢٢ ــ ١٢٥

١٣ ــ منصور حنا جرداق : مآثر العرب في الرياضيات والفلك (المطبعة الاميركانية بيروت ١٩٣٧)

١٤ ــ الدكتور فيليب حتي والدكتور ادوار جرجي والدكتورجبرائيل جبور : تاريخ العرب (مطول) ط٣ (بيروت دار الكشاف ١٩٦١) ص ٤٥٩ ــ ٤٦٠

١٥ ــ دائرتا المعارف لوجدي والبستاني والاعلام للزركلي ووفيات الاعيان لابن خلكان وأخبار الحكماء للقفطي وقصة الحضارة لديورانت ، والمقدمة لابن خلدون ..



محمد مهدي البصير شاعر الثورة العراقية

رؤوف الواعظ

صفحة أخرى من صفحات كفاح العراق العربي ، صفحة حدد فوقها الشعب العراقي الاطار الجديد لمعركته المصيرية ، وأكد فيها وعيه التاريخي ، وقدرته على التحرك الى صورة أبرزت وجوده القومي ونظمت مرحلة حياتية جديدة من مراحل الانطلاق والتطلع نحو مضمون تقدمي متحرر من أصفاد الاستعمار ، وأغلال عملائه ومأجوريه ·

وهذا حديث عن شاعر ، هو بحق (شاعر الثورة العراقية) ، محمد مهدي البصير ، الذي سجلها في شعره خير تسجيل ، وأودع في أبياته وألفاظه جمرات متقدة ، ونفخ فيها من روحه ، فكانت نارا ملتهبة تلفح وجوه الانكليز الغادرين ·

ولم يكن البصير هو شاعر الثورة الوحيد · فاني أكاد أقول أن أغلب الشعراء العرب في العراق ـ وهم كثيرون ـ قد نظموا فيها ، وسجلوا وقائعها ، ودعوا الشعب الى رفع السلاح في وجوه الطامعين الغاصبين ·· ولكن البصير ، فيما نرى ، كان أقدرهم على تصوير هذه الحرب ، وأكثرهم حماسا في شعره الثوري هذا ، بل قد يكون أكثرهم صدقا في نضاله ·· وفي تعبيره ·

الثورة العراقية في سطور :

كان العراق بولاياته الثلاث ، بغداد والبصرة والموصل ، تابعا للحكم العثماني منذ أن تم الاستيلاء عليه من قبل سليمان القانوني عام ٩٢١هـ (١٥٣٤م) · ولكن العراق لم يخضع نهائيا لنفوذ الحكومة العثمانية الا على يد السلطان مراد الرابع سنة ١٠٤٨هـ ·

وقد ظل الولاة العثمانيون يتعاقبون على حكم العراق حتى الحرب العالمية الاولى · اذ كان من نتيجة تلك الحرب أن انتقل العراق من السيطرة التركية الى الاستعمار البريطاني ، على اثر سقوطها في هذه الحرب التي وقفت فيها الى جانب المانيا ·

وحري بنا أن نذكر هنا ، أنه قد كان للانجليز مطامع في العراق منذ زمن بعيد ، اذ ترتقي العلاقات الانكليزية بالعراق الى فجر القرن السابع عشر للميلاد ، بعد أن تأسست شركة الهند الشرقية عام ١٦٠٠م ، وكان

الدافع لهذا التأسيس هو المحافظة على طريق الهند ، أكبر درة في التـــاج البريطـــاني ٠

كما أن هناك عوامل أخرى اغرت بريطانيا للسيطرة على العراق ، منها نفطه الغزير ، ومنها خصوبة أرضه ووفرة المواد الغذائية فيه ٠ مما جعل اهتمام بريطانيا بالعراق يتزايد يوما بعد يوم ازديادا مطردا ٠

وحينما دقت أجراس الحرب العالمية الاولى ، ولبس كل من الفريقين المتحاربين دروع القتال ، اهتبلت بريطانيا هذه الحرب لكي تحقق بواسطة قواتها العسـكرية الاهداف والمرامي التي كانت تسـعى اليهـا جاهـدة في العراق منذ أمد بعيد ٠

وكانت بريطانيا قد عقدت معاهدة سرية في ١٦ ايار (مارس) سنة ١٩١٦ مع حليفتها فرنسا سميت بمعاهدة (سايكس ـ بيكو) المشهورة ، والتي تقرر فيها ـ في جملة ما تقرر ـ أن يكون العراق ضمن نفوذ بريطانيا فيما لو ربحت دول الحلفاء هذه الحرب ٠

استولى الانكليز على العراق كله بعد قتال عنيف مع القوات التركية استمر أكثر من أربع سنوات ٠ وحينما وصل جيشهم الى بغداد ، أعلن قائد الجيش الانكليزي الجنرال مود « ان الانكليز لم يدخلوا دار السلام قاهرين أو أعداء فاتحين ، بل جاؤوها منقذين ومحررين » ٠

ويمضي الزمن بطيئا ثقيلا ، ووطأة الاستعمار الجديد تتكشف الحقيقة للرأي العـام العراقي يوما بعـد يوم ٠ ولذلك اندفـع العراقيون يطالبون الانكليز بتحقيق ما كانوا قـد تعهـدوا به ، وهـو منـح العراق استقلاله والمحافظة على وحدته وكيانه ٠

ولما تلكأ الانكليز في تحقيق هذا المطلب الحيوي ، قرر العراقيون أن ينالوا استقلالهم المنشود بحد السيف ، بعد أن خذلهم المستعمرون الجدد في نيل هذا الاستقلال عن طريق الوعود الخلابة والكلمات المعسولة ٠

وكـانت ثورة الثلاثين من حزيران (يونيو) من عـام ١٩٢٠ ، أو الثورة العراقية كما اشتهرت بذلك وعرفت ٠٠ ثورة اجتاحت العراق كله من شماله حتى جنوبه ، واستمرت عدة أشهر ٠ ولكن الغلبة العسكرية فيها كانت للانكليز الغادرين ٠

وشاعرنا محمد مهدي البصير هو شاعر هـــذه الثورة المجيـدة بلا منازع ٠ وكما انه كان شاعر الثورة ، فانه كان خطيبها أيضا ، وكان كذلك مؤرخها ٠ ذلك أنه دون أحداث هذه الثورة ووقائعها وماجرياتها في كتاب لا يزال يعتبر من المراجع الاساسية لهذه الثورة ، الا وهو كتاب (القضية العراقية) ٠

لقد أودع البصير شعره هذا في ديوان سماه (البركان) ٠ ويكفينا للدلالة على معرفة سمات هـذا الديوان وشرايينه الثورية ، هـو قوله في الاهداء ، اهداء الديوان ، (الى الذين كتبوا صك استقلال العراق بدمائهم ،

أهدي هذه المجموعة المتواضعة من القريض)

وعلى ضوء مسيرة الثورة نقول ان الشعراء لم يكونوا ، بادئ ذي بدء ، بقادرين على الجهر بآرائهم الثورية هذه ، خوفا من بطش السلطات الاستعمارية الغادرة . وانما كانوا يتخذون من المناسبات الدينية والعلمية ميدانا لتسرب هذه الاراء الثورية ، والافكار التحررية ، التي كانت تتنادى بانكار حق الوصاية البريطانية ، او الانتداب البريطاني .

وهنا يقص علينا البصير ان المدرسة الحسينية حين افتتحت في ٧ أيار من سنة ١٩٢٠ ، طلب اليه ان يلقى قصيدة بمناسبة هذا الافتتاح ، فنظم قصيدة ثورية بعنوان (باعث الغضب) ، والقاها تحت ستار العلم ،منددا بالاستعمار ، طالبا الى شعبه الا يستكين الى الانكليز وظلمهم ، وانما من واجبه الحتمي ان ينال حقه المغتصب ، مهما كلفه ذلك من اعلاق النفوس وفي هذه القصيدة يقول :

يا صاحبي وهذي الضاد قد جمعت	أبناءها والعلى منهم على كثب
أيقدمون وهم احمى الرجال حمى	أم يحجمون وهذا أكبر العجب
فلا صغار اذا هم دونها ثبتوا	ولا فخار اذا ألووا على رهب
ولن يصان لليث الغاب مربضه	من الذئاب لو أن الليث لم يثب
ولا ألوم قويا في تشكره	ان قال لا حكم الا في يد الغلب
لكنما كل ذمي للضعيف اذا	رام الحياة بلا كد ولا تعب

وينتهي الى القول :

ولا حياة لنفس لا يحركها	الى الحماسة يوما باعث الغضب
لا حق للمرء في مجد يحاوله	ان شح بالنفس أو انضن بالنشب

ويتحرك الشعب للنضال ، وينطلق في ثورة عارمة ، مؤكدا حق العراق في الحرية والاستقلال . ويمضي البصير ثائرا مع الشعب الثائر ، وهو لايفتأ ينادي بالاستقلال لوطنه ، محرضا الشعب على الثورة والنضال ، داعيا اياهم الى امتشاق الحسام والذود عن شرف الوطن وعزته وكبريائه . فمن العار كل العار ان يستكين الرجال ويذعنوا ، ومن الخزي كل الخزي ان تعنو هاماتهم لغاصبين ويخضعوا . ان مطالب الشعب لاتنال بالتمني ، وانما تؤخذبالثورة .. بالقتال .. بسحق جنود الاحتلال الذين وطئوا ارض العراق الطاهرة بأقدامهم الملوثة بالخزي والعار .

ومقطوعته (صرخة من دارالسلام) عنوان كبير لهذه المعاني الضخمة . وهي كما حكى لنا البصير ، قيلت على لسان مجاهدي بغداد يستنهض بها همم أحرار اواسط الفرات المشهور بعده وعدده ، وبشجاعته وبسالته .

ذلك ان البصير قد استنكر ان تظل هذه المنطقة من العراق هادئة صامتة ازاء الاضطرابات والمظاهرات التي حدثت في بغداد ، وانطلق فيها

الرصاص لاول مرة على المتظاهرين وذلك في ٧ رمضان ١٣٣٨ هـ الموافق ٢٥ أيار ١٩٢٠ ٠

وهذه المقطوعة خمسة أبيات نثبتها كاملة :

غضبنا فقمنا ثائرين لغاية ... تهون المنافي دونها والمشانق
ورددت الاجواء قصف زئيرنا ... فردت عليه بالدوي البنادق
فهل تنطق الزوراء وهي أسيرة ... وتسكت عما تبتغيه المناطق
أتمنع أبناء العمومة نصرها ... وها هي كادت أن تضيق المخانق
أما لهم من حكمة الرأي قائد ... وما لهم من قوة العزم سائق

وفي قصيدته المشهورة (لبيك ايها الوطن) يشير البصير الى غدر الانكليز بالعرب ، وكيف انهم نقضوا العهد الذى كانوا قد قطعوه على أنفسهم بتخليص العرب من الاستعمار التركي ، وتحقيق دولة عربية واحدة ذات سيادة ، اذا هم قدموا لهم كل عون ومساعدة في هذه الحرب ٠٠ وكان العرب عند قولهم ، ولكن الانكليز لحسوا وعودهم ، وتنكروا لمواثيقهم ، وأعلنوا غدرهم وخستهم ٠

وفي هذا يقول البصير :

كذبتك أقطاب السياسة عهدها ... فلتضمنن لك الحياة ضباكا
نقضت مطامعهم صداقتك التي ... عن أجنبيا عقدت لهم أعداكا
لو أنصفوك وفوا بعهدك انهم ... ربحوا قضيتهم بظل لواكا
أفيطلبون لك (الوصاية) ضلة ... ما كان أقصرهم وما احجاكا

اذن ، فلقد تنكر الانكليز للشعب العراقي ، وغدروا به ، ولذلك يثور البصير ثورة عارمة ، فينظم قصيدة كأنها الحمم تتساقط على جماجم الغاصبين المخادعين ، منها هذه الابيات :

خطب تهز الشعب هاتفة به ... ليهب هبة ناهض سباق
ويثور مشبوب العزيمة معلما ... والنصر فوق لوائه الخفاق
متطلعا للحق مفتديا له ... أزكى النفوس وأنفس الاعلاق
مستبسلا والهام تحصدها الظبا ... حصد الخريف ذوابل الاوراق
يبغي الحياة بثورة في ظلها ... يلقى الحمام بفرحة المشتاق
متكاتفا رغم المكايد واثقا ... بعزيز نصر الواحد الخلاق

وجدير بالذكر ان هذه القصيدة التي اثبتنا منها هذه الابيات ، والتي كان عنوانها (يا علم) . كانت من بين المستمسكات التي ابرزها القاضي البريطاني ، وحكم عليه بالحبس الشديد لمدة سنتين ، وبدفع غرامة قدرها ثلاثة الاف روبية ، اى خمسة وعشرون ومائتا دينار ٠ الا ان المندوب السامي

الذى احيل اليه هذا الحكم للمصادقة عليه استبدل به الحبس الشديد لمدة سنة واحدة فقط .

وحينما ثار العراقيون على الانكليز ، وتلاحم السيفان ، نظم البصير عدة قصائد اتسمت بطابع القوة والبأس . منها قصيدته المشهورة (وابيك ان الحق غالب) التي انشدها في حفلة ثورية كبرى اقيمت بجامع الحيدرخانة ببغداد ، بعد أن استولى الثوار على النجف وكربلاء وعلى مدن اخرى في اواسط الفرات وعلى دلتاوه وبعقوبة في ديالى .

وقد استهلها بقوله :

بين الاسنة والقواضب … شرف المبادىء والعواقب

وفيها يصف انتصار الثوار فيقول :

فاض الفرات حجافلا … وجرى ديالى بالمقانب
واحتلت المدن العديدة … فهي في حكم المضارب
أهلا بخافقة البنود … تظل زاحفة المواكب
أهلا بلامعة السيوف … كأنها الشهب الثواقب
أهلا بأبطال البلاد … حماتها عند النوائب
ردوا لنا الحق الذي … ما ان نزال به نطالب
ردوه ان سيوفكم … عوذ له من كل غاصب

وفيها يتحدث عن الانكليز قائلا :

ظنوا العراق فريسة … وقد انشبت فيها المخالب
ورأوه حر الراي عف … القصد محترم المذاهب
فتسلحوا لرجاله … بمكائد الخصم المو ارب
وسعوا لشق صفوفه … مكرا فكان السعي خائب
حتى اذا ما جاش كالتيار … ملتطم الغوارب
كانوا كناكصة الذئاب … يشلها الاسد المغاضب
وتراجعوا من بين مقتول … ومأسور وهارب

واذا كان الانكليز قد تراجعوا من بين مقتول ومأسور وهارب في واقعة من واقعات هذه الحرب ، الا ان الثورة انتهت الى غير ما كان يطمح العراقيون الاحرار ويبتغون .

وليس بمستغرب ان يخسروا معركتهم الرهيبة هذه ضد دولة كبيرة تملك قوة وبأسا . ولكن يكفي العراقيين فخرا انهم خاضوا غمار القتال ، واقتحموا أستار القتام ، ضد هذه الدولة القوية ، وهم على علم بقوتها وبطشها . اذ من الواضح الجلي ان هذه الثورة كانت ثورة كرامة وشرف ، وليست قط نزالا متكافئا بحال من الاحوال .

ولكن اليأس والقنوط يملآن النفوس ، ويثبطان العزائم · وهنا ينبري الشعراء للحث على احتمال المصاعب والمكاره ··· ويقول البصير :

بكيت لما انتـاب البـلاد فراعها ... من الشكل لما فات أحرارها النصر
أما كنت تـدري ان ذلك واقـع ... اذا فشلت في قومك الوثبة البـكر
فكفكف دموعـا لسـت ممن يزيلها ... أتطفىء اشجانا يضيق بها الصدر
وعـذ بجميل الصبر انك أهـلـه ... فمالك في شـكوى تبوح بها عذر
وان أنت لم تملك دموعك صـابرا ... فما أنت عنـدي ذلك الباسل الحر

وما احسنه حيث يقول :

هون عليك فلا تفزعك ان طرقت ... دهم الخطوب وان جل الذي دهما
فما استطالت الى المجـد الاثيل يد ... لاتنتضي السيف أو لاتحمل القلما

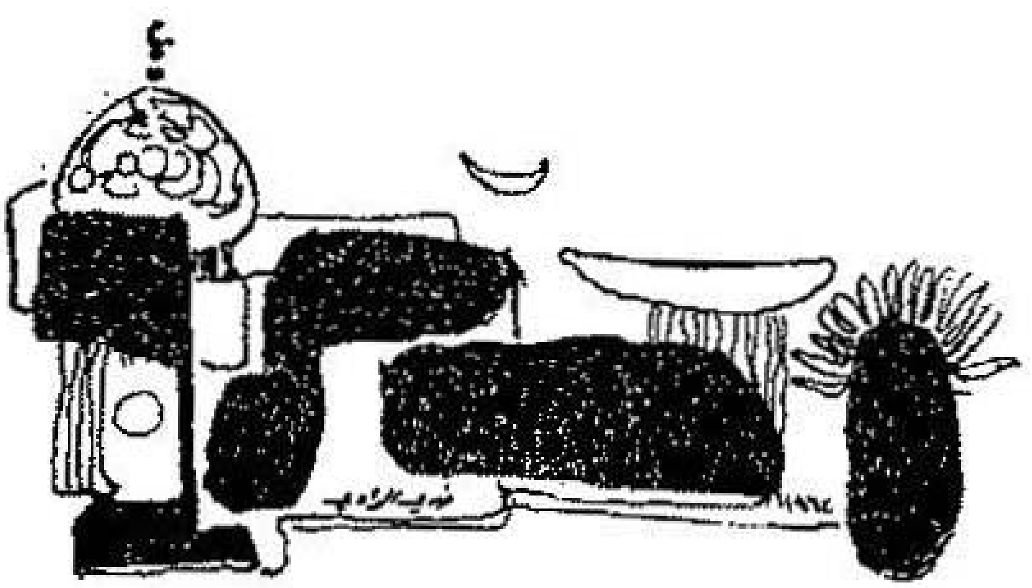
ولكن الخطوب داهمت شاعرنا نفسه ، ذلك ان سلطات الاحتـــلال حسبته خطرا على الامن والاستقرار في البلاد ، فأمرت بنفيه الى خارج العراق ··· الى (هنجام) ، مع نفر من اخوانه المجاهدين ·

فهل سكت العراقيون ، هل استكانوا ؟!

كلا ·· ثم كلا ·

وايدهم الله بنصر من عنده ··

وانتصـروا ·



الشاعر والمعركة

محمد جميل شلش

ضمد بشائرة جراحك   واحمل لنازلة سلاحك
واعصف فلن يهوى الكفاح   نسيم روضك ، أو رياحك
واسفح لظاك على دجى   باغ ، أطلت به نواحك
واصبغ بمعركة الحياة   جناح شعبك ، لا جناحك
وابسم لناغرة الجراح   فإن في فمها صباحك

●

جند قصيدك يا أخي   وابعث كاعصار كفاحك
واكتب لنازفة الدماء   وخل زهرك ، أو أقاحك
فلقد أبحت حماك   للباغي ، ذليلا ، فاستباحك
وأرحت نفسك بالنواح   فما استرحت ، ولا أراحك
وسكنت داجية الكهوف   كأن من حطب سلاحك

●

جند قصيدك يا أخي   واغسل بنار الوغى ساحك
واستنشق البارود عطر   بطولة ، واحضن جراحك
وابعث حياة في الحياة   جديدة ، واركز رماحك
واذا ازدهى فجر الفلاح   وصفت من نور فلاحك
واختال نيسان العروبة   وارتشفت لديه راحك
ته كالربيع غضارة   والبس كبرديه وشاحك
وانشر على الدنيا وللدنيا   كما تهوى .. جناحك

لقاء مع الفنان



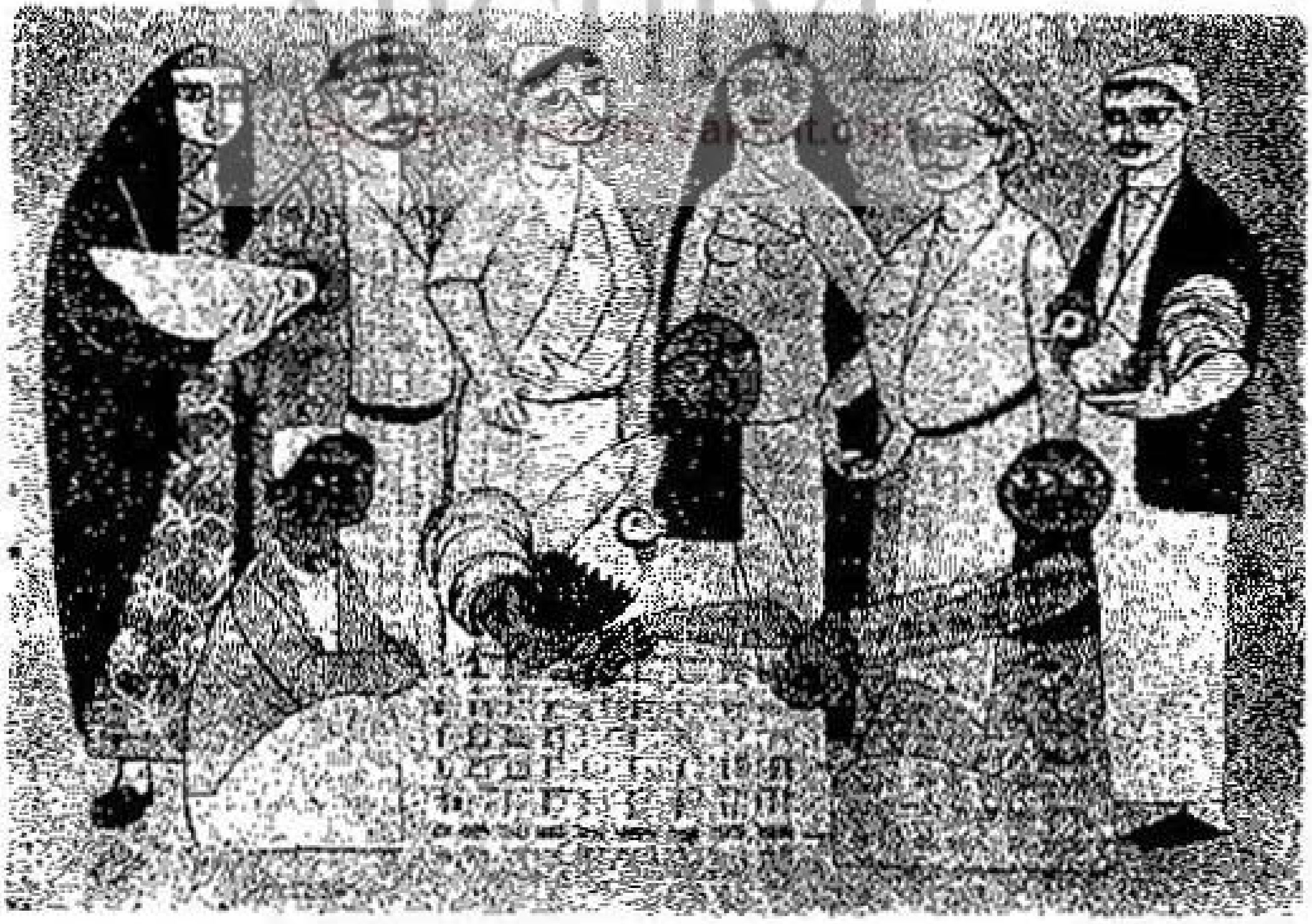
فرج عبو

كان لقاء هذا الجزء من الاقلام مع الاستاذ الفنان فرج عبو النعمان . وقد استعرض الفنان النعمان في حديثه للأقلام حركة فن الرسم في العراق والوسائل التي تأخذ بيد الفنان العراقي لتحقيق المستوى الأفضل الذي ينشده وغير هذه وتلك من موضوعات الساعة الفنية .

قال الفنان النعمان :

ان تطور الحركة الفنية للفنون التشكيلية تبينت معالمها بين البعض من الشباب العرب الذين درسوا في الكلية العسكرية بالاستانة قبل الحرب العالمية الاولى وكانوا هواة • ولما تشكلت الحكومة العراقية وجيشها سنة ١٩٢١ رجع هؤلاء لضباط والتحقوا بجيشنا الحديث وكان منهم سليمان بك الكردي وعبدالقادر رسام والحاج سليم السيد علي الجبوري (والد المرحوم جواد سليم) والاساتذة الاحياء ومنهم السيد صالح زكي (أبو زيد) والاستاذ عاصم حافظ شيخ رسامي المدرسة الموصلية •

أما الرعيل الثاني والذي درس خارج العراق قبل وخلال الحرب العالمية وبعدها بقليل فمنهم فائق حسن وعطا صبري وحافظ الدروبي وجواد سليم وهؤلاء اشتغلوا كمحترفين في الفن فهم اما درسوه أو عملوا له • واشتغل بعضهم برفقة بعض الفنانين البولونيين خلال الحرب الثانية • وهؤلاء مروا مع جيوش الحلفاء خلال العراق آنذاك ، وهنا ظهرت مزايا الانطلاقات الابداعية المتأثرة بالتيارات الاوربية المختلفة مع التزام بالموضوعية العراقية وقد كانت بحق ثورة على المفهوم الاكاديمي ونسقه المتبع • واستمر البعض بالبأس أشكاله وموضوعاته حللا أوربية ولكنه تمسك بدرس واظهار الروح العراقية بموضوعتها الشعبية البدائية • وبعضهم رجع الى منابع المدرسة العراقية القديمة لما بين النهرين ثم



فرج عبو ـ سوق الدجاج

بوستر

١٩٦٣

لمدرسة بغداد والموصل في القرون الاسلامية الوسطى . وهكذا بدأت تظهر سحب التيارات العراقية الحديثة بأسلوب ظاهر المعالم مع مضمون وشكل عراقي . وقد أتت المحاولات اكلها ووضحت سمات فن عراقي أصيل متميز عن غيره من الفنون في البلاد العربية والاسلامية الاخرى . وانتشر هذا الفن في الداخل والخارج وراح الفنانون العراقيون ينتجبون أعمالا حديثة بخطى حثيثة . وراجت فكرة بالخارج تقول أن البلد الذي اسمه «العراق» فيه نبع غزير للفنون التشكيلية كغزارة النفط المستخرج من حقوله واستمرت بوادر المفاهيم الجديدة للفن ودخلت في كثير من أعمال الفنانين بلباقة قوامها بعث التراث القديم باصالة جديدة تتمشى وروح العصر ، شكلا وموضوعا وترصيعها بخلاصات المذاهب الاوربية المعاصرة مع المحافظة على ذاتية الفن العراقي .

وظهرت بعض الجماعات الصغيرة تعرض فنها ولكل منها اسلوبه الخاص ملتحفا ببعض أوليات الفلسفة البدائية للفن وهكذا كثرت المعارض الداخلية والخارجية جامعة أعمال الرسم والنحت على اختلاف مذاهبها .

وتكونت جماعات فنية حاولت أن تعرض المضمون والشكل بمزج المفاهيم السالفة . ومنهم جماعة بغداد للفن الحديث .

وهذه الجماعة بصفة خاصة تمسكت بالمضامين والاشكال العراقية المأخوذة من حياتنا الاجتماعية وتراثنا القديم .

وخلال فترة الحكم الوطني خطى الفن خطوات سريعة فائقة استجابة لروح العصر وهذه التطورات أخذت تظهر معالم المدرسة العراقية الحديثة بثوب جميل . وان كان لا يخلو من شوائب فهي كالماس الذي يحتاج الى صقل أكثر وأكثر .

وحينما كانت تعرض أعمال الفنانين العراقيين كانت تنال الاعجاب خارج العراق ويكتب عنها بجدية ونظرة محترمة .. ولكن يعيب علينا بعض مواطنينا ان العراق تأثر بالمدارس الاوربية . ولذا فقد تشوهت اصالته . أو بالاحرى ان فننا عراقيا « كما يجب » لم يتبلور حتى الآن ! . فأرد على ذلك بقولي : ان ذلك التأثر لم يكن غير قشرة ظاهرية . تقتضيها روح العصر الحديث ألبسناها لفننا ليس الا .

والواقع الذي يجدر ذكره أن بعض الفنانين الذين عملوا دائبين لرفع مكانة الفن العراقي . لم يحصلوا على مكانتهم اعتباطاً !. بل لمعت أسماؤهم بجدارة واستحقاق بمواصلة العمل من أجل الفن العراقي ولم يتهاونوا بذلك بل قدموا من التضحيات الشيء الكثير حتى أن بعضهم دفع حياته ثمنا لفنة كما حدث للمرحوم « جواد سليم » .

ومن المسلم به أن هذه الجهود لم تذهب هباء بل ساهمت في خلق فن العراق الحديث وعلى ذلك أتوجه للمسؤولية برجاء هو أن لا تترك هذه الثمرة بدون رعاية فأوجب ما يجب أن ترعاه الدولة هو حماية الفن والفنانين ومساعدتهم على انهاضه ودفعه الى الامام ويا حبذا لو نؤسس مجلسا لرعاية

الفنون الجميلة يعين الفنان على استغلال أوقاته بما هو نافع ومفيد • بل أن يتفرغ الفنان لحساب الدولة لينتج لشعبه وأمته ما استطاع الى ذلك سبيلا • اذ أن المسؤولية تقع علينا جميعا دولة وفنانين سواء بسواء •

وبناء على ما تقدم أرى ما يراه أغلب أساتذة الفن أن الحصيلة الفنية يجب أن تعرض سنويا في الداخل والخارج ففي الداخل تؤخذ أعمال الاساتذة المتفرغين للدولة وتعرض أعمالهم ومن ثم ترسل الى ايطاليا لعرضها في فينسيا في (معرض البيناله) وبذا نكسب ما يكسبه العالم من هذه المعارض •

وهنا أود أن أقول كلمة للشباب المتدفق حيوية وايمانا بفنه ووطنه ان عليهم أن يدرسوا وان يهضموا التجارب السابقة قبل أن يقلدوا أو يتأثروا بمعالم المدارس المعاصرة • اذ أن الفن لغة وهي ذات صفاة وطابع تعبر عن شعب ما أو أمة ما • ومن صفات هذه اللغة هي التعبير عن مداركنا وحسنا ومشاعرنا المحلية في الوطن الواحد • ومن هذه الصفات تتكون الصفات الانسانية العامة • فالواجب يدفعنا أن نتقن لغتنا أولا ثم لغة الغير ثانيا ولا بأس اذا ما اقتبسنا من غيرنا ولكن بلباقة وحسن ذوق • فما من حضارة كانت لوحدها دونما اقتباس من غيرها •

لذا فان عنصر الاصالة والتطوير الابداعي هو الجذر العميق الذي يجب البحث عنه في فننا وانمائه بشتى الطرق والوسائل وان تطوير الشكل بكل مفهومه أمر محتوم لفننا المعاصر • فكما ان مجتمعنا يتطور بسرعة فكذلك فننا • وبروح الجيل الجديد الذي يحس الحياة نستطيع ان نساهم في الحضارات العامة للامم وان نوجد لنا مكانة في ركبها الصاعد •

- ولد بالموصل سنة ١٩٣١ وتخرج في الاعدادية المركزية ببغداد سنة ١٩٣٩ •
- درس الرسم في كلية الفنون الجميلة بالقاهرة وتخرج سنة ١٩٥٠ •
- انهى دراسته الفنية باكاديمية الفنون الجميلة بروما وتخرج بدرجة شرف سنة ١٩٥٤ •
- اشتغل مدرسا للرسم طيلة حياته العملية وذلك في ثانوية الحلة ودار المعلمين في بعقوبة ومفتشا للرسم بالموصل واستاذا للرسم بمعهد الفنون الجميلة ببغداد وهو الآن سكرتير القسم العالي (معهد المدرسين) في معهد الفنون الجميلة كما انه استاذ الرسم فيه • وكذلك استاذ الرسم الفني في القسم المعماري في كلية الهندسة •
- اشترك في معارض الرسم في الداخل والخارج ومنها معارض جماعة بغداد منذ سنة ١٩٥٠ ومعارض جمعية الفنانين العراقيين منذ سنة ١٩٥٤ حتى الآن وفي الخارج اشترك في المعارض العراقية التي اقيمت في روما وفنيسيا للفنانين الاجانب والهند وامريكا والاتحاد السوفياتي والصين ويوغسلافيا وبلغاريا ومصر ولبنان •
- اقام معرضين شخصيين احدهما في القاهرة سنة ١٩٥٠ والآخر في بغداد (اورزدي باك ـ شركة المخازن العراقية) سنة ١٩٦٣ •
- ينحو بمذهبه الى احياء المدرسة العراقية القديمة باسلوب حديث مطابقة لروح العصر •

الجريح

للكاتب الامريكي

« جيمس بولدوين »

ترجمة

عبد الوهاب الأمين

« جيمس بولدوين من كتاب الطليعة الزنوج في الولايات المتحدة . وقد ولد في نيويورك وتخرج في ١٩٤٢ وساهم في الكتابة في عدد كبير من الصحف الادبية » .

رأى جون عندما عاد عصرا وهو يقترب من داره ، « سارة » الصغيرة وهي منفرجة الصدر ، تخرج طائرة من الدار وتتجه ركضا الى نهاية الشارع مبتعدة عنه وتدخل الصيدلية البعيدة ، فداخله الرعب رأسا ، ووقف لحظة يتأمل ما عسى أن يبرر هذه العجلة الهستيرية . لقد كان حقا أن « سارة » ملأى بالعجيب وتجعل من كل مهمة تقوم بها مثيرة وكأنها مسألة حياة أو موت .. وكيفما كان الحال فانها مرسلة في مهمة بلغ من سرعتها ان امها لم تتح لها الوقت لكي تشد لها أزار صدريتها .

ثم أصابه القلق . فان كان قد حدث حقا ما يسيء فان الامور ستكون على أسوئها فوق ، وهو لا يريد أن يواجهها ، أو لعل أمه قد أصابها صداع بسيط فأرسلت « سارة » الى الصيدلية لابتياع بعض الاسبرين . ولكن اذا كان ذلك هو الواقع فان عليه أن يهيء الغداء ، وأن يعني بالاطفال ، وأن يظل تحت سمع وبصر أبيه طيلة المساء .. وشرع يمشي ببطء أكثر .

كان هناك بعض الصبية في المنحنى ، فأخذوا ينظرون اليه وهو يقترب منهم ، فحاول أن لا ينظر اليهم وأن يخمن مدى تظاهرهم فقال أحدهم عندما صعد جون الدرجات الحجرية ودخل البهو :

ـ يا فتى أن أخاك قد أصيب اصابة سيئة هذا اليوم . فنظر اليهم بشيء من الرعب ولم يجرأ أن يسأل عن التفاصيل ، ولاحظ أنهم هم الاخرون ربما كانوا في معركة ، فقد كان في نظراتهم زيغ يوحي بأنهم ريعوا الى حد الهزيمة ، وهنا خفض بصره فرأى الدم على العتبة وعلى الارضية المبلطة بالقرميد في الدهليز ، فعاد ببصره الى الصبية الذين لم يكفوا عن النظر اليه وسارع في الصعود على درجات السلم .

كان الباب نصف مفتوح ـ لا شك انه وضع كذلك لكي تعود منه « سارة » ـ فدخل دون أن يحدث صوتاً ، وقد داخله شعور مضطرب بالرغبة في الهرب · ولم يكن هناك أحد في المطبخ ، بالرغم من أن الضوء مشتعل ، وكانت الانوار مضاءة في جميع أرجاء المنزل · وكان على منضدة المطبخ كيس للتسوق مليء بالبقاليات فعلم أن عمته فلورنس قد جاءت · وكان حوض الغسيل ، حيث كانت أمه تقوم بالغسل قبل ذلك ، لا يزال مفتوحاً وقد ملأ المطبخ برائحة كريهة ·

رأى قطعاً صغيرة من لطخات الدم على درجات السلم عند صعوده الى أعلى ، وكانت نقط دم على الارض هناك أيضاً ·

أفزعه كل ذلك فزعاً شديداً · فوقف في منتصف المطبخ وهو يحاول أن يتخيل ما عساه كان قد حدث ، وأن يهيء نفسه للدخول الى غرفة الجلوس حيث كان يسمع صوت أبيه · لقد أصاب « روي » من قبل أذى ولكن هذه المرة يبدو أن أذاه بداية لتحقيق نبوءة · فخلع معطفه وألقى به على أحد الكراسي ، وكان على وشك أن يدخل الى غرفة الاستقبال عندما سمع « سارة » تصعد السلالم ركضاً ·

فانتظر · واندفعت هي من الباب تحمل رزمة مشدودة شداً غليظاً فسألها هامساً :

ـ ما الذي جرى ؟

فنظرت اليه ساهمة باستغراب وشيء من الفرح الوحشي · وعاوده الشعور مرة أخرى بأنه لا يحب أخته · وقالت وهي تقبض أنفاسها بلهجة انتصار :

ـ أصيب « روي » بطعنة سكين !

واندفعت الى داخل غرفة الجلوس ·

أصيب « روي » بطعنة سكين ! كيف كان معنى ذلك فانه يعني أن أباه سيكون على أسوئه هذه الليلة ·

ودخل « جون » ببطء الى غرفة الجلوس كان أبوه وأمه ـ وبينهما حوض ماء صغير ـ قد ركعا قرب المرتبة حيث اضطجع « روي » وكان أبوه يغسل الدم من جبهته · ويبدو أن أمه ـ وهي الطف مساً قد دفعها أبوه الذي ما كان يريد أن يلمس ابنه أحد سواه · فظلت تشاهد المنظر واحدى يديها في الماء والاخرى منكمشة بألم على خصرها الذي لا يزال يلتوي عليه مئزر الصباح المرتجل · وكان وجهها ـ وهي تشاهد المنظر ـ ينطق بالخوف والشفقة · وكان أبوه ينطق بالكلمات الحلوة يهذر بها لروي ، ويداه ترتجفان وهو يغطسهما مرة أخرى في المغسلة ويلوي بهما قطعة القماش · وعمته « فلورنس » وهي لا تزال ترتدي قبعتها وتحمل حقيبة يدها واقفة تنظر الى « روي » بوجه مضطرب ·

رفعت أمه رأسها عندما مرقت « سارة » الى داخل الغرفة وتناولت

الرزمة فرأته ، ولم تقل شيئا ، ولكنها حدجته بنظرة غريبة فيها عزم سريع وكان على لسانها تحذيرا لم تجرؤ على النطق به • وقالت عمته فلورنس :

ـ كنا نتساءل أين كنت أيها الفتى • ان أخاك الشرير هذا قد خرج وأصاب نفسه بأذى •

ولكن « جون » أدرك من لهجتها أن الجعجعة قد تكون أقل من الخطر، فان « روي » على كل حال لم يكن يحتضر ، وشاع في قلبه شيء من الفرح ثم التفت أبوه اليه وصاح فيه :

ـ أين كنت يا غلام كل هذا الوقت ؟ ألا تعلم انا نحتاج اليك هنا في البيت ؟

وتيبس جون على الفور من تأثير وجهه أكثر من تأثير كلماته وغلبه الخوف والحقد • فان وجه أبيه مريع عندما يغضب • ولكن فيه الان ما هو أكثر من الغضب • فقد رأى جون فيه الان ما لم يره من قبل ، الا في خيالاته الانتقامية : رأى فيه نوعا من الرعب الوحشي الباكي الذي جعل الوجه يبدو كأنه أصغر ، وفي نفس الوقت وبشكل لا يمكن التعبير عنه ، أكبر وأشد قسوة • وأدرك « جون » في اللحظة التي جرفته فيها نظرة أبيه أنه كان يكرهه لانه لم يكن هو المضطجع على المرتبة حيث كان « روي » • ولم يستطع أن ينظر الى أبيه الا لماما ، ومع ذلك وبصورة موجزة أخذ ينظر اليه دون أن ينبس بشيء ، وهو يشعر في قرارة نفسه شعورا غريبا بالانتصار ، ويرجو من قلبه ، ولكي يذل أباه ، أن يموت « روي » •

فتحت أمه الرزمة ، وأخذت في فتح قنينة دواء « الهيروكسيد » وتقول :

ـ خذ • خير له أن تغسله بهذا الان •

وكان صوتها هادئا جافا ، وتعبيرها مغلقا ، وهي تناول أباه القنينة والقطن • فقال أبوه ـ بصوت يختلف عن السابق ، بالغ في الرقة والحزن:

ـ انه سيؤذيه •

والتفت مرة أخرى الى المرتبة وقال :

ـ ولكن عليك أن تكون رجلا صغيرا وتتحمل قليلا ، فذلك لن يدوم طويلا •

كان « جون » يرقب وينصت بكره • واخذ « روي » يئن صارخا • وسارت عمته « فلورنس » الى رف المدفأة ووضعت حقيبة يدها على الافعوان المعدني • وسمع من الغرفة المجاورة صوت الطفلة وقد شرعت في البكاء • فقالت له أمه :

ـ جون • أذهب وخذها وكن ولدا طيبا •

وكانت يداها ، ولم ترتجفا ، لا تزالان مشغولتين ، فقد فتحت قنينة الايودين ، وأخذت تقتطع قطعا من الضمادات •

ودخل جون غرفة نوم والديه وتناول الطفلة وكانت تزعق مبتلة . وفي الحظة التي شعرت « روث » فيها أنه رفعها اليه توقفت عن البـــكاء وأخذت تحدق فيه بعينين مفتوحتين كأنها كانت تدري أن هناك اضطرابا في البيت ، فضحك جون لضيقها الذي كان يبدو عريقا في القدم ـ وكان يحب أخته الصغيرة حبا مفرطا ـ وأخذ يهمس في اذنها وهو يعود بها الى غرفة الجلوس .

الان دعي أخاك الكبير يخبرك بشيء أيها الطفلة . فسرعان ما تستطيع قدماك حملك اهربي من « هذا » البيت ولم يدرك لماذا قال ذلك ، ولا الى أين يريدها أن تذهب ، ولكن ذلك أراحه فورا .

وكان أبوه يقول عندما عاد جون الى الغرفة :

ـ اني على يقين انني ســوف أســألك بعض الاستفسارات ايتهـا السيدة العجوز ، فاني أريد أن أعلم كيف تسنى لك أن تتركي هذا الولد يترك الدار ويصيب نفسه اصابة نصف قاتلة .

فقالت العمة « فلورنس » :

ـ كلا .. كلا .. لن نسمح لك بأن تعود الى خلطك في هذا المساء . أنت تعرف تمام المعرفة أن « روي » لا يستأذن أحدا في الخروج ، فهـو يفعل ما يريد كما يريد . ان « الزابيث » لا تستطيع أن تقيده بالسلاسل . ان يديها مشغولتان هنا في هذه الدار ، وليست خطيئتها أن يكون « روي » صعب المرأس كأبيه !

فقال وهو لا ينظر اليها :

ـ كم لديك من الكلام الكريه . كوني مرة واحدة قادرة على تركي وشأني .

فقـــالت :

ـ ليســت خطيئتي انك ولدت أحمق ، وانك بقيت طــول الوقت أحمق ، وانك لن تتغير قط . اني أدعو الله أن يمنحك صبر أيوب .

فقال وهو لا يزال يعالج « روي » وكان لا يزال يئن وقد استعد أبوه لوضع الايودين على الجرح :

ـ لقد قلت لك من قبل اني لا أريدك أن تأتي الى الدار وتلفظي هذه الالفاظ المنحطة أمام أولادي .

فقـالت بروح قوية :

ـ لا تقلق أيها الاخ بشأن لغتي ، بل عليك أن تقلق بشأن «حياتك» ان ما يسمعه هؤلاء الاطفال لن يؤذيهم قدر ما يؤذيهم ما يرونه .

فتمتم أبوه قائلا :

ـ أن ما « يرون » هو رجل فقير يحاول أن يرضي الرب . « هذه » هي حياتي .

فقـلت :

ـ اذن فاني أضمن لك أنهم سوف يبذلون قصاى جهــدهم لكي لا يجعلوها « حياتهم » وافهم كلامي ٠

فالتفت وهو ينظر اليها ولاحظ النظرة التي تبادلتها المرأتان فقـد كانت أم جون ، لاسباب لا علاقة لها بأسباب أبيه ، تريد من العمة فلورنس أن تلزم جانب الصمت ٠ ودار بنظره بعيدا بشكل ساخر ٠ ولاحظ جون أن أمه تزم شفتيها بحرارة ٠ وأخذ أبوه بتضميد جبهة روي بصمت وقال أخـيرا :

ـ لقد كانت رحمة من الله أن هذا الصبي لم يفقد عينه ٠ انظري هنـــا ٠

وانحنت أمه ونظرت في وجه روي وهي تتمتم بعطف وشـعر جون بأنها أحست فورا بالخطر المحدق بعين روي وحياته ولكنها مع ذلك اجتازت ذلك القلق الان ، فهي تعد الزمن وتهيء نفسها للحظة التي يتجه فيهـــا غضب زوجها بكل قوته نحوها ٠

والتفت أبوه الان الى جون الذي كان واقفا قرب الابواب الفرنسية وعلى ذراعيه « روث » وقال :

ـ تعال هنا أيها الغلام وشاهد ما صنع البيض بأخيك ٠

فمشى جون نحو المرتبة وهو منتصب القامة بفخر تحت نظر أبيــه الهائج وكأنه أمير يقترب من المقصلة ٠ فقال أبوه وهو يقبض بشدة على ذراعه :

ـ أنظر هنا ٠ انظر الى أخيك ٠

فنظر جون الى روي الذي كان يحدق فيه بدون أي تفسير تقريبا في عينيه ٠ ولكن جون فهم من فم روي المتعب القلق أن أخاه كان يريد أن لا يلام على ذلك ، فان نظرة عينيه كانت تقول انه ليست خطيئة جون أن يكون لهما مثل هذا الاب المجنون ٠

أما أبوه ، وقد بدا وكأنه ذلك الذي يضطر المذنب على أن ينظر في الحفرة التي ستكون جزاءه ، فقد انحاز قليلا لكي يفسح المجال لجون كي يرى جرح « روي » ٠

كان « روي » قد أصيب بجرح سكين بالغ ، ومن حسن الحظ أن السكين لم تكن حادة جدا بل كانت غير مستوية ، في وسط جبهته حيث ينبت الشعر نزولا الى العظم الذي يقع فوق عينه اليسرى ، فكان الجرح أشبه شيء بنصف هلال بذيل عنيف قضى على حاجب « روي » وقد يجوز أن يظلل الزمن ندبة ذلك الجرح الشبيه بنصف الهلال ، ولكن ليس هناك ما يعيد الشعر الذي قطع في وسطه بعنف في حاجب « روي » ٠ ان هذه الفجوة المجنونة سوف تبقى معه الى الابد ٠ وسوف تعيد الى الذهن الى الابد شيئا يبعث على السخرية والنحس في وجه « روي » ٠ وشــعر « جون »

برغبة فجائية في الابتسام ولكن عيني أبيه كانتا منصبتين عليه فغالب تلك الرغبة وردها • ومما لا شك فيه أن الجرح الان قبيح جدا وشديد الحمرة، وشعر « جون » الان بعطف متزايد نحو « روي » الذي لم يبك ، وأن الجرح لابد وان يكون مؤلما • وقد تخيل شعوره عندما تطوح في البيت وقد أعماه الدم ، ولكن على كل حال فانه لم يمت ، ولن يتغـير ، وسـوف يكون في الشوارع مرة أخرى حالما تتحسن حالته •

وهنا عاد أبوه يقول :

ـ انهم اولئك البيض •• انظر •• انهم بعض اولئك البيض الذين تحبهم كثيرا ، هم الذين ارادوا أن يقتلوا أخاك ، وقطع رقبته •

ففكر جون وقد غمره غضب مفاجيء وشعور بالمقت نحو ابيـه وكلامه الذي تنقصـه الدقة ، فان أي أعمى مهما بلغ من بياضـه لم يكن يستهدف رقبة « روى » • وقالت أمه باصرار هادىء :

ـ وهو الآخر كان يريد قطع رقبتهم • انهم كلهم أولاد أشقياء •

وقالت العمة « فلورنس » :

ـ نعم • اني لم أسمعك تسأل هذا الصبي كيف جرى كل ذلك • لعلك تريد اثارة الضجة لأي سبب ـ وتجعل كل من في الدار يشقى لأن أمراً ما حدث لقرة عينك •

فصرخ أبوه بجزع :

ـ لقد طلبت منك أن تحبسي لسانك • ان شيئاً من هذا كلـه لايعنيك • هذه عائلتي « أنا » وهذا داري • هل تريدين أن أضربك على رأسك •

فأجابته بهدوء :

ـ اضربني وستجد نفسك لا تستطيع أن تضرب أحدا على عجل •

فقالت أمه وهي تنهض :

ـ اسكتوا الآن • لا حاجة لكل هذا • لقد حدث ما حدث ويجب أن نحمد الله أن الأمر لم يكن أسوأ •

فقالت العمة « فلورنس » :

ـ حمداً لله على ذلك • ولكن دعي هذا الزنجي يفهم •

فقال موجهاً الكلام الى زوجته وكأنه قرر أن يتجاهل اخته وفي كلامه حـدة :

ـ تستطيعين ان تقولي لابنك الأحمق هذا •• الذي يقف هناك بعينيه الفارغتين •• تستطيعين أن تقولي له شيئا • ليأخذ عظة من الرب • ان هذا ما يفعله البيض بالزنوج • لقد كنت أقول لكم ذلك وهذا مصداق قولي•

فصرخت العمة « فلورنس » :

ـ يأخذ عظة من ذلك ؟ تحذره هو ؟ لماذا يا جبرائيل • انه ليس هو الذي قطع نصف المدينة لكي يتعارك مع الفتيان البيض ـ ان الذي ذهب هو ذلك الممدد على المرتبة ، متعمداً ، مع جماعة من الغلمان كل هذه المسافة الى الجانب الغربي من المدينـة باحثاً عن المعركة • ان ما يثير عجبي هو ماذا يدور في رأسك •

فقالت أمه وهي تدور برأسها نحو أبيه :

ـ انك تعلم تمام العلم بأن « جوني » لا يذهب مع طبقة الاولاد الذين يذهب معهم « روى » • لقد ضربت « روى » عدة مرات ، وفي هذه الغرفة ، بسبب ذهابه مع الاولاد الاشقياء • لقد اصيب « روى » لانه ذهب اليوم حيث لم يكن يجدر به الذهاب ، وهذا نهاية ما هنالك • وعليك أن تشكر الرب الرحيم لأنه لم يمت •

فقـــال :

ـ ولعله سيموت من كثرة عنايتك به • لا تتظاهري بأن حياته أو موته يهمك كثيرا •

فقالت العمة « فلورنس » :

ـ رباه •• ارحمنا •

وقالت الأم بحرارة :

ـ انه ابني أيضاً • لقد حملته تسعة أشهر في بطني • واني لاعرفه كما أعرف أباه • انهما متشابهان الى حد التطابق ••• ليس من حقك الان أن توجه لي كلاما مثل هذا •

فقال وهو يكاد يختنق ويتنفس بصعوبة :

ـ لعلك تعرفين كل شيء عن حب الأم • اني على تمام المعرفة أنك ستقولين كيف أن أماً تقعد طيلة النهار في البيت وتدع ابنهـــا من لحمها ودمها يخرج ويعرض نفسه للذبح •• لا تقولي لي انك لا تعرفين طريقـــة لردعه ، لأني أذكر أمي ، رحمها الله ، فقد كانت توجد الطريقة •

فقالت العمة « فلورنس » :

ـ لقد كانت أمي أيضا • واني لأذكر ، ان كنت لا تذكر أنت ، أنك كثيرا ما جيء بك الى البيت وأنت نصف ميت • لم تكن لتجد طريقة لردعك، لقد أذابت نفسها عليك كما تذيب نفسك أنت الان على هذا الولد هنا •

فقـــال :

ـ مرحى • مرحى • ما أكثر ما لديك مما تقولين !

فقالت :

ـ لم أصنع شيئا سوى أني أحاول أن أضع في رأسك الكبير الاسود

العنود شيئا من العقل • الأجدر بك أن تكف عن لوم « اليزابيث » عن كل شيء ، وأن تنظر في أعمالك السيئة •

فقالت امه :

ــ لا بأس يا « فلورنس » لقد انتهى كل شيء الآن :

فصاح الأب :

ــ سأترك هذا البيت • اعمل في كل يوم يرسله الرب لكي اطعم أفواه هؤلاء الأطفال • ألا تعتقدين ان لي الحق أن أسأل أم هؤلاء الاطفال أن تعتني بهم ، وأن لا تدعهم يكسرون رقابهم قبل أن أعود الى البيت ؟

فقالت الأم :

ــ ليس لديك الا ولد واحد يمكن أن يذهب خارجاً ويكسر رقبته ، وهو « روى » وأنت تعرف ذلك • واني لا أدري كيف تريد مني أن أدير هذا البيت وأعتني بشأن هؤلاء الاطفال ثم أركض في الشوارع بناية بعد بناية وراء « روى » كلا • لا أستطيع وقفه • لقد قلت لك ذلك • وانك أنت الآخر لن تستطيع وقفه • انك لا تدري ماذا تصنع بهذا الولد وهذا هو السبب الذي يجعلك تضع اللوم على أحد ما • ليس هناك من تلوم يا جبرائيل ، الأجدر بك أن تدعو الله لكي يردعه قبل أن يضع أحد سكينة أخرى فيه ويذهب به الى القبر •

وحدق أحدهما في الآخر برهة في وقفة مريعة • وكانت في عينيها نظرة تساؤل مرتاع مشوب بالاستعطاف • ثم رفع يده ، وبكل ما لديه من قوة صفعها على وجهها فسقطت على الارض حالاً وقد غطت وجهها باحدى يديها النحيلتين وتحركت العمة « فلورنس » لكي تمسك بها • ووقفت « سارة » تشاهد كل ذلك بعينين شرهتين • ثم جلس « روى » وقال بصوت مهتز :

ــ لا تصفع أمي • انها أمي • اذا صفعتها مرة أخرى أيها النغل الاسود فاني أقسم بالله لاقتلنك •

في اللحظة التي ملأت فيها هذه الكلمات الغرفة ، وظلت معلقة في الجو كتلك اللحظات البالغة في الدقة قبل الاعدام ، وكالضوء الذي يسبق الانفجار ، كان « جون » وأبوه يحدق أحدهما في عين الآخر • وخيل لجون في تلك اللحظة أن أباه كان يعتقد ان هذه الكلمات قد جاءت منه هو ، فقد كانت عيناه وحشيتين وفيهما شر لا قرارة له ، وقد زم شفتيه وهو يزمجر بألم • وهنا وجد « جون » في اللحظات الصامتة التي تلت كلمات « روى » ان أباه لم يكن يراه ، بل لم يكن يرى أي شيء ، الا اذا كان ذلك الشيء خيالا ، وأراد « جون » أن يعود ليهرب ، كأنه قابل وحشاً شريراً في غابة قد تهيأ للوثوب وفي عينه شر كالجحيم المنطلق ، وكما لو كان في منعطف طريق ووجد نفسه أمام دمار محقق ، ولكنه وجد نفسه غير قادر على الحركة •

والتفت الأب عنه ونزل بنظرته الى « روى » وسأله :

ـ ماذا قلت ؟

فقال « روى » :

ـ لقد قلت لك أن لا تصفع أمي ·

فقال الأب :

ـ ولكنك شتمتني ·

فلم يجب « روى » ولم يتنزل بنظره أيضاً ·

فقالت الأم :

ـ جبرائيل ·· جبرائيل ·· دعنا نصلي ·

كانت يدا أبيه على وسطه · ونزع حزامه وفي عينيه دموع فصرخت العمة « فلورنس » :

ـ جبرائيل · لا تقم بدور الأحمق هذه الليلة ·

وهنا رفع أبوه حزامه فسقط بصوت يصفر على « روى » الذي ارتجف وسقط على الفراش ووجهه الى الحائط ولكنه لم يبك · وارتفع الحزام مرة أخرى ·· ثم أخرى ، وارتج الهواء بصفيره وصوت وقعه على جسد « روى » وأخذت الطفلة « روث » تبكي صارخة ·

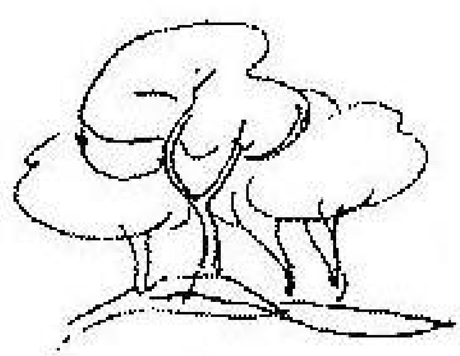
وتمتم أبوه :

ـ يا ربي ·· يا ربي ·· يا ربي ·· يا ربي ·

ورفع الحزام مرة أخرى ولكن العمة « فلورنس » قبضت عليه من الخلف · وركضت أمه مسرعة الى المرتبة وضمت « روى » بين ذراعيها وهي تبكي بكاء لم ير « جون » امرأة تبكي مثله من قبل · وطوق « روى » أمه من عنقها وظل متعلقاً بها كأنه غريق ·

وتقابل كل من عمته وأبيه وجهاً لوجه ، فقالت العمة « فلورنس » :

ـ نعم · أدع الرب · لقد ولدت متوحشا وسوف تموت متوحشا · ولكن ذلك لا يدعو أن تأخذ العالم كله معك · انك لن تستطيع أن تغير شيئا يا « جبرائيل » · وأجدر بك أن تعرف ذلك الآن ·



عندما يخطئ الآباء

صلاح الدين حسن

« لن يكتب للابناء التوفيق في الانسجام مع المجتمع ما لم يهتدوا الى حل للصراع النفسي في موقفهم من آبائهم ، وما لم تصبح علاقتهم بهم هادئة يسيرة طبيعية . ومن المؤكد ان الانحرافات السلوكية والعقد النفسية والاضطرابات العاطفية ، التي يعاني منها نفر غير قليل من الأبناء في حياتهم الاجتماعية والنفسية ، انما ترجع الى الأساليب التربوية الخاطئة التي تلقاها هؤلاء الأبناء من بيئتهم المنزلية ، وبصفة خاصة من آبائهم .. فهل يدرك الآباء معنى ذلك كله . »

قال لي صاحبي : هناك ثمة مواقف خاطئة يقفها الآباء من أبنائهم ، تترتب عليها ـ في الغالب ـ آثار تنعكس على شخصياتهم ، وعلى اعدادهم لحياة المستقبل ..

قلت : لا يعقل أن يقف الآباء من أبنائهم مثل هذه المواقف ، فهم فلذات اكبادهم ، ومحط آمالهم ورجائهم .. ثم ان الاباء يرفضون الاعتراف بوجود هذه المواقف ، التي تتحدث عنها ..

قال : ان عدم اعترافهم بها، لايعني انها غير موجودة ، بل هي موجودة فعلا .. وهي ظاهرة جديرة بالدراسة والتأمل ، لما تتصف به من خطورة وتكرار وتعدد ، ولما تتركه من آثار سيئة في نفوس الأبناء ، يصعب تحديد مداها أو خطورتها .

قلت : هل من أمثلة تضربها لتوضيح تلك المواقف ؟ ..

قال : الامثلة متنوعة وعديدة ، وسأكتفي بذكر البعض منها ..

ما حدث في ذلك اليوم من أيام طفولتي لا ازال اذكره ، وكأنه حدث اليوم ، وليس قبل تلك الحقبة الطويلة من الزمن . فقد تشاجر ابي في ذلك اليوم مع امي ، مشاجرة عنيفة حامية ، لا أعرف لها سببا أو على الاقل لم اتتبعها من البداية ، ولكن المشهد الذى رأيته كان فيه الكفاية ، فقد ارتفع

صوت أبي الى درجة مخيفة .. وأكثر من ذلك .. تناول بعض الاشياء الموجودة في الحجرة وأخذ يحطمها ، وهو يردد عبارات قاسية مخيفة ... عبارات تهدد بتحطيم كيان اسرتنا الصغيرة البائسة .. اما امي فكان صوتها يرتفع احيانا ويغلب عليها البكاء فتبكي احيانا اخرى .. كل ذلك وأنا قابع في ركن قصي من اركان الحجرة ، ارتجف خوفا وفزعا . لقد كانت المشادة تصل في بعض الاحيان الى درجة أتصور فيها ، أن ابي سيعصف بي ضمن الاشياء التي يعصف بها .. وأخيرا خرج أبي من المنزل غاضبا متوعدا ، فشعرت بالامن والاطمئنان يتسربان الى أغوار نفسي ..

ان غياب ابي عن نظري كان عاملا كبيرا في اعادة الهدوء والسكينة الى نفسي المضطربة ، فاتجهت نحو والدتي التي كانت لاتزال في ثورتها الانفعالية العنيفة .. اتجهت اليها علني أجدعندها استكمالا للشعور بالامن والاطمئنان بعد تلك الفترة العصيبة التي قضيتها في فزع .. كنت أظن انها ستاخذني بين أحضانها وتواسيني ، فقد تعودت دائما ان اجد الامن واللذة والدفء في أحضانها ، ولكن يظهر ان ظني لم يكن في محله ، فقد دفعتني امي بيدها لتبعدني عنها ، وهي تقول : « اذهب عني ايها التعس .. لست على استعداد لسماع ما تشكو منه .. فمشاكل ابيك تكفيني ! » .

لقد شعرت عندئذ أنني فقدت امي الى الابد ، وان ابي بثورته على امي هو المسؤول عن ذلك .. ان ابي أصبح لا يهددني فقط في علاقتي به ، بل أصبح يهددني ـ ايضا ـ في علاقتي بأمي .. لكم تمنيت في تلك اللحظات لو غاب ابي عن البيت دائماً ، وترك لى امي ، فقد اصبح بالنسبة لي منافسا خطيرا في حبي لأمي .. منافسا لا أقوى على التغلب عليه ..

مسكينة أمي ! انها لاتعلم أن كثيرا من مشاكلي الاجتماعية والنفسية ، التي اعاني هذه الايام منها الكثير ، انما يرجع الى الخبرات السيئة التي اكتسبتها أيام طفولتي الاولى ، والى الجو المتوتر الذى ساد اسرتنا في تلك الايام الخوالى .. ليتها تعلم ! ليتها تدرك ..!

* * *

ابني .. فلذة كبدي .. ان سلوكه يقلقني ويحيرني ، ويسبب لي كثيرا من المشاكل أنا في غنى عنها ..

ولكن .. ما الحكاية بالضبط ؟

قبل يومين اثنين ، استطاع هذا الابن ، بل قل هذا الشيطان ، أن يسرق كتابا ، يخص أحد زملائه في المدرسة .. وبالامس فقط ، سرق بتعمد ظاهر ساعة اثرية ثمينة ، كانت والدته تحتفظ بها منذ مدة طويلة .. وليس من المستبعد أن يصبح هذا الابن العاق لصا كبيرا في المستقبل ، وقد اكون أنا بالذات اول ضحية من ضحاياه !.. من يدرى !؟

قد يبدو سلوك هذا الابن في نظر بعض الناس طبيعيا لا غبار عليه ، ولكنه في نظر الاخصائي النفسي قد يبدو بصورة اخرى مغايرة : انحراف سلوكي مبكر ، يتطلب العلاج والاصلاح والتقويم ٠٠ فماذا أفعل ؟

بجانب حالات السرقة التي تتم بسبب الفقر والحاجة الاقتصادية ، هناك حالات تتم بدوافع لا شعورية ، ويكون لفعل السرقة ـ عادة ـ صفة الالزام ، فلا يملك الطفل الا أن يسرق ، وقد يكون السارق في حالةاقتصادية ميسرة وليس في حاجة لما يسرقه ، وقد تكون الاشياء المسروقة غير ذات قيمة، الا ان سارقها يجشم نفسه المشاق في سبيل ارتكاب السرقة ٠ ومثل هذا النوع من السرقات ، انما يرجع الى واحد أو اكثر من الدوافع الآتية :ـ

أولا ـ ان حرمان بعض الاطفال من حب الوالدين منذ الصغر ، بسبب الطلاق أو موت أحد الوالدين أو كليهما ، يجعلهم يجنحون الى ارتكاب أفعال السرقة ، التى تعتبر رجعا تعويضيا عن حنان مفقود ٠

ثانيا ـ يلجأ بعض الاطفال الى ارتكاب السرقات وخاصة في محيط الاسرة ٠٠ وهذه السرقات تعتبر نوعا من العقوبة يوقعها الاطفال على آبائهم جزاء اهمالهم لهم ، أو تفضيلهم لاحد الاخوة عليهم ، أو لأنهم يحرمونهم من بعض ما يرغبون فيه ٠ وبعبارة اخرى ، ان فعل السرقة ليس الا تعبيرا عن دوافع ورغبات عدوانية ، كانت موجهة اصلا نحو الآباء ٠

ثالثا ـ ثمة فريق من الاطفال يلجأ الى السرقة ليثبت ذاته ، وليبرهن لنفسه وللاخرين (بطريقة لا شعورية) على انه قادر على النجاح في ناحية من نواحي الحياة ٠ ويلجأ الى هذا الاسلوب التعويضي ـ عادة ـ من يفشل في اثبات ذاته بطريقة طبيعية سوية ٠

رابعا ـ هناك بعض الاطفال (وخاصة ضعاف العقول) يوجهون الى ارتكاب جرائم السرقة ، وهؤلاء بحكم ضعفهم العقلي ، يسهل قيادهم وتوجيههم للجريمة ٠

خامسا ـ بعض الاطفال وهبوا مهارة يدوية فائقة ، لا يعرفون كيف يفيدون منها ، ولم يجدوا من يوجههم الوجهة السليمة للافادة منها ، مما يجعلهم ـ في كثير من الاحيان ـ ينصرفون الى الافادة منها بطريقة منحرفة، تتمثل في السرقة والنشل والاعتداء على الغير ، وما شابه ذلك من الافعال التي تعتمد على المهارة اليدوية ٠

سادسا ـ بعض حالات السرقة تتم بفعل التقليد ، كأن يقلد الطفل أخاه الاكبر في سرقاته ، أو الخادمة في محاولتها سرقة نقود سيدتها أو سيدها ، الامر الذى يجعل هذا السلوك المنحرف عادة متحكمة في الطفل ، لايستطيع التخلص منها ٠

سابعا ـ كثرت مشاغل الحياة في هذه الايام ، وكثرت ـ كذلك ـ الاعباء الملقاة على عاتق الآباء ، فانصرفوا عن أبنائهم ، لايعطونهم من الوقت

والرعاية ماهو حق لهم ، وأصبح كثير من الاباء لا يساهمون مساهمة فعالة في الاشراف على تربية ابنائهم ، مما يجعلهم ـ اي الابناء ـ يستغلون اوقات فراغهم في ارتكاب السرقات وغيرها من الافعال ، التي يكون لها آثارهـــا السيئة على تنشئة هؤلاء الابناء واعدادهم للحياة .

* * *

جاري العزيز .. هذا الانسان الطيب القلب !.. جاري هذا يفسد ولده !.. انه بدافع حبه العميق لهذا الولد يدلله تدليلا زائدا .. انه يدفعه ـ من حيث لا يدري ـ الى سلوك سبيل وعر ، يقول عنه العارفون ، انه لن يقود ـ في الغالب ـ الا الى الانحراف والجريمة والفساد .. فماذا أقول لهذا الجار ؟..

يلعب الحب دورا كبيرا في حياة الطفل ومستقبله . ذلك لان الطفل في حاجة دائمة الى الحب والعطف والرعاية من والديه ، ومن الكبار المحيطين به ، وهو ايضا يبادلهم الحب والمودة .. وفي هذا الجو المشبع بالحب تنمو شخصية الطفل نموا طبيعيا سويا .

والحقيقة فان الطفل اذا حرم من الحب والعطف والحنان ، احس بعدم الامن والطمأنينة ، ويؤثر ذلك عادة في نمو شخصية الطفل تاثيرا سيئا ، فيعرضه لكثير من الاضطرابات والامراض النفسية .. وعلى النقيض من ذلك ، فان الاسراف في حب الطفل وتدليله قد يؤثر تأثيرا سيئا ايضـا ، لأنه يعوق نمو شخصيته ويضعف قدرته على الاستقلال وتحمل المسؤوليات، كما يضعف قدرته ـ كذلك ـ على مجابهة مشاكل الحياة العملية ، وعلى تكوين علاقات اجتماعية سليمة تربطه بالآخرين . ومن المؤكد ان الحـب الوحيـد ، الكفيل باشاعة الهدوء والاطمئنان في نفس الطفل ، هو الحب الثابت المتزن ، وهو وحده الذى يطبع علاقات الطفل المقبلة بطابع الاستقرار والاتزان والثقة .

وعلى هذا النحو ، يمكن القول ان نجاح الفرد في خوض معركة الحياة، انما يتوقف الى حد كبير على نوع المعاملة التي تلقاها من والديه . وبتعبير أدق على نوع الحب الذى حصل عليه منهما .. فأذا تمكن الآباء من غرس دعائم الحب في جو الاسرة ، استقرت حياة الطفل العاطفية ، ونما نمـوا اجتماعيا سويا .. وعلى العكس ، اذا انعدمت عناصر الحب بين أركـان الاسرة ، وشاع فيها الشقاق والخلاف ، احس الطفل بظمأ شديد الى الحب والحنان ، مما يؤدي الى ضمور نموه الوجداني واضطراب حياته العاطفية والنفسية .

مرثية مكتوبة على نهر دجلة

خالد علي مصطفى

« الى ضحايا نهر دجلة ، غرقا .. »

اقرعي يا رياح أجراسك الخرس صلاة على تذوب السماء ،
وانثري وقعها على صهوة الموج غناء جنائزي الحداء .
أنت يا دجلة الوقور تعر عن ذراعين من قرار البلاء
عانق الريح انما تقرع الريح نواقيسها بدون انتهاء
كي تلاقي الصدور قد شقت الموج ؛ لترسو مواكبا من فداء .

* * *

كم دهور عليك مرت ! ألم تسأم دهورا تمر دون عناء ؟
اذ شربت السنين من عين طفل تاه في صدره اخضرار الماء
تاه في سرمد الرمال عظاما عانقتها الجذور رؤيا فناء !
أين آثاره على الشاطىء الصاحي ، لتروي حكاية الابرياء ؟
مصها الرمل بين أقدامه ، ألقى عليها ستائر الظلماء
رجفة أهدت النواقيس صوتا مثقلا بالفجيعة الخرساء
خطها الموت فوق أمواجك السود حروفا مسمومة الايحاء .
أنت يا موج دجلة الابدي العمر ، هونا ! ففيك نسج القضاء
اذ شربت السنين من عين طفل نذرته الرمال للاشلاء
رحت تطويه بين اذرعك السود ، تعري الضلوع عن اهواء
جفت الخفقة الحبيسة فيها من صدى ضاع في نثار الغناء .
أنت يا ريح ! أين أجراسك الخرس ؟ انثري وقعها طقوس رثاء
عل أنحائك العجاف تؤسي جمرة العين من سجوف البكاء .

* * *

كفن من خطى الظلام يغطي هدأة الليل رجفة استهزاء ،
وطقوس الرثاء في جوفه الطامي تنادي الاله للاصغاء :
أن يبث الصلاة في كل قبر ضائع في موجاته السوداء !

النتاج الجديد

العراق في العصر الاموي

للاستاذ ثابت الراوي

بقلم : يحيى الجبوري

لعل اكثر الدراسات التى قامت حول تاريخ العراق تناولته فـي عصوره العباسية ، حيث تركزت الحضارة فى بغداد وانشئت المدن العامرة وتقاطر العلماء عليها من شتى الاقطار والامصار العربية والاسلامية ، وقد تظافرت الدراسات حول تاريخ بغداد والبصرة والكوفة فى العصور المتأخرة، اما الدراسات حول تاريخ العراق ابان الفتح العربي وعصر الامويين فهى معدودة ومحصورة في جوانب خاصة • والتاليف في هذا العصر من ناحية تعريب العراق ومعرفة الاحوال السياسية والمالية والادارية والادبية امر على كثير من الاهمية ، لان العراق من الاقطار التى حفلت باحداث هامة ففيه ظهرت الفرق والمبادىء ومنه اندلعت الثورات وعلى تربته سفكت الدماء غزيرة ومنه شعت انوار المعارف والآداب •

ودراسة مثل التى نريد تتطلب الجهد الجهيد والصبر الطويل • وقد انصرف للجانب التاريخى الاخ الاستاذ ثابت الراوى فاتحفنا منذ قريب بكتابه الطريف (العراق في العصر الاموي) وهو دراسة جامعية اعدها لنيل درجة الماجستير من جامعة الاسكندرية • والكتاب بجملته ينم عن جهود مخلصة فى سبيل البحث العلمى ، وانى وان كنت آخذ عليه جملة ملاحظات، لا اريد بها التقليل من قيمة هذا الجهد بقدر ما اريد له الكمال فى تحقيق الغرض الذى بنى لاجله هذا البحث ، وقبل ان ادون ملاحظاتى اجول جولة خلال الكتاب للتعرف على أهم معالمه •

قام البحث على ستة فصول واربعة ملاحق ، درس فى الفصل الاول (الفتح العربي للعراق) حالة السكان في العهد الفارسى الاخير وما كانوا عليه من انحطاط وفوضى وقسوة الحاكمين ، وكان سواد سكان العراق يتكونون من بعض القبائل العربية النصرانية مثل بنى بكر بن وائل التى وقفت بجانب الفرس ضد العرب المسلمين ، وفئة اخرى من القبائل العربية

التي رحبت بالفتح تخلصا من الحكم الفارسي وكان في جوارهم بعض النبط ، اما عرب الحيرة فوقفوا بين العرب والفرس موقف المحايد المنتظر لنتائج الحرب ، وقد عرفنا في الفتح مسير الجيوش العربية في العراق والمعارك التي خاضوها في القادسية والجسر ونهاوند وجلولاء ٠

ويتكلم عن جغرافية العراق فيقف عند اسم (عراق) في اصلها الفارسي وفي اصلها العربي ، فالعراق هو الساحل والعراق هو استواء الارض ، والكلمة عند من يخرجها تخريجا فارسيا منقولة من كلمة (ايراه) اي الساحل فهي (ايراهستان) فقلبت الهاء قافا فصارت ايراق ، وهي عند المؤلف من اعرق القوم اذا بحثوا عن غذائهم والعراق ارض الماء والخصب والخضرة ٠

ويحدد العراق القديم جغرافيا ويبين طبيعة سطحه وارض العراق كما كانت تحدد بالاقليم الممتد من تكريت شمالا الى عبادان جنوبا ومن حلوان شرقا الى العذيب غربا ٠ ويختتم هذا الفصل بان يعين التحديد الاداري والسياسي للعراق وما كان عليه من تعاقب الولاة على الكوفة والبصرة والظروف التي احاطت بذلك ٠

وحين تناول النزاع بين علي ومعاوية وقيام الدولة الاموية استعرض قصة الفتنة منذ قامت ضد عثمان وادت الى مصرعه ثم انتقلت الى عهد علي بن ابي طالب حيث انقسم المسلمون واقتتلوا في الجمل وصفين ثم نهاية الحكم الراشدي بمقتل الامام وتولية الحسن ثم تنازله لمعاوية حيث ثبت الامر للامويين وصار حكم الوراثة مكان نظام الشورى ٠

ثم تناول نظام الحكم وبحث جوانب كثيرة فيه منها النظام الاداري وقد تتبعه منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب حتى استقر عند الامويين وبين مركز الولاة والقضاة وعمال الخراج وكيفية اختيارهم ونفوذهم واشار للكتاب وصاحب الشرطة والجيش والنظام الحربي المتبع انذاك ٠

وفي الفصل الخامس تكلم عن تعريب العراق فوصف حال السكان منذ عصر مبكر حتى صاروا الى الفتح الاسلامي وبين موقفهم من الفتح واثره فيهم وحالهم في ظل الاسلام واوضح عملية المزج التي حصلت بين العرب والفرس والنبط وغيرهم من الامم ، وانتقل بعد ذلك للحديث عن الكوفة والبصرة وواسط ومنازل القبائل في كل من هذه المدن وانتشار اللغة العربية فيها ٠

وكان الفصل السادس (علاقة العراق بالدولة الاموية) سرد للاحداث الهامة والثورات التي قامت في العراق ضد الدولة وولاتها ونتائج هذه الثورات واسباب فشلها ، وقد قسمها الى اربعة اصناف : ثورات علوية قام بها حجر بن عدي الكندي والحسين بن علي وزيد بن علي بن الحسين ٠ وثورات اقليمية مثلها عبدالرحمن بن الاشعث ويزيد بن المهلب وعبدالله بن الحر الذي كان يقوم بغارات متوالية ٠ وثورات الخوارج تمثلت في

حوثرة الاسدى وفروة بن نوفل الاشجعي والمستورد الخارجي والازارقة وغيرهم . وثورات شخصية كثورة المختار الثقفي ومطرف بن المغيرة بن شعبة وعبدالله بن معاوية . وقد اضاف المؤلف للكتاب ملاحق هي : الخطب للخلفاء والامراء ، والكتب والرسائل والتوقيعات والوصايا كما الحق جدولا يبين من تعاقب على الكوفة والبصرة من الولاة والامراء والقضاة واصحاب الشرطة والخراج .

وكنت اود حين اقدم المؤلف الفاضل على دراسة هذا القطر الاسلامى ان يعطى صورة للعالم الاسلامى من ناحيته السياسية على الاقل حتى نرى اصداء تلك السياسة فى العراق الذى هو جزء من هذا العالم متأثر باحداثه منفعل بمشاكله ، لعل ذلك قد ورد خلال الفصول وبصورة عرضية وكنت اريد ان يكون الامر منظما ومبينا . والناظر في خطة البحث يجد فيها جملة مآخذ فالفصول غير مترابطة فكأن كل فصل كتب على انفراد دون ان تكون له صلة بما قبله وما بعده ومن الممكن حذف اى فصل من الفصول دون ان يتأثر الكتاب بذلك ، ان الدراسة العلمية تقوم اجزاؤها على التلازم والترابط والموضوع يكون وحدة متكاملة متتامة .

لقد بنى الكتاب على دراسة العراق من الناحية السياسية والادارية والاجتماعية ، واذا جئنا نتعرف على كل ناحية من هذه النواحي لن نجدها الا بعد ان نقرأ الكتاب جملة ، وكان الواجب ان تقوم الدراسة على تنظيم وتخطيط سابق يكون الباب الاول فيه الناحية السياسية وتخرج منه فصول يندرج فيها كل ما يخص السياسة ثم يفرد باب الى الناحية الادارية وكذلك الناحية الاجتماعية هذه الناحية التى لم اجد لها اثرا واضحا فى الكتاب وكأنها اهملت او نسيت . ان تقسيم البحث الى موضوعات رئيسية امر تتطلبه طبيعة الدراسة اما ان تخلط كل الجوانب وتهدر موضوعات على حساب اخرى فامر لا يسيغه الاسلوب العلمى الصحيح والتاريخ لم يعد قصة تقص او حكاية تسرد بل هو علم من العلوم له اسبابه واصوله . وفى مثل هذه الابحاث تكتب مقدمة يوضح فيها كاتبها مكانة الموضوع وطبيعته واهم مصادره ونهج المؤلف فيه وغير ذلك ، اما ان يكتفى الكاتب بصفحة يشغلها الثناء على اساتذته فامر لا اقره .

لقد عمل المؤلف ملاحق للكتاب شغلت ستين صفحة للخطب والرسائل والتوقيعات والوصايا ، ولا ادرى مدى الحاجة اليها فى دراسة تاريخية ، وهى ميسور امرها ومتوفرة فى كتب التاريخ والادب بل هى اقرب الى النصوص الادبية منها الى التاريخ ، وان جمعها هنا لايعود بكبير فائدة وخاصة ان المؤلف لم يحاول ان يستفيد من الخطب عند حديثه عن الولاة مثلا ، وقد اعوزته الامانة في النصوص المدرجة في هذه الملاحق ، فهناك خلاف فى نصوص الخطب بصورة خاصة كان عليه ان يشير الى ذلك

ويثبت الوجه الصحيح ويذكر المصادر الاخرى التي ذكرتها حتى يستكمل اسباب بحثه ·

والسؤال الذي يجدر ان يطرق هنا بالنسبة للتوقيعات ، هل هذه كل التوقيعات التي وجدها عند خلفاء وولاة الامويين ام انه اختار مجموعة فضلها على غيرها ، وهل كان الاختيار قائما على أسس معينة ثم ان التوقيعات كالامثال لكل منها قصة ومناسبة واثر ، افلم يكن الاجدر به ان يذكر ذلك ويخرج بفائدة يتوخاها ؟ واذا كان لابد من ذكر هذه التوقيعات كان من الاوفق ان ترد في مكانها المناسب من الحادثة حتى تكون دعما للحادثة وشاهدا عليها ·

ثم ماذا نقول في الوصايا التي لم يختر منها الا اثنتين وكلتاهما لمعاوية ، الاولى يوصي بها المغيرة بن شعبة بعد توليه على الكوفة سنة احدى واربعين ، والثانية يوصي بها ابنه يزيد عند وفاته · وكان من المناسب ان يذكرها - اذا كان لابد من ذكرها - في مناسبتها ضمن البحث ·

وبعد فهذه ملاحظات سريعة اثيرت عند مطالعتي لهذا الكتاب الطريف، واظن ان هذه الملاحظات السريعة لا تحول بيني وبين اعجابي باخلاص الكاتب وجهده المحمود في هذا السبيل فاشكر للاستاذ المؤلف هديته القيمة وارجو له التوفيق في خدمة تاريخنا العربي الاسلامي ·

كتب في الادب الشعبي

عباس العزاوي

١ - الادب الشعبي في جزيرة العرب

العشائر لا تزال كنوزها اللغوية والادبية مخفية ، مستعصية على متطلبها ، صعبة المنال لغير العارف بها ، وبحوثها بكرا · لا يكشف عنها الا من كان خبيرا بها ، مزاولا لمطالبها ، ملتفتا لما فيها من دقائق ، وله رغبة أكيدة ، ويحمل فكرة تذوق قويمة · لاثارة ما فيها من درر وغرر · ولا يكفي هذا حتى يعرف المرء أحوال مجتمعاتها ، ويجوس خلال ديارها أو يقف على آدابها للتمكن منها ، ويكون بصيرا بمنطوياتها في حالاتها المنوعة في حلها ، وترحالها ، وسلمها وحربها ، وأفراحها ، ومجالس أدبها وألعابها ، وسائر أحوالها · ذلك مع الاتصال بالادب العربي الفصيح ولغته ·

وكل هذا لا يكفي حتى يشمل ذلك ما في كل مكان منه بسعة والامكانيات اليوم متيسرة تقريبا · والصعوبة ممكن تسهيلها ، أو الاخذ بناصرها

فيدون المرء ما يتطلع اليه ويكرر التجارب وهكذا • وهذا ما يشكو منه الكتاب وتقصر معرفتهم به • وكانت الصعوبة في انقطاع الاتصالات •

وقد ظهرت في جزيرة العرب دواوين في شعرها ، ومختارات فيها ، وتناول كثيرون بحوثها من أمثال وغيرها ، وان موءلف هذا الكتاب تعرض لمصادر كثيرة ، ومن حسن الحظ أن تعرفت به ، فعلمت انه أحد أدباء البادية في الجزيرة وهو الاستاذ الشيخ عبدالله ابن محمد الخميس • المدير العام في مؤسسة الجزيرة للصحافة والطباعة والنشر في الرياض حضر موءتمر الادباء العرب الخامس المقام في بغداد من ١٥ شباط الى ٢١ منه سنة ١٩٦٥م وأهدى لي كتابه (الادب الشعبي في جزيرة العرب) المطبوع عام ١٣٧٨ هـ في مطابع الرياض • على نفقة معالي الشيخ عبدالله السليمان الحمدان ، فخدم به الخزانة العربية • خدمة تذكر فتشكر •

وهذا الكتاب كل ما يقال فيه من اطراء وثناء قليل • تناول فيه الشعر الشعبي ، وأساليبه ، وأغراضه ، وبحث فيه في اللهجات وصلاتها بالشعر العربي ، وتعرض للشعر الشعبي وعلاقاته بالاقطار العربية • وبحثه في نشأة الشعر النبطي بكر • وربما كان من أول من طرق وتكلم في اللهجات العربية في شعر النبط في مواطن عديدة وهذا موضوع يدعو الى الاهتمام والبحث ، ورأيه يستحق النظر • وهكذا قوله عما في مختلف الاقطار العربية من الشعر الشعبي • ويدعو الى العناية الزائدة والكبيرة • تعرض فيه كثيرا للوجهة التاريخية ، وطرق مطالب عديدة ومهمة ، وأشار الى أنه يأمل أن يتناول بحوثا أخرى في سلسلة متعاقبة • وأملنا أن تظهر •

ومن الموءسف أنه لم يطلع على (الادب الشعبي في العراق) ، ولكنه نظرا لموافقته لما عندنا ، كأنه يبحث فيه ، أو هو عينه ونحن في حاجة لاثارة مثل هذه البحوث لادراك العلاقات الادبية من هذه الناحية من طريق أوسع نطاقا ، بأن نتعرض لها في الاقطار العربية • والحق أن أكثر عشائر العراق أو كلها من نجد ، والقربى النسبية غير مقطوعة ، ولا الادبية بمنبتة والموافقة في جهات كثيرة مشهودة عيانا ، فلا نجد فروقا ظاهرة بين القبيلين ، وقل أن يلتفت اليهما الا من كان درس الاثنين درسا عميقا ويسرنا كثيرا أن يظهر مثل هذا الكتاب النفيس ، ونجد أنفسنا كأننا نقرأ عشائر العراق البدوية ، وأدبها الشعبي •

ويسمون هذا النوع من الشعر بالشعر النبطي • وهو قديم وقد بسط القول فيه ، واذا كنت خالفته في بعض الآراء والمطالب التي أوضحت عنها في كتابي (اللهجات وأدب البادية) و (عشائر العراق) • فهذا أمر يسير يدعو الى النقاش والاخذ والرد حتى تستقر المطالب • وكل أحد منا يوءخذ من قوله ويرد •

وجل أملنا أن ينجح في كتابه ويكتسب رواجا وتوفيقا لتظهر باقي سلسلته ، فيكون ذلك مشجعا له ، ونستفيد من تنبيهه الجهات الغامضة

عندنا ، أو نعلم اتفاق الفكرة وفي كل هذا ربح ، وأمر آخر أعني نتاج هذه الدراسة • فهل فعل مثل ما فعلت ؟ بأن أقترح توجيه الادب الشعبي نحو الفصحى وتسهيل أمره وتقريبه منها بأن يراعى فيها السهولة ، وبساطة البيان وقلة القواعد ، وتقريب الامر من لسان الشعب ، وهو عربي لا ريب فيه • وانما يحتاج الى صقل وتوجيه بأن نستغل اللهجات الفصحى كما استغلها علماؤنا في عهودهم الاولى ، فلا نحاول أن نبقي أدبين ، ولا نكتفي بأحدهما عن الآخر • لان اللغة الشعبية هي الشائعة والمهم تقريبها من الفصحى ، أو تقريب الفصحى منها ، وبالتعبير الاولى أن نجعل الواحدة من الاخرى بالوجه الذي بسطته في كتابي (اللهجات وأدب البادية) • وقد وعد الاستاذ عبدالله خميس أن يتناول موضوع اللهجات في جزيرة العرب في بحث مستقل يصل به الى سلسلة بحوثه(١)•

أعانه الله تعالى الى ما قصد • وسهل له اخراج كنوزه الاخرى وفرائده•

٢ ــ الشعر عند البدو

هذا الكتاب يشبه سابقه في بحوثه وقد وسع ما فيه احيانا بحيث لا يكاد يختلف عنه • ونود أن تتكاثر هذه المطالب لنقف على اختلاف وجهات النظر • ومؤلفه الاستاذ السيد شفيق عبدالجبار الكمالي • كتب مقدمته في ٦ رجب سنة ١٣٨٤ هـ ــ ١٩٦٤م • وطبع في مطبعة الارشاد في بغداد ، ولم يذكر تاريخ طبعه ، وله اتجاهات تدعو الباحث الى التعليق عليها • وهذه أهاجت ذكريات قديمة كنت تناولتها في المجلد الاول من (مجلة الحاصد البغدادية) سنة ١٩٢٩م بعنوان (أدب البادية) وتستدعي العودة اليها • لاسيما قد جعل المجلد الاول من كتابي عشائر العراق المطبوع ببغداد سنة ١٩٣٧م أحد مراجعه ، ولكنه لم يشر الى النقل عنه في مواطنه الخاصة • تكلم في عشائر صليب • وكان البحث له • ونقل آراء الغربيين ، وأغفل ما ذكرت • وتبنى ما قلته • وهكذا في نقله في المواطن الاخرى • ومثل ذلك فعل في (كتاب الادب الشعبي في جزيرة العرب) ، فلم يعرف ما نقل ، وما عارض فيه أو خالف • وانما جعل كل ذلك ملكه الخاص • وكان الاولى أن يصف المراجع ، ويناقش بحوثها ليعرف ما خالف فيه او ما أخذه • والنقد يعين قيمة الكتاب ، ومقدار ما فيه من مطالب موافقة أو معارضة وبهذا غمط حقوق مؤلف من الافاضل المعدودين في نجد ، وكان أمينا في نقله مدققا في بحوثه شأن الباحث الخبير وكان المومـا اليه قد اعتمد مؤلفات عديدة منها (الازهار النادية في شعر البادية) •

واليوم لا يقبل كل قول من كل قائل • والمهم ان ينسب القول لصاحبه ، لا أن يأخذ البحوث ويكتفي بتدوين الكتاب بين مراجع كثيرة • ومع هذا يجب أن يدقق مع كتاب الادب الشعبي في جزيرة العرب ، ومع ما

كتبت أنا • نقل عن كتابي عشائر العراق قصائد في الغزل والرثاء ، وبحوث أخرى لم ينسبها الى مستقاها ، ولم يشر الى مرجعه ، مع أن هذه القصائد انتشرت في حينها في سوريا ولبنان • وان الاستاذ وصفي زكريا في كتابه عشائر الشام مشى على طراز عشائر العراق منوها بما نقل عني ، ومثله الاستاذ عمر رضا كحالة في كتابه معجم القبائل العربية نقل عني الكثير ، ولا تكاد تخلو صفحة من ذكري • فقد حافظ أمانة النقل •

والوجهة التاريخية من أهم ما يجب ذكرها • قال الاستاذ المؤلف : لو فتشنا (كتب التراث) لما وجدنا فيها عنه شيئا • وهذا (نقص) التفت اليه (ابن خلدون) فسجل منذ قرون نماذج منه ••• الا أن أحدا ممن جاء بعده لم يحاول ان يكمل هذا الذى بدأ به(٢) •••

وأقول تابع الشيخ عبدالله بن خميس ، ووقف عنده في حين أن كتب الادب مثل العقد الفريد وغيره تعرضت للزجل • وفي كتاب الملاهي وأسمائها(٣) تأليف ابي طالب المفضل بن سلمة الضبي النحوي اللغوي المتوفي سنة ٢٩٠ هـ – ٩٠٢م ، وكتب اللغة بكثرة قرنته بالغناء العربي مما يدل على قدمه •

وفي الاندلس في العهد العباسي اشتهر على ما قيل ابن راشد وأشهر من عرف بالزجل ابو بكر محمد بن عيسى بن عبدالملك بن عيسى المعروف بابن قزمان المتوفي سنة ٥٥٥ هـ – ١١٦٠م • وتناقل الناس أزجاله • روى له في بغداد اكثر مما كان يروى في الاندلس ، فهو امام أهل الزجل في عصره، وله (اصابة الاغراض في ذكر الاعراض) • وهو جزء من ديوان أزجاله • طبع بالتصوير الشمسي(٤) • ويقال ان صاحب الف وزن ليس بزجال •

وتناول الشعر العامي في العهد العباسي ، بشر بن جبارة في كتابه (نقد الشعر) في الرد على ديوان ابن سناء الملك •

وفي عهد المغول والتركمان تناول (الشيخ صفي الدين الحلي) في كتابه (العاطل الحالي والمرخص الغالي)(٥) بحوث الزجل ، وأوضح تاريخها ، وأرجعها الى أواخر العهد العباسي • بل انه كان قبل ذلك بزمان لا يدرك أوله في عهد الجاهلية والاسلام ، واتصل بها اتصالا وثيقا في الحداء وأمثاله مقرونا بالغناء •

وتعرض للشعر العامي الاستاذ خليل بن أيبك الصفدي • وذكره في كتابه (الاقتصار على جوهر السلك في الانتصار لابن سناء الملك) وقد أعددته للطبع ، وكذا آخرون منهم ابن خلدون وابن حجة •

وكان الشعراء عندنا قد عرف شعرهم من أول الالف الثاني • واشتهر منهم في الموال أو الزهيري الكثير ، ومن أشهرهم الاستاذ عبدالغني جميل وآخرون لا يزالون يرددون شعره وينظمون الى اليوم فيه ، ولم ينقطع •

وكنت كتبت في المجلد الاول من (عشائر العراق) وفي المجلدات الاخرى

وفي المجلد الاول من تاريخ الادب العربي في العراق مع صلاته بالاقطار العربية والاسلامية(٦) • ثم تناولت بحوثا عديدة في أدب البادية أعددتها للطبع •

وكنت ذكرت في مواطن عديدة أن بحوث العشائر كثيرة جدا ، وتستحق النقاش ، والتعليق ، والزيادة ، والتعديل ، والتحوير حتى تظهر بأكمل وجه • ولذا نقدت بعض الكتب في (اللهجات) ، وفي العرف ، وفي أمور أخرى تتعلق بـ (اصلاح العشائر) • ودعوت كثيرا الى لزوم الالتفات الى تحقيق أمر الاصلاح بأكمل وجه في الحياة البدوية ، أو ما يجب عمله ، وهم قومنا ونتهالك في سبيل اصلاحهم ، دام البحث في ذلك كثيرا ، الى أن ألغي نظام العشائر وحل (قانون الاصلاح الزراعي) بتعديلاته وذلك في عهد جمهوريتنا •

والاستاذ الكمالي لم يتطرق الى اصلاح أدبي ، واتخاذ وسيلة لتقريب العامية (الشعبية) من الفصحى بالوجه المذكور ، فلم يلتفت الى هذا الموضوع • وهو ضار باللغة ويجعل للامة أدبين شعبي ، وفصيح • حيث اعتبر الادب الشعبي مستقلا بكيانه • وعلى كل حال لم يلتفت الى اتجاهي، ولا الى اتجاه الاستاذ ابن خميس •

ومع كل هذا فالمؤلف شفيق الكمالي له فضل الاشتغال والمقارنة تظهر ما أخذ والتخفي محدود لامد والتحقيق يكشف الحقيقة • ومثل هذه البحوث تحتاج الى تتبعات كثيرة ، ومناقشات ناضجة ، فلا يكتفي برأي واحد أو آراء منفردة • والمهم أن يحفظ للمرء قوله ، ولا يضيع جهده •

وعلى كل حال يشكر الاستاذان على ما قدما من تحف أدبية • والمؤلفات ميدان سباق يظهر فيها السابق المجلي • وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان •

---

(١) الأدب الشعبي في جزيرة العرب ص٣٥ •

(٢) الشعر عند البدو ص٤ •

(٣) نشرته ملحقا بكتابي الموسيقى العراقية المطبوع ببغداد سنة ١٩٥١م •

(٤) الاعلام للاستاذ خيرالدين الزركلي الطبعة الثانية ج٧ ص٢١٤ ، وفي خزانتي مجموعة في الازجال القديمة لمشاهير عديدين من أهل الزجل كابن قزمان والفقاعي وعلاء الدين بن مقاتل وصدرالدين بن الوكيل وابن غزالة المغربي وجمال الدين يوسف بن محمد الصوفي وغيرهم •

(٥) طبعة الاستاذ « ولهلم هونرباخ » في المانيا سنة ١٩٥٥ •

(٦) من مطبوعات المجمع العلمي العراقي سنة ١٩٦٠ ص ٣٣٩ – ٣٤١ •

آراء وتعقيبات

تعقيب

عملا بحرية النشر أرجو أن تنشر كلمتي هذه تعقيبا على مقال الاخ عبدالله الجبوري بعنوان مكتبة الاوقاف ونوادر مخطوطاتها .

فقد ذكر في السطر الخامس عشر من الصفحة الاولى وكان موضعها في البناية المشيدة على مسجد الخزرجي والحقيقة لا يوجد مسجد في بغداد بهذا الاسم وقد التبس الامر عليه فقد ذكر العلامة الالوسي في كتابه مساجد بغداد ان وزارة الاوقاف أخرجت من مسجد الملا محمد (الكائن قرب سوق الصفارين على شارع الرشيد) دكاكين وفوقها غرف كي تتخذ مكتبة وكذلك عندما ذكر مسجد نائلة خاتون فمسجدها كان ولا يزال في الشارع المقابل لجامع الحيدرخانة وليس في الميدان قبالة وزارة الدفاع ومدرس المدرسة في الوقت الحاضر سماحة الشيخ نجم الدين الواعظ أرجو نشر هذه الكلمة في عددكم القادم احقاقا للحق والعصمة لله وحده وشكرا مقدما .

نعمان الاعظمي

الطريقة السهروردية

كان بودي أن ألتقي بالاستاذ عباس العزاوي غير هذا اللقاء ، وفي مجال غير هذا المجال ، وميدان غير هذا الميدان ، ولكن لابد مما ليس منه بد فقد قرأت له في الجزء السابع من مجلة الاقلام الغراء الصادر في آذار ١٩٦٥ بحثا وضع عنوانه هكذا : « الطريقة السهروردية » .. ولقد ظننت كما ظن غيري أن البحث يدور حقا حول هذه الطريقة : ما هي ، وكيف نشأت ، ومتى نشأت ، وما هي الملابسات التي أحاطت بنشأتها ، وما الفرق

بينها وبين سائر الطرق كالرفاعية والقادرية ، وهل كانت وما زالت لهـا سجادة وفرقة ، وما المدى الجغرافي لها ؟

ولا أكتم القارىء اني قرأت البحث مثنى وثلاث ورباع لا لاني لم أفهمه ، ولكني كنت أبغي التوصل ولو استنتاجا الى الاجابة على هذه الاسئلة التي كنت وما زلت أرددها بصدد الطريقة السهروردية ، غير اني مع ذلك لم أوفق في الحصول على بغيتي فقد كان البحث خلوا من هذه المعلومات فلم يتطرق اليها الاستاذ الفاضل بالبحث فقد اقتصر فيما كتب على ترجمة للشيخين عبد القاهر السهروردي أحد أساتذة المدرسة النظامية ببغداد وابن أخيه شهاب الدين عمر السهروردي ، ومؤلفاتهما وتلامذتهما والمؤلفات التي كتبت عنهما ولم يزد على ذلك ومن هنا كان عنوان البحث لا يتفق مع مضمونه ، وليت الاستاذ الكريم أتحف القراء ببحث عن الطريقة السهروردية ليعم النفع وتتم الفائدة .

ولقد ذكر الاستاذ حفظه الله في جملة ما ذكر ان عبد القاهر السهروردي دفن في رباطه في الجانب الشرقي من بغداد وفي مدرسة السليمانية بالذات الكائنة مقابل دار الضباط في محلة البقچة في الحال الحاضر وزاد فقال أن ما ورد في بعض المصادر من أنه دفن في الجانب الغربي من بغداد خطأ محض وهو يشير بهذا الى ما ورد في الجزء الاول من وفيات الاعيان للقاضي شمس الدين أحمد بن محمد بن ابراهيم بن أبي بكر بن خلكان حيث جاء فيه بالنص الواحد ما يلي : « وبنى رباطا على الشط من الجانب الغربي ببغداد وسكنه جماعة من أصحابه الصالحين » ثم يقول بعد عدة أسطر « وعاد الى بغداد وتوفي بها يوم الجمعة وقت العصر سابع عشر جمادى الاخرة سنة ثلاث وستين وخمسمائة ودفن بكرة الغد في رباطه » انتهى قول ابن خلكان ومن هذا يظهر أن الرباط الذي بناه عبد القاهر السهروردي كان في جانب الكرخ على شاطىء دجلة وليس في جانب الرصافة كما يقول الاستاذ الفاضل ، واذا كان رأي ابن خلكان في ما ذهب اليه مغلوطا لا يصح الاعتماد عليه فعلى أي مصدر اعتمد الاستاذ فيما قرره وأشار اليه ، وبودي أن أعرف هل أن أقوال ابن خلكان كلها لا يعتمد عليها أم أن ذلك يقتصر على ما جاء بشأن عبد القاهر السهروردي فقط .. ؟

ليت الاستاذ يتفضل مشكورا فينير لنا السبيل ، ويدلنا على المصادر المعتمدة من قبله في معرفة الماضي من أيامنا ، والذاهب من رجالنا .

ترى هل يستجيب الاستاذ لهذا الطلب .. اني أرجو .

بغداد **عبدالحميد الآلوسي**

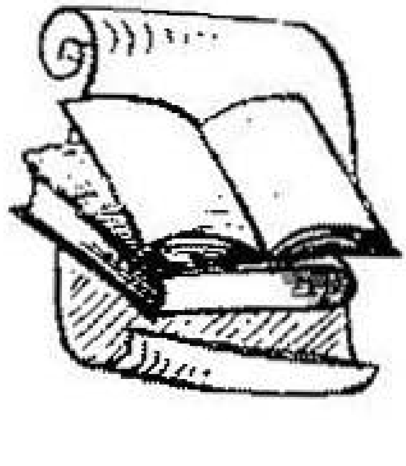
معجم ابن عباد

لقد قرأت في باب أنباء الفكر من الجزء السابع من مجلة الاقلام خبر : حصول المتحف البريطاني على نسخة خطيــة كاملة لمعجم عربي من تأليف اسماعيل بن عباد الصاحب المتوفى سنة ٩٩٥م . وجاء في الخبر أيضا : انه مما تجدر الاشارة اليه ان دارالعلوم في القــاهرة تملك نسخة من المعجم لا تحوي الا سبع المعجم الأصلي .

وهنا لا بد لي أن انبه - الآن - على وجود نسخة تامة من معجم ابن عباد واسمه : « المحيط » ، في مكتبة المتحف العراقي ببغداد ، وهي في مجلدين كبيرين . ويجدر التعريف بها بتفصيل ، واني لأرجو أن اوفق الى القيــام بذلك قريباً .

وسأكون شاكراً لكم لو تفضلتم بنشر هذا الخبر في مجلة الاقلام .

ناجي محفوظ



اضواء على السياسة العالمية

السياسة الداخلية

الاستعمار وراء الانفصاليين

تحدث عدد من رؤساء العشائر الاكراد في ندوة تليفزيونية أذيعت من شاشة تلفزيون بغداد خلال الشهر المنصرم (مايس) عن جرائم عصابة الشقاة والعلاقة الوثيقة التي تربط البرزاني بحلف السنتو الاستعماري ، لقد كان المتحدثون من الاكراد الذين مارس بعضهم عمليات العصيان ووقع تحت طائل التغرير والخديعة ولكنه أدرك بعد فترة أن الطريق التي يسلكها وعرة صعبة ، هي في الحقيقة امعان في الخيانة والاجرام ، هي اجرام بحق الاكراد أنفسهم قبل ان تكون اجراما بحق العرب ، وهي بالتالي لا تخدم الا الاستعمار وأعوانه ولا تأتي الا بالويل على الفاعلين انفسهم ٠

لقد أدرك الجميع أن التفريط بجزء من الوطن خيانة كبرى لا يقدم عليها الا المجرم الباغي ولن تؤدي الا الى تفكيك الوطن وبعثرة قواه وبالتالي جعله فريسة مستساغة للاستعمار وأعوانهم والطامعين في خير هذا الوطن ممن تضررت مصالحهم فحملوا الحقد والحسد وناصبوا الثورة العداء وتربصوا بها الدوائر ٠ هذا اذا كانت نية الانفصاليين تتجه الى تأييد ما يسمى بالقضية الكردية ولكن الذي ثبت بالفعل أن هذه الفئة قد اتخذت من القتل وسفك الدماء واللصوصية هدفها الاول وغايتها القصوى وهو ما أشارت اليه الندوات التي قدمها اخواننا الاكراد ، وأوضحوا أن هذه الاعمال الاجرامية يقاسي منها سكان ألوية المنطقة الشمالية وبينهم غالبية من الاكراد ٠

أن الاكراد قد رحبوا بسحق رؤوس الخيانة وتطوع الكثير منهم لمطاردة فلول العصابة السائبة التي تتحرك بوحي أجنبي وتعمل لخدمة أغراض هي أبعد ما تكون عن العروبة والاسلام ٠

وقد أكد الاكراد في أحاديثهم أن الوحدة الوطنية رائد الجميع وان أعمال الشغب التي يمارسها البرزاني وعصابته مقضي عليها بالفشل لا محالة ٠

تعويض حملة الاسهم :

بادرة أخرى من بوادر ايفاء الحكومة بالتزاماتها فقد سبق للمسؤولين أن صرحوا أن عملية التأميم ليست عملية مصادرة أو استيلاء وسبق للحكومة أن عوضت حملة الاسهم في الشركات والبنوك المؤممة جزءا من حصتهم والان تبادر الحكومة الى التعويض الكامل لهؤلاء الناس والحكومة بذلك تقطع ألسنة السوء ودابر الاشاعة وهي تبرهن على ما يتمتع به الوضع المالي من ثقة رغم ما تصاب به المشاريع من الهزات في مثل الخطوات التي اتخذت فان أكثر بلاد الله رسوخا في الاقتصاد اذا ما أقدمت على خطوات اقتصادية معينة فلابد أن تجد بعض الصعوبات في بداية التغيير الذي تقدم عليه .

لقد دلت الاحصائيات التي نشرتها المؤسسة الاقتصادية على أن معظم الشركات التي أممت قد حققت تقدما ملحوظا في زيادة الانتاج وبذلك ارتفعت أرباحها على الرغم من تخفيض الاسعار الذي حصل في بعض المنتجات الضرورية .

ان تعويض حملة الاسهم قد ترك أثرا في السوق فانتعشت الحركة التجارية ولا شك فان توظيف هذه الاموال في الاعمال التجارية الاخرى سيكون له أثره الواضح في النشاط الاقتصادي باشكاله المختلفة .

السياسة العربية

قطع العلاقات العربية مع المانيا الغربية :

نفذت الدول العربية قرارها بقطع العلاقات الدبلوماسية مع حكومة بون بعد أن أقدمت على تبادل التمثيل الدبلوماسي مع حكومة العصابات الصهيونية في فلسطين المحتلة وقد كانت الجمهورية العراقية أول قطر عربي ينفذ الالتزامات في هذه الناحية وتبعته بقية الدول العربية عدا الاقطار الثلاثة تونس والمغرب وليبيا .

وبدأ رد الفعل يظهر على حكومة بون في عملية الاغراء التي تمارسها مع الحكومة التونسية ، أن المنافع المتبادلة هي الطريق الذي تفهمه الشركات في عالم الاقتصاد ولا شك أن الشركات الكبرى تتوقع أن تربح من تعاملها مع الاقطار العربية وبالفعل فان مئات الملايين من الباونات كانت تدفع سنويا من المنطقة العربية الى شركات المانية ثمنا للسلع الاستهلاكية وغيرها ، ولا شك أن قطع العلاقات سيؤثر تأثيرا كاملا على النواحي الاقتصادية والتجارية وبالتالي ستشعر حكومة المانيا الغربية أنها قد دفعت

الى هذا العمل العدائي دفعا ليحل محلها في هذه المناطق اقتصاد اخر وبضائع أخرى غير المانية ٠

وسوف لا تجدي عملية بضع الملايين التي تدفع لابي رقيبة فان الشعب العربي قد حكم على الرجل بأنه باع الكرامة العربية بهذه الملايين التي سوف لا تعوضه بعض ما فقدت تونس بسببه ٠

اجتماع القيادة السياسية الموحدة في القاهرة :

سافر الى القاهرة خلال شهر أيار السيد رئيس الجمهورية المشير الركن عبد السلام محمد عارف على رأس الجانب العراقي لاجتماعات القيادة السياسية الموحدة بين بغداد والقاهرة وكان السيد الرئيس جمال عبد الناصر على رأس الجانب العربي لتلك الاجتماعات كما ان الوفدين قد ضما وزراء الخارجية والدفاع والثقافة والتخطيط وأعضاء من الاتحاد الاشتراكي في كلا القطرين ومن المعلوم أن اجتماع القيادة السياسية الموحدة قد استعرض الامور السياسية الدولية والاحداث العالمية الهامة وقد نوقشت المخططات الاستعمارية في المنطقة جملة وتفصيلا وبخاصة ما يتعلق منها بقضية فلسطين واليمن ، وتحدد في الاجتماع الدور الذي تقوم به كل من الجمهورية العربية المتحدة والعراق في مقابلة التحديات الاستعمارية والصهيونية وغيرها وبحثت كذلك موضوعات توحيد العمل السياسي الداخلي وتنظيماته وتذليل ما يواجهه من الصعاب ٠

ومما تجدر الاشارة اليه أن القيادة السياسية الموحدة قد استنكرت موقف بورقيبة الذي يخدم الاستعمار والصهيونية ٠ ونص في قراراتها على ضرورة دعم النظام الجمهوري في اليمن وبحثت كذلك الخطوات التي اتخذت في طريق الاشتراكية في مختلف الميادين ، ونص على أن ميثاق العمل الوطني في كل من القطرين هو سبيل الحرية والاشتراكية والوحدة ، وأكد البيان على أن الوحدة الوطنية التي يصنعها تحالف قوى الشعب العامل هي القوة التي يستند اليها الشعب لتثبيت مكاسبه السياسية والاجتماعية وهي دعامة الوحدة ٠

وقد ورد في النقاط التي تلاقت عليها وجهات النظر أن الاتحاد الاشتراكي العربي الذي يجمع قوى الشعب العاملة هو التجسيد الحي لسلطة الشعب ٠

وقد عقد المجلس الوطني لقيادة الثورة ومجلس الوزراء اجتماعا مشتركا برياسة السيد رئيس الجمهورية المشير الركن عبد السلام محمد عارف فور عودة الرئيس من القاهرة وقد استهل الاجتماع بكلمة مستفيضة من السيد الرئيس بين فيها الجهد الوحدوي الذي بذله العراق لتحقيق آماله

وآمال الامة العربية في الوحدة الشاملة • وقدم السيد الرئيس صورة واضحة لاعضاء المجلسين عن الموقف العربي العام والتطورات الاخيرة التي شهدتها منطقتنا العربية • ثم عرض النتائج التي أسفر عنها اجتماع القيادة السياسية الموحدة وطرح برنامجا للعمل السياسي •

ومما ورد في كلمة السيد الرئيس قوله : « ولقد حملتنا الاجيال الماضية أمانة كبيرة فحملناها واننا سائرون وماضون في أدائها على الوجه الاكمل وسوف نحققها • لقد كانت وحدة أمتنا حلما فاصبحت حقيقة وخرجت الارادة العربية الحرة تخطط مستقبلها بنفسها وتستند الى اصول تاريخها وصلاتها المتينة • صلات الدم والعقيدة ووحدة الهدف والامل في مستقبل مشرق ينتظر أمتنا » •

مؤتمر رؤساء الحكومات العربية :

اجتمع في القاهرة خلال الاسبوع الاخير من شهر أيار الماضي رؤساء الحكومات العربية • وكان وفد الجمهورية العراقية برئاسة الفريق طاهر يحيى رئيس الوزراء وكان جدول أعمال الاجتماع حافلا بشتى المواضيع الراهنة التي تهم مستقبل الامة العربية وانبثق عن اجتماع رؤساء الحكومات اجتماع مجلس الدفاع العربي الذي يضم وزراء الدفاع وأركان حرب الجيوش العربية •

وقد أعلن البيان الصادر عن المؤتمر أن قرارات مجلس رؤساء الحكومات تحرت دعم وحدة العمل العربي لتحرير فلسطين وتأييد منظمة التحرير الفلسطينية وجيش التحرير الفلسطيني ، وأكد البيان ارادة العرب وتمسكهم بمقررات مؤتمري القمة وتحقيق المزيد من الفعالية للقيادة العربية والمشروع العربي الموحد لاستغلال مياه نهر الاردن وضد الاعمال الاسرائيلية العدوانية •

أن مؤتمر رؤساء الحكومات رفض رفضا قاطعا مقترحات أبورقيبة التي انفرد بها الرئيس التونسي واعتبرت خروجا على الاجماع الحكومي والشعبي حول قضية فلسطين •

وقد رأى المراقبون السياسيون أن اجتماعات رؤساء الحكومات جاءت كلها في تدعيم القضايا العربية دون ذكر للتفاصيل التي توضح كيفية التدعيم وقد علق بعضهم على ذلك بأن القرارات طابعها السرية التامة لانها تتصل بأعمال تتعلق بالموقف من العدو المشترك (اسرائيل) ، ويرى بعضهم أن تلك القرارات قد استوفت الغرض الذي من أجله عقد الاجتماع ويرى المراقبون أن الاعتداءات الاسرائيلية على الحدود في فلسطين دليل على قلق السلطات الاستعمارية والاسرائيلية من هذه الاجتماعات التي توضح

طبيعة التجمع العربي في مواجهة العدوان والتغلب على المصاعب التي يثيرها دعاة التخلف والشذوذ عن الاجماع ·

السياسة العالمية

عدوان أمريكي جديد :

كان تدخل الولايات المتحدة في شؤون الدومنيكان الداخلية وانزالها لقواتها لتنتصر لجماعة من القوات العسكرية في تلك البلاد دليلا آخر في نوايا الولايات المتحدة تجاه البلاد التي تشعر أنها ستتبع طريقا يخالف الطريق الذي ترسمه دوائر البيت الابيض الامريكي ، ان التدخل في الشؤون الداخلية لاي بلد مهما كان يعد مخالفة صريحة لقرارات الامم المتحدة وميثاقها الذي بصمت عليه الولايات المتحدة وبدأت تخرقه · ان عمل الولايات المتحدة هذا يضعف ـ بلا شك ـ هيبة المنظمة العالمية ويجعلها مؤسسة مشلولة عن القيام بتبعاتها وقد استنكر العالم هذا التدخل بصورة واضحة واستنكرته الاوساط الحرة في الولايات المتحدة نفسها ·

ازمة فيات‌نام :

لا تزال الانباء التي تتوارد عن جنوب شرقي اسيا تنذر بتوسع القتال في تلك المناطق بعد أن بدأت الطائرات الامريكية بهجومها الكبير على فيات‌نام الشمالية ويرى المعلقون السياسيون ان أمريكا في عملها هذا تجدد مأساة كوريا التي حاربت فيها ثلاث سنوات وذهب مئات الالوف من الضحايا ولكن دون جدوى ·

ترى متى تتعلم الولايات المتحدة ان سياسة العدوان والحرب قد انتهى أمرها ولن تؤدي الى نتيجة ·

أن الخسران ينتظر الولايات المتحدة في حربها في جنوب شرق اسيا مهما طال الامد · ولكن الذي تخشاه الدوائر السياسية في العالم أن يتسع نطاقها الى حرب عالمية لا غالب فيها بل الكل مغلوب لا محالة ·

●